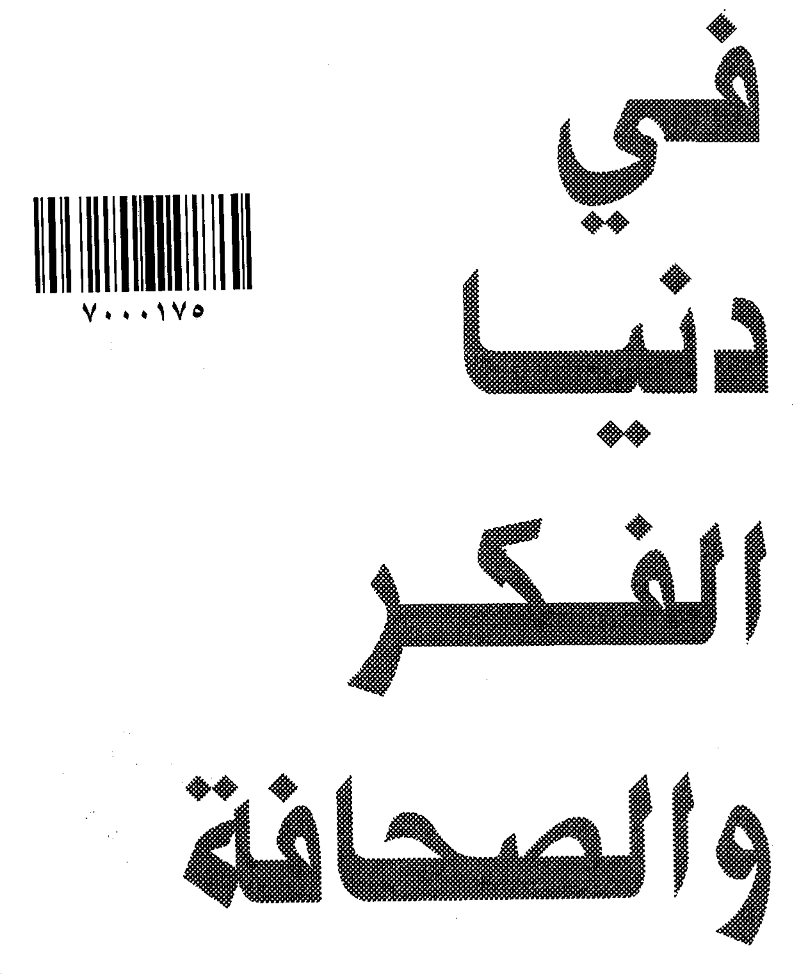
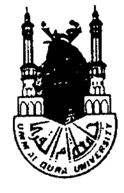
الأعمال
الأدبيـة
الكاملة
3

محمد عمر توفيق

في دنيا الفكر والصحافة





ح جامعة أم القرى ، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

توفيق، محمد عمر

في دنيا الفكر والصحافة - جدة.

...ص ؛ ...سم (الأعمال الأدبية الكاملة؛٣)

ردمك : ٥ -٥١١-٣-٠٣-٩٩٦٠

١- المقالات العربية السعودية أ- العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٠ ٢١/٥٥٢٢

رقم الإيداع : ٢١/٥٥٢٢

ردمك : ٥ -٥١١-٣-٠٣-٩٩٦٠





الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠١م


بسم الله الرحمن الرحيم



فهرست
« في دنيا الفكر والصحافة»

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
	عن الناشر .. إضاءة	٩
	محمد عمر توفيق.. ماذا عساي أن أقول؟	١٣
١	مرحباً بالنور	١٧
٢	بين يدي «الندوة»	١٩
٣	شجرة الأدب	٢٢
٤	عجلة الزنا	٢٤
٥	أجهزة القلق	٢٦
٦	معجزة خالدة	٣٠
٧	السر في أنفسكم..!	٣٢
٨	فلسفة الصبر	٣٤
٩	في انتظار صاروخ	٣٧
١٠	رفقاً بالقوارير	٣٩
١١	محرقة الأعصاب	٤١
١٢	أدبنا وهل يصلح للتصدير أم لا وكيف يصلح له؟	٤٤
١٣	هل يستحق شعرنا التصدير؟ ولماذا؟	٤٩
١٤	إخفاق الأدب	٥١
١٥	لغتنا بحرا!	٥٥
١٦	أين نحن من العالم	٥٨
١٧	في عالم الكتب	٦١
١٨	مزمزة (١)	٦٥
١٩	مزمزة (٢)	٦٧

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
٢٠	مزمزة (٣)	٦٨
٢١	مزمزة (٤)	٦٩
٢٢	مزمزة (٥)	٧١
٢٣	الماضي.. والمستقبل!!	٧٢
٢٤	الهدف الأكبر	٧٤
٢٥	فكرة الكاتب	٧٧
٢٦	الشعر.. صحافة!؟	٧٩
٢٧	الأدب.. بخير!!	٨٣
٢٨	أين يقف الله؟!	٨٧
٢٩	صخرة الإيمان	٨٩
٣٠	ذلك العالم	٩٢
٣١	الوعي للصحافة	٩٣
٣٢	من هو الدجال؟	٩٥
٣٣	الذكرى تنفع المؤمنين	٩٧
٣٤	العملاق الكبير	٩٩
٣٥	الأجير	١٠٢
٣٦	تقرير المصير!	١٠٤
٣٧	العلم السياسي	١٠٦
٣٨	بريطانيا العظمى	١٠٨
٣٩	انحراف الكلمة	١١٢
٤٠	المصححون(١)	١١٤
٤١	المصححون (٢)	١١٥
٤٢	المصححون (٣)	١١٧

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
٤٣	العالم في قدر	١١٩
٤٤	خطة الحياة	١٢٣
٤٥	فلسطين الضائعة	١٢٤
٤٦	محنة القلم (١)	١٢٦
٤٧	محنة القلم (٢)	١٣١
٤٨	محنة القلم (٣)	١٣٢
٤٩	محنة القلم (٤)	١٣٤
٥٠	محنة القلم (٥)	١٣٦
٥١	محنة القلم (٦)	١٣٨
٥٢	محنة القلم (٧)	١٣٩
٥٣	محنة القلم (٨)	١٤٠
٥٤	محنة القلم (٩)	١٤١
٥٥	محنة القلم (١٠)	١٤٣
٥٦	محنة القلم (١١)	١٤٤
٥٧	عريان على رأسه «طرطور»!	١٤٥
٥٨	ظاهرة التكرار	١٤٧
٥٩	هذا العالم	١٤٩
٦٠	من هو؟	١٥٠
٦١	الكوميدي الكبير	١٥٢
٦٢	المرض يتطور	١٥٤
٦٣	الوزير .. والكاتب.. وآخرون	١٥٦
٦٤	أهل «أبولو»	١٦٨
٦٥	النقد.. للتفوق؟	١٧٠

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
٦٦	أسلوب البرادع!	١٧٢
٦٧	عطاء القادرين	١٧٤
٦٨	كلام عن المتنبي والمعري	١٧٧
٦٩	السهل الممتنع	١٨٣
٧٠	هاوي أدب	١٨٨
٧١	شعلة الأدب	١٩٣
٧٢	أسئلة وأجوبة (من هو محمد عمر توفيق؟)	١٩٦
٧٣	بين الإرادة.. والإمكان؟	٢٠٠
٧٤	أحمد قنديل	٢٠٣
٧٥	شر.. لابد منه!	٢٠٩
٧٦	الأوغاد	٢١١
٧٧	محنة الكلام (١)	٢١٣
٧٨	محنة الكلام (٢)	٢١٦
٧٩	محنة الكلام (٣)	٢١٨
٨٠	محنة الكلام (٤)	٢٢٠
٨١	المناخ الفسيح	٢٢٢
٨٢	ظاهرة الصحف	٢٢٤
٨٣	مهمة الناقد!	٢٢٨
٨٤	الوعي المبعثر أو المفقود!!	٢٣١
٨٥	عملاق.. في دنيا الفكر	٢٣٥
٨٦	على هامش الأيام	٢٣٩

عــن النــاشــر

إضــاءة

حمداً لك اللهم وصلاة وسلاماً على عبدك ورسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فيصافح القارئ الكريم الكتاب الثالث: « في دنيا الفكر والصحافة» ضمن سلسلة أعمال الشيخ محمد عمر توفيق - رحمه الله- التي تنهض جامعة أم القرى بنشرها، في بادرة كريمة من معالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور: سهيل بن حسن قاضي، وتوجيه منه بالإسهام في حركة النشر لأعمال أعلام الأدب العربي السعودي وكل ما يخدم قضايا المجتمع والوطن بعامة، ويدفع بعجلة البحث العلمي قدما. كما ننوّه بفضل مساندة ودعم سعادة أ. د. ناصر بن عبدالله الصالح وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي ومدير الجامعة المكلّف.

ومحمد عمر توفيق الأديب الكاتب، ذي القلم العفّ والنهج المتميّز في الكتابة، هو أنموذج من طائفة من أدباء الكلاسيكية الحديثة في البلاد، نعدّهم في الجيل الثاني (جيل الروّاد) بعد رجال الرعيل الأول، وإن كان هو ، يضع نفسه في مصافّ الجيل الثالث، متأخراً عن القنديل وشحاته والفقي ورصفائهم.

وليس ثمة خلف بين التصنيفين، ذلك بأن من عدّهم في مقدمة الجيل الثاني (انظر: أحمد قنديل) يلحقون أحياناً مع آخرين، برجال الرعيل الأول، تسمّحاً من حيث اعتبار الزمان، واستحقاقاً من حيث المقام الأدبي.

فقد راد هذان الجيلان السبيل إلى فنون من الأدب وأساليب الأداء الحديث، كانت طلائع التجديد وإرهاصات النقلة إلى ما بعد التقليدية.*

ومن غير اليسير في الواقع، ما لم يؤخذ ضابط الزمان بالاعتبار، والريادة في الفن، إقامة فصل حاد بين الطبقتين لتشابه ما بين رجالاتها في بلاغة الأداء لديهم، ورصانة الأسلوب عندهم وتوجّههم إلى خدمة غايات الإصلاح وترقية الوعي: والوعي شرط أساس في الأصالة وبلوغ النهضة وفي كل الطرق الصحيحة لتناول الحياة.

وإقدام جامعة أم القرى على إخراج هذه الأعمال، بالتعاون والترتيب مع ورثته -رحمه الله- وإخراج غيرها، من مثل محاولة نشر آثار الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي - رحمه الله- وتصنيف موضوعاتها إنما قصد به أساساً، بعد القيام بما أسند إلى الجامعات من دور في النشر، توفير المادة العلمية بين يدي الباحثين من أساتذة الجامعة وطلابها، لدراستها وتقويمها والكشف عن سماتها الموضوعية والفنية. ومن قديم اتجهت هذه الجامعة إلى العناية بدراسة آثار علماء البلاد وأدبائها، وحث طلاب الدراسات العليا بها على تسجيل رسائلهم لدرجات الماجستير والدكتوراه في أعلام الفكر والأدب في المملكة ودراسة فنون الأدب ومظاهره واتجاهاته، هذا إلى جانب مبادرة هذه الجامعة إلى تقرير مادة دراسية خاصة للأدب العربي السعودي، ضمن مقررات الدراسة العامة للمرحلة الجامعية منذ وقت مبكر في كلية اللغة العربية وآدابها.

وكان من أول من عني بتدريسها وشارك في وضع مفردات منهجها الزميل الأستاذ الدكتور/ عمر الطيب الساسي.

وقد أثمر الاشتغال في حقل هذا الأدب نحو ثلاثين رسالة علمية في دراسة تاريخ الأدب في المملكة العربية السعودية وقضاياه وأعمال رجاله. وما نشر من

* أسهم توفيق في كتابة القصة ونظم الشعر وأدب الرحلة والمراسلة الأدبية.

هذه الرسائل قليل، وما بقي هو الأكثر، وإن تقادم ببعضه الزمان وما استجد من أعمال مشابهة، أو تطورات في الأخذ بآليات حديثة في البحث العلمي، غير أنه يظلّ لها قيمة التقدّم في وقت كانت تعزّ فيه المصادر وتقل الأبحاث الموطّئة لخلفيات الدراسة والعوامل المؤثرة فيها.

وكتاب « في دنيا الفكر والصحافة» ثالث كتب هذا العلَم قد يكون، شأن ما سبقاه، غير مألوف في أسلوب التناول فيه وطبيعة ما عرض له من بعض القضايا، عند الأجيال الجديدة التي تغيّر بها الحال مع تغيّر الأوضاع وتقدّم الزمان، وهو ما يضفي على العمل طابع الخصوصية والفرادة من هذا الجانب، لأنه يحكي عما كان ويستشرف ما يكون.

ولقد عاصر محمد عمر توفيق مراحل النقلات الكبرى في البلاد، وشهد الخطوات المبكرة لمساعي النهضة والاصلاح، وهي تمر بطيئة متدرجة، تتطامن فيها القدرات والامكانات عن مسامقة الطموحات والتطلعات.

ثم تسارعت حركة الزمان، وانفتحت البلاد وانفتح على البلاد موارد ومنافذ، سرّعت حركة التنمية وعجّلت بنهضة شاملة عمّت كل مرافق الحياة ونشاط الإنسان في هذا العهد الزاهر.

ولقد شارك هو مع من شارك فيها من رجال الصف التنفيذي الأول، ومن قبل مع حملة الطموحات من رجال القلم والدعوة إلى البناء والإصلاح.

وأعمال محمد عمر توفيق وأجيال متقدميه ومعاصريه هي التي ترسم خلفيات وبيئات فصول هذه الملحمة الكبرى لأمجاد البناء والتوحيد والنهضة والتطور من لدن أول لبنة وضعها في أساس هذا الصرح القائم الملك عبد العزيز - رحمه الله -، وأعلى بناءها هو وأبناؤه البررة من بعده.

د. صالح جمال بدوي

عميد كلية اللغة العربية

غرة ربيع الأول ١٤٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

«محمد عمر توفيق»
ماذا عساي أن أقول..؟

إنه يحب مساعدة من ينشدها منه، دون أن يخدش حياءه، إذ لعلّه كان مديوناً لصاحب حق، أو لأداء واجب عليه..

كذلك إذا سمع رأياً مهزوزاً في أي شخص كان، أو موضوع ما، أو موقف ما، فإنه يتغاضى عنه إن لم يكن بوسعه إبداء رأي فيه.. فقد كان -رحمه الله- من أبرز شمائله وأكرم أخلاقياته أنه يخاف الله فيما له وعليه..

إن الكتاب الذي يضم عشرات المقالات ذات الآراء المتعددة أو ذات التعقيبات الملحوظة.. ليس من السهل أن تتجاوز قراءة ما لاترغب قراءته.. لأنك لو تجاوزته وجدت من يسألك رأيك فيه.. وتحار في موقفك لدرجة أن هذا المقال أو ذاك الرأي لم يمرّ عليك.. أو أنك لم تجده منشوراً في الكتاب.. وعندما ترجع للكتاب تجده وقد قرأته من قبل ربما مرة أو مرتين.. وهذا ما يشير إلى ما يسمى بالإعجاز أو نحواً منه..

وطيلة حياتي معه وتعاملي في شتى المواضيع التي كنا نخوضها ونعالج أمورها كان يحرص على أن الفكر أو الرأي أو ملامح الحاجة للآخرين يجب أن تراعى.. لأن الناس لا تدري كيف حالهم إذ ربما من تراه مظهرياً في ثوب قشيب

ونعل لامع وخطو متئد لا تجد في ذهنه إلا التفكير في حاله ووضع أهله وأولاده.. وهل يحصل على غذائهم أو عشائهم أو متطلباتهم المدرسية وغيرها وغيرها.. ولكن هيهات هيهات أن تشعر بها أو أن تدرك من ملامحها أو مظاهرها مما قد يخفى ولايخفى..

ولجريدة البلاد معه قصة من الطريف أن نشير إليها ولو لماما..

كان يكتب لي مقالات نشرتها في جريدة (عرفات) الأسبوعية، وكان منها مقال عن (الأبجدية) كان حديث الوسط الأدبي والفكري والعامي أيضاً..

وعندما تم الاندماج بين الصحف وكان نصيبي من هذا الاندماج أن تم بيني وبين جريدة(البلاد السعودية) التي كانت تملكها الشركة العربية للطبع والنشر، وكان رئيسها معالي الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله وغفر له.. وكان رئيس تحريرها آنذاك الأستاذ فؤاد شاكر رحمه الله وغفر له.. وبطبيعة الحال فقد كانت بيني وبين الاستاذ فؤاد بعض المواقف التي استطعنا أن نحسمها بحيث يكون مديراً للإدارة وأن أكون رئيساً للتحرير..

ولما كانت الجريدة اليومية في حاجة إلى مواد إخبارية متنوعة وخاصة المحلية منها ، فقد كنت أوصي مآمير السنترال لكل الوزارات وسنترالات الهواتف العامة، وكذلك الجنود بين طريق مكة المكرمة - جدة وكنت أرسل لكل واحد منهم نسخة من الجريدة وأرجوهم أن يبلغوني عن أي حادث يحدث في أي موقع، وكانت الاستجابة مذهلة، إذ لم نكن نفرغ من تسجيل وتصوير حادثة حتى كنا نتلقى أخباراً عن حوادث أخرى.. وهذا الذي أقوله من الأسرار التي مازالت احتفظ بسر نجاحها..

وبحكم المركز الأدبي الكبير الذي كان يتمتع به معالي الأستاذ محمد عمر توفيق وبوصفه من أوائل الكتاب في جريدة «البلاد » فقد اتصلت به من منزل

الوالد رحمه الله في مكة المكرمة أذكره بالمقال الأسبوعي وهو غير المقال اليومي الذي كان ينشر تحت عنوان «ذكرى».. وفيما أنا في طريقي إلى منزله لمحته وكأنه كان في انتظاري حيث كان في عجلة من أمره، فاصطحبني في سيارته، وفي هذه الأثناء خطر في بالي أن أعرض عليه مشروع فتح مكتب لجريدة «البلاد» في مكة المكرمة وأن اختياري وقع على معاليه ليتكرم بالموافقة على ذلك.. وظهرت عليه ملامح الاستجابة إذ على الفور قال لي: عليك إذاً الإتصال بالأدباء الكبار والناشئة أيضاً لخلق جو من التعاون مقابل مكافأة مالية، وكان هو صاحب الفكرة لهذه المكافأة ولكنه لم يحددها.. فقلت له: سأدفع مائة ريال لكل مقال يكتبه أحد أدبائنا الكبار.. فقال لي ليستوثق من كلامي : مائة ريال؟؟ قلت له: نعم.. فقال: لكن موارد الجريدة قد لاتسمح لك بذلك.. فقلت له: لقد أصدرت اليوم قراراً للأخ الزميل حامد مطاوع، وكان محاسباً آنذاك لجريدة «البلاد السعودية»، أن يرفع سعر الإعلانات بموجب البيان المرفق، وأهم ما فيه أن السطر على عامود بـ« ٥ريالات» لإعلانات الدولة.. و(٨ريالات» للإعلانات التجارية مع زيادة سعر الصفحات كاملة أو نصفها أو ربعها.. ودعماً لهذا القرار أخذت موافقة رمزية عليه من معالي الشيخ عبد الله بلخير - مدير عام الإذاعة والصحافة والنشر آنذاك أدام الله عليه الصحة والعافية- حيث اتخذ إجراءً فورياً دلَّ على موافقته فقد أمر أن يُرفع ذلك إلى المقام السامي دون تعليق.. بمعنى أن جريدة «البلاد» طلبت رفع أسعار الإعلانات حسب البيان المرفق دون أي تعليق لا بالموافقة أو الرفض.. وفي آخر الشهر أرسلنا الفواتير إلى كل الوزارات.. وبعد عدة أيام أخذت أتصل بأصحاب المعالي الوزراء الذين تربطني بهم علاقة مودة وصداقة حيث كنت أنشر أخبار الوزارة بطريقة موثقة تعتمد أول ما تعتمد على موافقتهم ورضائهم عنها.. وأحياناً يطلبون مني تأخير نشر بعض هذه الأخبار لأنه كُتب عنها للمقامات العليا ولم تتلق الوزارة الموافقة عليها بعد، مع وعد أكيد منهم بإخباري

عند ورود الموافقة لنشرها.. كما كنت أحرص أيضاً على عرضها عليهم بعد صياغتها خبرياً عند إعدادها للنشر..

إن الأستاذ محمد عمر توفيق كان ينبّهني إلى تعديل بعض الأسئلة ثم يقول لي سأخبرك عن خلفيات هذه الأخبار التي حصلت عليها وكنت أسعد بهذه الملاحظات التي يبديها لي بحكم مركزه الأدبي والرسمي أيضاً..

وبعد ذلك فماذا عساي أن أقول وقد خلّف من ورائه فيضاً من الآثار الأدبية والثقافية.. وابناءً بررة مهذبين..

رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له حسن الثواب.

حسن عبدالحي قزاز*

١١/١١/١٤٢٠هـ

* كان هذا من آخر ماكتبه فقيد الكلمة وأحد أركان صحافة البلاد، فرحمه الله بفضل منه وإحسان وبما خدم به أمته ومليكه وبلاده، وعوّض عنه خير الخلف.

مرحباً بالنور

هنا كلمة شاع استعمالها - على الأخص في الجو المدرسي - مع كلمات أخرى يرددها الطلاب، ثم لايكون لها أيّ صدى في مستقبلهم إذا مارسو الحياة.. تلك هي:

(لكلّ مجتهد نصيب).

إن الاجتهاد يعني الإرادة، والعمل، والإخلاص، ولقد نجح في الشرق والغرب أفذاذ ربما كان حظّهم في بداية حياتهم بائساً كحظ عشرات ممن لايتقنون إلا لغة الشكوى والدموع والتطلع إلى حظ سعيد يهبط من السماء بمعجزة، ومازال في الدنيا ألوف - بل ملايين- من هذا النمط المتهدم الضعيف، ممن قد تنقصهم التربية بالعصا والسياط ليتحرروا من دموع المرأة ومن أسلوبها في التمثيل.

إن كلّ كلمة من نوع (لكلّ مجتهد نصيب) و (من سار على الدرب وصل) جدير بأن نُفَجِّر الحياة فيها إذا كانت الحياة هدفاً حقاً!

ومنذ كانت القوة أو كان شعور الإنسان بها، فإنها لم تشرق قط إلا من داخل النفس، من منطقة الإرادة والإخلاص، والاجتهاد عموماً، وذلك هو الضوء الذي تشعّه كلمات كثيرة كهذه نمضغها - مع الأسف- كما نمضغ اللبان.

إن عالم النمل وحيوانات أخرى أقلّ ضعفاً من النمل - لم يسحقه في الغاب عالم الحيوان الأقوى، ذلك لأنه يريد الحياة، مخلصاً، كادحاً في سبيلها.

ولكن الانهيار في خلق الإنسان هو الكارثة.. الحيوان الضعيف لايجيد النفاق - مثلاً - أو أيّة مزية من مزايا الانهيار.. ربما عرف الحيلة لهدفه ومطلبه، ولكن الحيلة براعة في الاجتهاد قد يفشل الناس في التماسها إذا كانوا خائبين.

والفشل لايبرّر التراجع، وإلا لظلّ كل شيء في مجراه القديم، غير أن الكسالى يقتلهم اليأس دائماً منذ كان همهم أن يعيشوا كيفما اتفق.

وبعد:

فلعلّ هذا كلام يصلح لأن أقدّمه تحيّة بين يدي (حراء) فالحقّ أن صدور أيّة صحيفة جديدة في هذه الظروف - ولعلّ من أهمها ارتفاع أسعار الورق - يعتبر كفاحاً، والدرب طويل كما لا أحتاج أن أقول، ولعلّ من أبرز سمات طرق الصحافة وعورة المسالك، ولكنني سأتخيل نشاط القائمين تحت سفح (حراء) قوياً حاراً، حتى يبلغوا القمة.

ونحن في حاجة إلى ما يُصْلِح أخلاقنا بل إلى ما يزيل أنقاضها ويبنيها من جديد، فإن هذه الأخلاق لم تتهدم فحسب، بل لقد جرفها التيار بعيداً عن شاطئ الأمان.

إننا نكذب ونداجي ونغشّ ونخون ونسرق وننافق ونسيئ.. ثم نضع على وجوهنا مساحيق الودّ والإخاء والرحمة والتسامح والفضائل كلها، لنتظاهر بأننا نعشق المثل العليا إلى حدّ السخسخة.

فإذا كانت صحيفة (حراء) ستعالج هذه الأخلاق، فإن لها في ذلك قدوة - خير قدوة- ممن أرسله اللّه للناس من غار حراء.. ونحن في حاجة إلى أن يكرس جهوده لمثل هذه المهمة كل من يشعر بواقع الانهيار في أخلاقنا.. ومرحبا به وبأيّة صحيفة تنير هذا الطريق.

بين يدي (الندوة)

كان الأستاذ أحمد السباعي يحدثني من قبل سنوات - عن تفكيره في إصداره جريدة، ثم عن عزمه على إصدارها، وكان حتما عَلَيَّ أن أسمع محاضرة عنها، وعن اسمها، وعن مشاكل الصحافة.. إلى آخر ما يمكن أن يحاضر فيه السباعي - كلّما تلاقينا، نادراً لحسن الحظ!

وأنا من وقت طويل أحلم بإصدار جريدة، وربما كان غيري يحلم نفس الحلم.. وكنت أحسب السباعي من هذا الطراز.. كنت أحسبه يحلم، لأن الأحلام دائماً، سهلة بل رخيصة، منذ كان في وسعنا أن نتخيل كل شيء وأن نحلم بكل شيء.. أما الصعب وأما الغالي فهو أن نعيش بالفعل فيما نحلم به ونتمناه، ولهذا كنت وما أزل أطوي نفسي على أحلامي وأسدل عليها الستار.. وحلم الصحافة في المقدمة.. بل لقد تركته غامضاً مجملاً، بدون أي نقاش أو أيّة تفاصيل، منذ عرفت - إجمالاً- أن أيّ عمل في الدنيا لابدّ له من هدف، وربما كان في وسعي أن أتخيل المبادئ أو الأهداف الطيبة التي تخدمها - أو يجب أن تخدمها!- الصحافة.. ولكنني قد أشعر بالعجز وبالخيبة إذا أنا التمست بعض هذه الأهداف للصحيفة التي أحلم بها.. ومنذ تعذر عَلَيَّ تحديد الهدف، فقد ظل الحلم حلماً وربما ظل كذلك إلى الأبد!

غير أن الأستاذ السباعي لم يكن يحلم كما ظهر الآن، ولقد عرفت هذا منذ

أخذ يقرع الطبول ويبشر بصحيفته التي لم تعد حلماً، ويقرب مولدها، وكأنما هي في دور الطَّلْق والمخاض.. مع أن هذا كان قبل أكثر من عام! ويدرس في هذه الأثناء مشاكلها.. ولكن بأسلوبه!.

وكانت في مقدمة هذه المشاكل (رئاسة التحرير) حتى عرفت بذكائي وحده - مع احترامي لأسلوب السباعي!- أنه يحرص على معالجة هذه المشكلة بطريقة بارعة تُوَفِّق بين الحكمة.. والتدبير!.

وأطوي بقية الكلام إن لم يضطرني الصديق لاباحتها.. ولكنني أستبيح تعليقاً آخر على اسم (الصحيفة) لعل الأستاذ فهمه عني من قبل، ولقد توقعت أن يكون اسمها غير (الندوة) مع إجلالي لماضي ذا الاسم.. غير أن التعليق على الأسماء ربما كان مسألة هوى ومزاج فقط.. وإن كنت أتصور علاقة بين الاسم والمسمى ذات أهمية في تاريخهما معا.!

ولكنني أعود، مكرها، إلى قمة الأهداف وأهميتها بعد الاسم وقبل الاسم..

فمن المؤكد أن الأعمال، كالصحافة وغيرها، إذا كان كلّ هدفها هو أن تظهر، وأن تثبت وجودها، فإنها لن تكون أكثر من رقم جديد يضاف إلى الأرقام السابقة.. وهذه مشكلة.. بل لعل في مقدمة ما يعانيه الناس في هذا العصر مشكلة الأرقام.!

والسباعي يعرف هذه الحقيقة.. وأحسبه يعرف طريق العلاج، وأحسبه سيفعل ولكن بأسلوبه أيضاً.!

ولأسلوبه قصة.. ولقصته أسلوب..!

وقد وجب أن أقدّم لكم معه الآن صحيفة (الندوة) كما سماها.. وكما تخيلها من قبل.. وسيمضي في خياله وأمضي أنا وأنتم في خيالاتنا كلما تصورنا المستقبل.. وغالباً سيتحقق خياله هو.. وغالباً سيكون خيالاً بارعاً.. لذيذاً..

كأسلوب الأستاذ الصديق وبأسلوبه.. دائماً.!

واستشعروا الآن معي (رطوبة) الندوة بل شذاها الفواح..

وما أذكى الشذى والعبير في تاريخنا المعطر..

من يدري..؟

ربما أعاد التاريخ نفسه.. وربما أعادت (الندوة) نفسها أيضاً..

من يدري.؟

ربما تحققت الأحلام!

شـــجرة الأدب

لا يكاد يمضي أسبـوع أو شـهـر إلا ويصيـح الصـائح فـي البـلاد السـعـودية وغيرها:

- أين الأدب.؟ أين الأدباء/؟ أين فـلان وعـلان وزعطان؟ لماذا اختـفـوا.؟ وكيف.. وإلى متى.. وهل يجوز؟؟ إلى آخر ما يقال..

وتمضي أيام.. ثم يردد صائح آخر نفس الكلام..

والذي أعـرفه أن الأدب لم يعد (سرداباً) ندخّن فيه شعر المتنبي.. وفلسفة أفلاطون.. وعبقرية الجاحظ أو طه حسين!

إنما هو - أي الأدب- انفعـال بالـواقع.. هو شعـوري وشعـورك وشعـور ابن البلد- صادقاً مبسّطاً بدون رتوش، فإذا حصل هذا الانفعال فسيظل يتكلم حتما، ويكون هو (الأدب).

أما إذا لم يحصل، وكان الأدب المقصود هو الشخير المتواصل بين جدران (السرداب) فإنني أفضل بقاءه شخيراً لايرتفع له صوت..

وإذا ارتفع له صوت بعمل أي مؤثر، فسيعود بطبيعته إلى (السرداب).. إن لم يؤشر عليه بالحفظ، للتاريخ، مع الاحترام.!

وليلطم الخدود من يلطمها وليصح من يصيح - على الأدب القوي، والأدب

الحي، والأدب الرخيص. إلى آخر الكلام الفارغ الذي يجعل الأدب شيئاً كالأسرار أو كالأبراج العاجية، شفافاً ضخماً، عميقاً، غامضاً، مؤثراً، خلاباً.. أدباً يصلح للحياة.. أدباً يستحق الخلود.. أدباً تكاد تتحير العقول فيه إذا حاولت أن تفهم الحقيقة..

والحقيقة أبسط من ذلك كثيراً ولكنها ضائعة في السرداب، والألفاظ..

إن نهضة الأدب من نهضة الحياة.. إنه صداها ومرآتها وانفعالاتها الصادقة، فإذا كانت كاذبة فإنها لن تعيش إلا بقدر ما تعيش الفقاقيع، والصواريخ، والأكاذيب المماثلة.. ولعلّ مثل هذا الكلام يعطي فكرة عن الوسائل الصالحة للنهضة بالأدب في نظري.. على أن البحث المدرسي في مثل هذه الوسائل قد لايجدي إلى حدّ بعيد.

إنّ أدب كلّ أمّة يفسد ويصلح، ويتقدم ويتأخر.. بدون أي شيء من هذا القبيل، منذ تطوّر مفهوم الأدب إلى انفعالات واقعية بالحياة، لا كالتي كانت تنبثق من أحرف كلمة (أ..د..ب) في إطار رهيب ربما أثر في أعصاب الناس- والناشئة على الأخص- إلى حدّ عقد الذراعين على الصدر- في إنحناء وإكبار.

وتعريف أدب بلادنا للعالم - كما نفكّر أحياناً - ليس ضروريًا، وربما كان العكس هو الضروري إذا صدق تقديرنا لواقع حياتنا وأدبنا بالتالي.!

لقد ذهب مع الريح كل مفهوم لكلمة (الأدب) مما كانت أحلامنا تعيش فيه بأسلوب (دون كيشوت) المعروف.

في هذا القرن ريح عاصفة اقتلعت جذوعاً كثيرة من أصل جذورها.. وربما كانت شجرة الأدب بمعناه العتيق في المقدمة.

أدب.. أدب.. أدب.. استبدلوا هذه الكلمة أو هذه الخرافة بغيرها.. الحياة مثلاً.. نعم الحياة.. أولا.. ! لنكن واقعيين.

عجلة الزنا

قرأت في بعض الصحف هذا الخبر تحت عنوان (٢٠٢ ألف طفل غير شرعي في أمريكا): وفي بريطانيا والولايات المتحدة تدور الآن مناقشات واسعة النطاق حول ارتفاع نسبة الأطفال غير الشرعيين في كل من البلدين في السنوات الأخيرة..

ففي الولايات المتحدة أصدر المكتب القومي للاحصائيات تقريراً أوضح فيه أن من بين الأطفال الأمريكيين الذين ولدوا عام ١٩٥٧ وعددهم ٤ ملايين و٢٥٤ ألف طفل - ٢٠٢ ألف طفل غير شرعي، أي بنسبة ٥٪ تقريباً، وأوضح المكتب أن الأطفال غير الشرعيين في أمريكا زادوا فيما بين عام ١٩٥٠م و١٩٥٧م بنسبة ٤٢٪..

وهذا في أمريكا وحدها.. ولابد أن في غيرها نعمة وافرة من هذه الأرقام، أو من هذه المفاخر التي جرَّها تقدم المرأة، والتطور المدني عموماً في العصر الحديث.!

وهذه الأرقام لم تعد تخيف أو تزعج، أو تثير أية ملاحظة إلا لدى الرجعيين الذين هم من طرازنا.!

أما هناك.. في أمريكا.. وأوروبا.. وبلدان النور - عموماً - فإن هذه الأرقام إنما تسجل للإحصاء فقط.. ككل شيء يشمله الإحصاء الفني الدقيق!

ومن الجائز أن تحظى هذه الأرقام - كنتائج فنية لعمليات الإحصاء- باهتمامات بعض الأفراد، أو الجمعيات التي تعيش في خيال، وتنتج قرارات كالخيال، لتستمر عجلة الزنا.. وهذه الأرقام الضخمة من أولاد الحرام.. في دنيا شرَّع الله فيها للإنسان شيئاً اسمه الزواج.!

ولكن شرعة الله أصبحت قديمة في هذا العصر.. والشِّرعة الجديدة التي ابتكرها العقل الجبار الذي يغزو القمر والفضاء الآن - هي الشِّرعة الحلوة المتحررة.. وفي مقدمتها أن تتعرّى المرأة إلى ما فوق الركبة وتحت السرة باسم السفور، وأن تشارك الرجل - بعد هذا التعرّي- في الوظيفة، وفي السوق، والمعمل... وفي البرلمان.. وفي الحكم وفي كل شيء.. لأن الرجال والنساء قد تطوروا، في عصر النور، إلى ملائكة.. فلم يعد دم أحدهم يتحرك إذا اتصل بالآخر وهو نصف عريان.!

وإذا تحرك الدم فهذا شيء اسمه الحب، وهو حلال في شرعة الإنسان المهفهف الحديث.. وإذا تقدّم الحب وسما إلى حدّ انتاج هذه الملايين من الأولاد الحرام، فأي ضرر في هذه المفاخر التي تتوج شرف الإنسانية في القرن العشرين!؟

ألسنا حيوانات، ويصرّ عباقرة التطور على أن لايفوتنا مجد الإتصال بالقرد والكلب والحمار في سلالة واحدة ضاعت مع الأسف حماقتها المفقودة؟ فلماذا لانتحرّر كالحيوانات استكمالاً للمجد والمفاخر؟

وماذا يضرّ البنت في أي مدينة من مدن النور - إن هي أحبت للتجربة.. بدل الخطيب الواحد عشرة.. ليقع اختيارها على شريك العمر بعد تجربة واختيار طويل؟

وإذا استمر الانتاج الحيواني في هذه الأثناء، فهذا هو الحب يا رجعيين.. وهذا هو الزواج (المودرن) .. مفخرة من مفاخر القرن العشرين.!

أجهزة القلق

تتعاقب الأحداث على الناس وعلى أعصابهم في الشرق والغرب وفي كلّ مكان، ومن الراجح أنّها ستتطوّر يوماً ما - وربما بشكل مفاجأة لم تكن في الحسبان -إلى حماقة تتداعى في إثرها الحماقات.. وإذا هو الطوفان الذريّ المتوقّع الذي يَسْحَبُ على هذا العالم المغرور بحضارته ذيول الخراب والفناء.

أُورُوبًا تنام من سنين على مشاكل كثيرة تصنعها الأحداث يومياً وتطورها إلى ما شاء الله.

ونفس الحال في أمريكا - بكل ولاياتها المتحدة وغير المتحدة! وأفريقيا.. واستراليا.. وآسيا بشرقها الأدنى والأوسط والأقصى، وأحسب أنّ كلّ شبر من الأرض قد لايخلو من مشكلة ينام ويصحو عليها، باستثناء من يعيشون في أطراف الجبال وكهوف الثلوج، أو على هامش الدنيا في أعماق بعيدة عن حياة العصر.

إن مدناً راقية في العالم المتحضر قد يلوح وتؤكد الأخبار والمشاهدات أنها سعيدة بالرقي أو بكل أسباب السعادة والهناء.

وإذا صحّ أنها كذلك، وأن أهلها سادة الناس في العلم والخلق والخير.. والجمال.. والحياة عموماً، وأن أبواب السجون لاتفتح فيها إلا نادراً، فإنهم يعانون ماجَرَّه تحلُّل الحضارة على الكيان العائلي والاجتماعي فيهم من تهدُّم وانهيار.. ثم

أنهم غير بعيد عن مناطق الصراع، إن لم تعد منطقتهم منطقة صراع في الظاهر أو المستور.. وحسبها أن تتخيل الانفجار دائماً، ليعيش أهلها السعداء في نفس القلق الذي تعانيه الشعوب.. أو بعضها.. ممن يلوح أنها دون (سويسرا) -مثلاً- التي تتأهب لما تتوقعه بأحدث وسائل الكفاح والوقاية.. وبمخابئ مُحَصَّنَةٍ ضد طوارئ المفاجآت.. رغم أنها على الحياد وعلى مستوى الحياة الراقية.

والمفروض أن وسائل النشر والإعلام - كغيرها من مبتكرات الحضارة - إنما هي للترفيه والثقافة والامتاع بالحياة..

وهي حقاً قد لاتخلو من استهدافات كهذه في برامجها الإذاعية، وفي الصحف، وعلى شاشة التلفزيون....، إلا أن نشرة الأخبار وحدها قد تُحَوِّل الاستهدافات والبرامج كلها إلى مايشبه القصة إذا صاحبها أيّ خبر يوتر الأعصاب!

وهكذا قد تكون الإذاعات وما إليها من وسائل البثّ والإرسال سبباً من أسباب التوتر أو القلق الذي يسود العالم، فإن أيّ حدث أو حادث يقع في أي جزء من أجزاء المعمورة تنقله الإذاعات في الحال، فإذا هو خبر طائر في كلّ بلد وعلى كلّ لسان.. ويترتب على ذلك شيوع الأثر السيء أو الحسن في دنيا الحادث أو الخبر، وتظهر تلك الآثار سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية على أي نحو كان. فإن كان الخبر -مثلاً - حصول أزمة أغنام في استراليا اضطرب سعر اللحم في (اليابان) وفي جهات بعيدة أو قريبة من (استراليا) وارتفع بدون مقدمات يقنع بها المستهلك الضعيف.. وإذا كان الموضوع آفة زراعية أثَّرت - على سبيل المثال- في محصول البطاطس أو الحبوب أو المواد التي يصنع منها السكر قفزت أسعار هذه الضروريات حتى ولو كان مصدر الخبر جزر الفلبين - مثلاً - أو مدغشقر!

أما إذا كان الخبر من نوع تأميم القنال فويل للناس من ظلم الانتهازيين حتى ولو كان احتمال وقوع كارثة الحرب العالمية أبعد من المريخ في هذه الأيام التي اقترب فيها من الأرض كما يقال!

إنها جناية الإذاعة أو النقل السريع للأخبار فيما يظهر، وقد زاد الطين وحلاً أن الإذاعات ليس في مقدورها أن تتحرّى الصدق، وأن الخبر الكاذب يشيع ويؤثر في الدنيا كالخبر الصادق بل لعله أكثر شيوعاً وتأثيراً منه.

لقد لذّ لي أن أتخيل الإذاعات كلها وقد طاف طائف بها، فلم يعد في وسع الراديو أن ينقل شيئاً لأي عامل من العوامل الجوية أو غيرها، فإذا هو كأية قطعة صامتة من أثاث البيت.. ما الأثر الذي يتركه سكون حركة النقل الإذاعي للأخبار بعد مثل هذه المفاجأة.. وفي مثل هذه الظروف..؟

إنني أرجح حدوث قلق انساني عام تحسّ معه الشعوب والحكومات أنها في حالة ظلام مطبق.. أما الضعيفة المغلوبة على أمرها فإن قلقها سيكون أليما، وستكون غالباً كالأحدب الذي يتوقع الصفعة ويتجمّع لها باستمرار كما وصفه ابن الرومي.. ولابد أنه سيهمّها كثيرا أن تتخذ كل احتياط ممكن لتتلقف الأخبار على عجل وبأقصى العجل، وليس أمامها إلا الطيران وبريده الذي ستحرص على تنظيم أمره ليكون بريداً جوياً بالفعل، لاكما هو اليوم، اسما فقط، حتى يؤدي مهمته، لامهمة البريد الذي تنقله السفن والقطارات ووسائل النقل البري السريع.

أما الأمم الغالبة ذات الشوكة فإنها قد تنتهز حالة الظلام المطبق لتنقض على غيرها كالديدبان، وإن أصابها من القلق والهلع ما أصاب غيرها على كل حال..

حتى الأمم التي لاتخشى أحداً ولايخشاها أحد لأنها فرضت حيادها على العالم في كل الظروف ربما أربكها توقّف الإذاعات بعض الشيء، لأيّة مفاجآت

محتملة، وإلا فربما قنعت بالوسائل البدائية في نقل الخبر والخطاب والبريد عموما، وربما فضّلت البعير بالذات لتظل في حالة استرخاء واغفاء تام!

ولكن هل في وسع الإنسانية أن تتأخر..؟

إن كل مطالبة بالعودة إلى نظام سابق مضت به الحياة تعتبر دعوة إلى التأخر وإلى الرجعية..

حتى الحروب المدمرة لم تتأخر بعدها الحياة بل تقدمت كما يظن الأحياء، فمن الصعب أن نتخيل الدنيا بدون راديو وإذاعات.. أي بدون قلق مستمر..

بل لقد يأتي يوم تكون فيه الأجهزة نفسها ومحطات الإرسال وسواها، شيئاً قديماً بعد امكان الإتصال الشخصي المباشر بكل أطراف الدنيا وأجزائها، فإذا الناس أجهزة متحركة ترسل وتستقبل وتحيا وتعيش في كل مكان..

أن الحياة تتقدم كثيرا.. وفي طليعتها الإذاعات وأجهزة القلق.!

ربما كانت هناك شعوب تعيش على بهرج الأضواء في غفلة لاتكاد تفيق منها - والنار حواليها- إلا على ألسنة اللهب.. ويل لمثلها إن لم تفرك أعينها قبل فوات الأوان!

معجزة خالدة

أتأمل الكتب في بيتي، على البعد، أحياناً.. ومع أنها قليلة قد يطلق عليها اسم (مكتبة) متواضعة - غير أنني قد أحس الفزع، وأنا أتصور مقدار الكلام الكثير الموجود فيها وحدها، فكيف بالكتب كلها وبكل ما كتبه الإنسان مذ عرف كيف يكتب!؟

ومع أن قسماً كبيراً من هذا الكلام قد ذاب وتبخّر على مر الأجيال، أو لم ير النور كلياً - لحسن الحظ! - إلا أن قسماً أكبر كثيراً منه، يتجمّد ويضاف إلى ماسبق على مرّ الأجيال كل يوم.

وتصوّر معي أن هذا الكلام الذي قاله الإنسان وحده في كلّ هذه العصور، هو ما كتبه فقط، لا الكلام الذي دار ويدور مع أنفسنا ومع الآخرين إذ نتذكر حوادث.. ونتصور عدّة أشخاص وعدّه قضايا.. وننتقل بسرعة تفوق سرعة الضوء - إلى أية ذكرى جميلة أو قبيحة، ومن بلد إلى بلد، ومن موضوع إلى موضوع، ومن شخص لآخر، ومن أفكار فاضلة إلى أفكار شريرة.. كلّ هذا في لحظة أو لحظات.

ولهذا ربما كانت الكتابة عملاً عدائياً ضد الوقت، فإن الساعة التي أقضيها وأنا أكتب أيّ كلام فارغ كهذا، أستطيع أن أعيش فيها، عبر خيالي، حيث يطيب لي أن أعيش.. ولو في المريخ؟

ومن المؤكد أن كلاماً كثيراً يعيش معي وتحت جلدي في هذه الأثناء، ليس

بغيضاً إليَّ إن لم يكن لذيذاً.. عدا أنه - وهذا هو الأهم - يبلغ أضعاف ما أستطيع أن أنجز كتابته في نفس اللحظات التي أنجز أثناءها كلّ ذلك الكلام وأنا صامت مرتاح، لا أقسر ذهني على اتجاه معين ربما أحسست وأنا فيه بأنني كالطالب إذا كان في الامتحان. ؟

حتى اللحظات التي أقضيها صامتاً كالأبله.. لا أفكر في شيء وأحدق ببلادة في الفضاء أو في الكتب التي تلوح بغيضة إليَّ أحياناً، حتى في هذه اللحظات أحسّ أن عملية ضخمة تجرى هناك في ترتيب الكلام الذي سبق أن دار وملأ رأسي ضجيجاً، وفي حفظه.. وتنسيقه.. إلى آخر ما يسمونه وظائف (العقل الباطن) غير أنه لا يلبث أن يستجيب لأقل استعداد تبديه أفكاري للإنطلاق.. ويدور شريط الكلام من جديد بذلك المقدار الهائل..

وتصوّر معي - إذا شئت . أنّ كلّ هذا الكلام الذي دار من قبل ملايين السنين إلى اليوم.. ليس الكلام الذي كُتِبَ فحسب، بل حتى الذي جرى في باطن كل إنسان منذ وجدت الخليقة - تصور أن كل هذا مما لا يدركه الإحصاء إنما تحتويه تسعة وعشرون حرفاً هي أحرف الهجاء، فما أحسب أن أحرف الهجاء في أية لغة أخرى تزيد عن هذا المقدار. ؟

أي سرّ عظيم في هذه الأحرف؟ إنني أتمثل على ضوئه كلمة الله الخالدة في كتابه العزيز.. (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) أو (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) فلا يسعني غير أن أطأطىء رأسي وضميري لله وحده سبحانه..

وأشعر بغرور الإنسان.. قضى عمره جيلاً بعد جيل.. يتكلم.. ويفكر.. ويملأ الدنيا كل هذه المجلدات، والأوراق، والصحف والفضاء، عدا ما تنطوي عليه الصدور.. وسيظل كل ذلك يدور في فلك ٢٩ حرفاً.. لا غير..

إنها ولا شك تسع وعشرون معجزة خالدة من معجزات خالق الحياة!

السرّ في أنفسكم..!

أحرجني قلم تحرير هذه الصحيفة وتحتّم علي بعد إحراجه في وقت ضيّق - أن أقدم كلاماً يملأ هذا الفراغ بالذات.

وأخذت أبحث عن كلام مكتوب من قبل يصلح لهذا الغرض فكانت مشقة البحث أهون منها كتابة كلام جديد..

ولكن ماذا أكتب؟ وأخذت أهرش رأسي.. وأفكر وأستعرض شريطاً من الانفعالات مما يمر بي وبك يومياً فننساه، أو يظل حياً في نفوسنا إلى وقت طويل، وكلها صالح لأن يقول الكاتب فيه، وربما كان بعضها (طازجاً) تتوفر له كل عوامل الإثارة ودواعي الكلام، ولكن ماذا أكتب وماذا أقول؟.

إن موضوعاً كموضوع المطوفين - مثلاً - لابد للكتابة أو البحث فيه من التزام خط سير معيّن يراعى فيه مبدأ: بقاء الأضعف لا الأقوى، مسايرة لمبدأ (الضعف العام) في كياننا العجيب.!

أما الكلام عن موضوع كموضوع السوق والتجارة - مثلاً- فكيف يمكن أن تكتب أنت أو أنا عنه إلا ونحن نترفق بمشاعر معيّنة، لأننا نخشاها أو نرجوها أو نحسب لها أيّ حساب!؟

وهنا لابدّ من الدغدغة بالثناء أو بطيب الذكر، لتبتسم شفاه معينة!

وأخذت أستعرض بقيّة الشريط كالتعليم أو الحالة الزراعية.. أو الماء والسكان أو أية مشكلة من مشاكلنا التي نحسّ بها إلى حدّ الانفعال، وإذا فكرنا في تصوير هذا الانفعال، أحسسنا أن ضمائرنا ربما كانت تجاهه مثقلة بالقيود!

ولقد جرّني ذلك إلى الشعور - حقاً - بأن الكاتب قد يكذب على نفسه إذا تصوّر أنّه يعبّر عن انفعالاته حقّ التعبير، حتى وإن كتب في جو متحرر كتحرر (الوجوديين) في الزمن الأخير.!

القيود لابد منها.. قيود يرسمها العرف.. وقيود ترسمها ظلال السلوك الملون في هذا العصر بشيات كثيرة تبدأ من المسايرة، وتنتهي بالنفاق.. وبينهما الخوف والرجاء وقيود أخرى يشعر الكاتب بأنها تتحكم في قلمه، ثم قد يخدعه وهمه فيحسب أنه يعبّر عن انفعاله الحقيقي تمام التعبير.. ثمّ..

ثمّ إن معظم المشاكل أو القضايا قد انفعل بها بعض كتابنا، وظللنا وقتاً طويلاً - ومازلنا - نسمع كلاماً منهم فيه انفعالهم المستطاع بمشاكلنا.. غير أن هذا لم يمنع استمرارها، فظلّت محلّ الانفعال والملاحظة.. فقط..

ما هو السرّ إذاً؟

لماذا يضيع جهد الكاتب ولا يؤثّر أحياناً كما هو المفروض؟

ما هي مشكلة المشاكل التي يجب أن نبحثها بعد أن نعرفها جداً، لنفكر في حلّها تفكيراً سليماً، ثم لن يكون بعده - في الغالب - وجود لمشاكل العمر التي هي محلّ البحث والعلاج من وقت طويل؟

إن السر في الأصل غالباً، وليس في الفروع.. السرّ في أنفسكم.. فحاولوا أن تعرفوه.

فلسفة الصبر

تضايقني المتاعب أحياناً كما تضايق الآخرين، وربما اتّخذت المضايقة شكل الخواطر الصامتة على احتدام شديد، أو شكل الكلام الساخط المتبرم، أو أي شكل من أشكال النقمة على الحياة بوجه عام..

والصبر هو الترس الذي نتّقي به شرّ المضايقات، غير أننا لا نحسن استعماله غالباً، فيبدو كأنما هو مضايقة أخرى..

إن الصبر الذي نمارسه ونظن أنه الصبر، هو احتساب مرور الزمن فقط، وليس هو الحالة النفسية التي هي الصبر حقاً..

خذ - على سبيل المثال - أية مفاجأة متعبة، أو مشكلة مريرة، فإن عدم القدرة منك أو مني على حلّ المشكلة أو المفاجأة معناه أنها مستمرة، وأنّا صابرون قهراً أمامها بدون اختيار، لأن الصبر هو الحلّ الوحيد الممكن.. إنه حينئذ كصبر الطفل، والحيوان.. حالة استمرار فقط، بينما الصبر شيئ آخر محلّه النفس وتربية الشعور الصحيح ضدّ المشاكل وضدّ المحن.. والمضايقات، وهدفه حفظ التوازن أمام الطوارىء الدائمة.. الحسن منها والقبيح، والسارّ والمزعج؟

إن الفرح يغمرنا، غالباً، إذا كنّا مسرورين إلى حدّ استنزاف قوانا، وكدّ أعصابنا لحساب الفرح واستغراقنا فيه حتى ننسى واقع الحياة، ولهذا كان هدف الصبر - كما قلت - حفظ التوازن، فإنه يعلّمنا كيف نلبس لكلّ حالة ثوبها

النفسي الملائم، فإذا كانت شديدة الوطأة على النفس فالصبر ليس هو مجرد استمرارها واستمرارنا معها مادامت متعذرة على الحلّ والعلاج، بل هو أن نعيشها ونتصنّع الارتياح لها كما لو كانت حالة أخرى تطرب وتهشّ لها النفس، وهذا كما أظن هو معنى فهم الحياة فهماً عقلياً صحيحاً مبسطاً لا تعقيد فيه، فهي منذ كانت قد اختلط فيها الخير والشر، ونحن بينهما دائماً، فإن كان الأول فما أجدرنا بأن نُهَوِّن من شعورنا إذا طرب واستغرقه الطرب، وإن كان الثاني فما أجدرنا بأن نُهَوِّن من غلوائه أيضاً إذا احتدم واستغرقه الاحتدام.

ما الذي يحدث إذا لم نصبر أنت وأنا على المشكلة أو المضايقة، أو أي كرب من كروب الحياة؟ لا شيء غير الاستمرار، فما أجدرنا إذن بأن نعمل، ما وسعنا العمل والجهد ليكون شعورنا باسماً مع الكرب المقيم.

إنه قد يتكلّف الابتسام أول الأمر.. ثمّ،، ثمّ قد يبدو ضاحك الوجه والنفس هنا وهناك وعلى البأساء والضراء، بعد تربية النفس ورياضتها على الصبر الحق، ولا أجد - بعقلي - مشقة في ذلك إذ يكفي أن نتصوّر أكبر كارثة في الدنيا تصوّراً عادلاً، لتبدو كما لو كانت نكتة بعد الوقوع!

وهذا لا يُهَوِّن الكارثة أو المشكلة، بل يلاشيها إلى الأبد، وهذا أيضاً سرّ أن بعض الناس ممن عرفوا الصبر واستطاعوه بمعانيه النفسية، كان جوّهم دائماً هو الطمأنينة، يحيون بها ويعيشون في الضّراء والسّراء، وكيفما اتفق..

والمسألة لا تكلّف سوى تصحيح النظرة إلى الحياة، فربما كانت هي الكرب الأهمّ.. ولكن هذا لا يعني أن طعمها مرّ، وأنها عبء ثقيل، وأنها تافهة.. وأنها.. وأنها.. إلى آخر ما قد يخطر في إحساس المتشائمين، ولكنه يعني فهم الحقيقة فقط.

إن كبار المكافحين والمغامرين لا ينسون هذه الحقيقة وهم في معمعة نضالهم

وفي كفاح ما يُبْتَلُون به من محن وعقبات، كما أنهم لا ينسونها إذا نجحوا.. إنهم دائماً يضعون في حسابهم النجاح الأعلى بعد كلِّ نجاح، والفشل الأدنى بعد كلّ فشل، فلا يسكرهم النجاح ولا يقتلهم الفشل.. ولكنهم يشربون - عند اللزوم - من الكأسين كما لو كان المذاق واحداً لا اختلاف فيه منذ فهموا الحقيقة الكبرى.. حقيقة الحياة.. .

ويكفي أن نذكر الكثيرين ممن كافحوا المتاعب، فما تحوّلوا عنها وعن كفاحها، ولم يكن شعورهم وهم تحت وطأتها شعوراً ساخطاً يمارس صبر الضرورة أو الاستمرار فقط، بل شعوراً هانئاً يمارس الصبر كما لو كان هو السعادة الكبرى، ولهذا يتحول الطعم المرّ في ذوقهم إلى حلو جميل..

إنني أقدِّر فلسفة الصبر، وأمارسها أحياناً، ولكنني أحسّ إذا حاولت أن أمارس الصبر نفسه بأنه أكبر من الفلسفة.

في انتظار صاروخ . !

كنت أكتب قديماً تحت عنوان (كلمات)في هذه الصحيفة الحبيبة في البلد الحبيب.. ثم صَدَّني ما قد يَصُدُّني عن الكتابة عموماً.. أو للصحف، وإذا بعنوان (كلمات) يظهر بتوقيع (ابن الحارة) كما ظهرت عناوين أخرى، سواء لي أو لغيري، بنفس الطريقة في بعض الصحف..

وخطر لي - وأنا أهم بالكتابة - أن أستعيد العنوان من (ابن الحارة) ليهرش هو رأسه إذا اقتضى الأمر أن يهرشها، ويبحث لنفسه عن عنوان أو زاوية أخرى.. ولكنني خشيت أن لا يكون ذلك من حقي بعد كل هذا الاحتلال الطويل للعنوان من ابن الحلال (ابن الحارة)!

وصحيح أن الاحتلال لا يُسْقِط الحقّ في استعادة الحق المغصوب وإن طال المدى، غير أنه يظلّ مجرد حقّ ضائع في تيه الاحتلال السياسي، أو أي لون من ألوان احتلال الأمم والشعوب.. ولا وجود لهذا الحق - غالباً - في عالم الأدب..

فإن الأدباء - وفي مقدمتهم من يصدق عليهم الأدب والبيان الحق - قد يحتلُّ بعضهم بعضاً في العناوين أو في الأفكار أو في الأسلوب، ويبدو ذلك كأنما هو عفواً غيرمَقْصود..؟.

إنه مجرد كلام.. وأي حساب على الكلام؟.

ثم.. ما أيسر اختيار عنوان..

غير أن المفروض هو أن جريدة (المدينة المنورة) يجب أن تتطوّر كما تطورت صحف أخرى ولو كتطوّر المرض من دور إلى دور، ومن مرحلة إلى مرحلة.. في طريقه الطويل للنَّقَاهة..!

فهل يطورها عنوان أو أكثر من عنوان؟

يؤكد الصديقان الشقيقان - ولديهما شبه إصرار على الاشتراك في هذه التَّثْنِيَة وهذا الازدواج دائماً حتى في كتب الوصول، ولو كان الذي وصل من (القاهرة) أو من (المسيجيد) هو أحدهما فقط.!-

يؤكد الشقيقان الأستاذان السيدان علي وعثمان حافظ - صاحبا هذه الجريدة - أنها ستتطور قريباً..

إن في خيالهما برنامجاً ضخماً لهذا التطور، وقد تغمضون أعينكم ثم تفتحونها على مفاجأة صحيفة مدهشة إذا صدق خَيَال الصديقين..

ولا أدري ما هي - على وجه التحديد ؟ فلقد تركني خيالهما هائماً فيما يشبه الدخان، أو في انتظار شيء أكبر كثيراً من الصحافة ومن مفاجآتها.. لعله صاروخ يتم إعداده كسائر الصواريخ، في صمت وخفاء، لينطلق - فجأة - في خَطٍّ سيْره الطويل بين الكواكب السيارة، كما يؤكد أقطاب العلم، بل وأوتاده.. في المعسكرين!

وعسى أن لا نظلّ طويلاً في الانتظار كما لو كُنَّا حقاً في انتظار صاروخ.!

رفقاً بالقوارير

تنشر بعض الصحف قصصاً وحكايات متسلسلة أو غير متسلسلة، وقد تُخرجها بعدها دور النشر، في شكل كتب قيمة، وربما أخرجها التلفزيون أو دور (السينما).

إنها في نظرهم تخدم أفكاراً جديدة عن الحب، أو عن الخلاعة باسم الحب.

وقد لا تصل خلاعتها أذهان من يتابعونها، فإن فيها حلاوة أو شيئاً كالتخدير، ثم لا يصحو منه من يؤمنون ببشاعة الخلاعة!

إنّ فيها على سبيل المثال عبارات من نوع:

ذهبت ليلى إلى منزل فتحي..

وذهب فتحي إلى منزل عنايات.. وقالت له هذه وقد أجرى اتصالاً تلفونياً طويلاً:

- شاطر علشان البيه أحمد يقطع التلفون بكره.

وقال صوت رقيق من نافذة الباب:

- مش دا منزل سعيدة هانم.

- مين يا أفندم..

- أقدر أكلّم الست؟

- نقول لها مين يا أفندم؟

- واحد عايز ماما..

وكلام كهذا بأقلام ربما كانت رشيقة مؤثرة لو أنتجت أفضل من هذه (الرقاعات) مما يبدو عليه طابع الخلاعة.. ونداء الجنس..

وقال أحدهم: إن إسرائيل تسرق قصصه، وتطبعها بالعربية، ثم بالإنجليزية..

وأخشى - لو صح ذلك من إسرائيل - أنها لا تعمد إليه باسم الفن وإنما لكشف عورة العرب في مثل هذه (الرقاعات).

رفقاً بالقوارير.. وبالجيل الصاعد.

إن شيئاً كالسمّ في قصص وحكايات كهذه خطرة وتافهة معاً فاحذروه.

محرقة الأعصاب

ما هي الأخبار؟ هل من جديد؟ ماذا هناك؟ هل ستقع الحرب؟ ما هي آخر التطورات؟ وسلسلة طويلة من الأسئلة والأجوبة والتعليقات الطائرة على كلّ لسان وفي كلّ مجلس إذا هدّدت أية أزمة سلام العالم، حتى الذين لا تستغرقهم إلا أنباء الرياضة وكرة القدم يجرفهم تيار الأخبار في أيام الأزمات إلى حدّ بعيد..

ولا شكّ في أن موضوعاً واحداً للكلام يبعث الملل في نفوس الناس حتى الصابرين منهم، ولو كان هذا الموضوع هو التحدث عن الآخرين في غيابهم بمنتهى الحرية! غير أنهم إذا اضطرب جوّ العالم لأيّة مفاجأة كانت أو لم تكن في الحسبان تحركوا وبانسجام كبير مع مادة الأخبار والتكهنات.. والذين يثقل ذلك على مزاجهم يضطرون للضغط على أعصابهم، كما لو كانوا في حالة نفاق، للاحتفاظ بتوازنهم العقلي في هذه الدوامة من الكلام الذي لا يتغير موضوعه بل ولا ألفاظه غالباً.

قالت إذاعة القاهرة.. وأدلى ناطق باسم عصابة إسرائيل.. وطار فلان.. ووصل علان، وصرح زعطان للصحفيين.. وهكذا..

وربما قضى أحدنا لحظة في سوق الخضار، ثم لا يستغرقها إلا نفس البحث والموضوع.. ويستمر الشريط بعد ذلك هنا وهناك وفي كل مكان.. حتى إذا طاب الخلاص في البيت مثلاً من هذه الدوامة، أدارت أعصاب الإنسان - أوتوماتيكياً

- مفتاح الراديو، فمن يدري؟ لعلّه قد جدّ جديد في هذه الأثناء..

وفي الأيام التي يلوح جوّ العالم فيها رائقاً لا تعكّره الأزمات تركب هواية الراديو رؤوس بعض الناس، فيطيب لهم التنقّل فيه من إذاعة إلى إذاعة ولو كان ذلك على حساب أذواق الآخرين وأعصابهم.

إنهم هواة كهواة جمع الطوابع أو قزقزة اللب.. غير أن الناس كلهم في أيام الأزمات يصبحون هواة (راديو) ليطمئنوا دائماً إلى مصير العالم.

ولا شك في أنه إذا حدثت أزمة تبدو المفاجآت الكبيرة التي تنقلها من طور إلى آخر، غير مترقبة في كلّ لحظة بل وفي كلّ يوم إلا في النادر.. إنما الذي يستمر هو سيل الأخبار التي لا تقدّم ولا تؤخّر.. حتى يجيء دور أية مفاجأة كبيرة بالفعل بعد فترة تطول أو تقصر، ليأخذ السيل مجراه إلى مفاجأة أخرى كبيرة.. وهكذا، فالمهم هو أن تستمر الضجة، وأن يستمر دوران الناس معها ولو ظل يتردد على مسامعهم خبر واحد بعينه، وإن تطور أسلوبه وتطورت التعليقات عليه أياماً كثيرة..

وقد تخلف الظنون أخبار العالم الكبيرة، بل لعل هذا الواقع، فإن الأزمات التي لاحت وتلوح في الأفق قد تطورت إلى ما لم يكن في الحسبان، فقد تشير المقدمات كلها إلى أن عاصفاً سيهبّ من الشرق، فإذا هو يهبّ من الغرب، أو لايهبّ على الإطلاق.. وقد تدلّ الظواهر على أن انقلاباً سيحدث في أية بلاد مضطربة، فإذا هو يحدث ولكن في بلاد أخرى كانت صفحة حياتها كسطح البحر الهادي في ليالي القمر والنسيم، ولكن سيل الأخبار والتكهنات مع هذا لا ينقطع، وكأنّ كلّ شيء يبارك هذا السيل..

إنها محنة الكلام في هذا العصر بعد أن تنوعت أساليبه، وطرق إذاعته وترويجه، فلابد أن تدور عجلته ولو لم تطحن إلا الهواء..

ربما كان في الإمكان أن لا تسوء حال الدنيا إلى الحدّ الذي انتهت إليه لو أمكن اختصار الكلام بل وإلغاء أكثر من ثلاثة أرباعه، فإن الفراغ والفضول، وعامل الإثارة بها أو فيها محرقة ضخمة لأعصاب الناس.. ولو أغلقت أبواب الكلام المفتوحة، أو وضعت عليها حراسة قوية لا تفتح معها إلا عند اللزوم وإلى حدّ الموارية فقط - لكان الناس - أو ربما كانوا - أقرب إلى الطمأنينة منهم إلى القلق وإلى الاضطراب والتوتر غير بعيد من المحرقة!

أدبنا وهل يصلح للتصدير أم لا ؟ وكيف يصلح له ؟

أهو محصول وطني يريد صاحب المنهل الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري أن يسأل الأدباء عن مدى صلاحيته للتصدير إلى الخارج وعما يعود به ذلك على البلاد من نفع اقتصادي عظيم لا شك في تقدير قيمته ومزاياه؟؟

إن صيغة السؤال صيغة اقتصادية.. الأدب فيها أو عندها كأي محصول آخر من هذه المحاصيل الكثيرة أو القليلة.

فهل أراد الأستاذ الأنصاري أن يضيف محصولاً جديداً إلى محاصيله الأخرى..، ويعرفها الناس؟!

إنه إن أراد فقد أراد تقرير قيمة الأدب تقريراً مادياً أخشى أن لا يرضى رجاله المتحمسين له هوى أو وفاءً!!

ولولا أنني أعرف الأستاذ في طليعة رجاله أولئك لقلت قد أراد ذلك.. وسامحه الله! ولكنه آخر من يريده وأول من ينكره ويأباه منذ كان الأدب عنده مطلباً دونه كل مطلب مأمول.

ومادام هو لم يرد ذلك، وإنما أراد أن يسأل الأدباء عن مدى صلاحية الأدب الذي ينتجونه هنا لنشره في غير هذه البلاد فلماذا تخير الصيغة الاقتصادية التي وجه بها السؤال إليهم مادام أن في الإمكان توجيهه في صيغة أخرى لا تستثير

تعليق القارىء أو تعليق كاتب الإجابة عليها..؟ وما أفسح مجال التعبير عن ذلك الاستفتاء المقصود لو أراد الأستاذ أن ينتقي ويختار.

إنني أرجح وأعتقد أنه أراد هذه الصيغة بحروفها.. لا لضيق مجال التعبير، أو لأن الأدب عنده كسائر المحصولات القابلة للتصدير بل ليرمز بها إلى جناية الإعلان في دنيانا على الكثير من دساتير الحقائق التي كان سبب إلغائها أنها مطوية لم يعلن عنها بعد.. فهي لا تساوي أكثر مما تساويه السلعة البائرة في سوق المزاد العلني الرخيص.

فكأنه يريد أن يقول: هذا الأدب.. افرضوه سلعة مادية بائرة! افترضوها صالحة للتصدير عسى أن تفيد من وراء ذلك رواجاً لها بعض الشيء مادام أن للإعلان أثره في تقدير قيمة الأشياء سلباً وإيجاباً..؟!

وقد بعد عهد الناس بالأدب منذ انقطعت أسباب نشره هنا بإتصال أسباب الحرب، لذلك فقد يشق عليهم أن يفاجأوا بالحديث عنه - فيما أباحته المجلة لكتابها - حديثاً يتّسم بميسم الدعاية - في نظرهم - بعد كل هذه الهجعة الطويلة.

ذلك لأنني أريد أن أقول - وسيقول الكثيرون: إن أدبنا مغمور كأدب الزنوج إن صحّ أن لهم أدباً مدفوناً في ذلك الجانب المقفر من الدنيا!

ولست أعني - وإن كان قد يعني سواي - أن هناك أدباً أثمرته أقلام كتاب هذه البلاد وشعرائها وألقت به في النار، أو في قبور من الأوراق المطوية! وإن كان الحديث يجري بأن بعض من نعرف من الأدباء قد أثمرت دراسته مؤلفات من النثر والشعر، فتلك مجموعة مستورة لا يتسنى لناقد أن يتّخذ منها قاعدة لتقرير قيمة الأدب المغمور ما لم تنشر على الناس.

ولكن ما أعنيه هو هذا الأدب المنشور من قبل ومن بعد في الصحف والمجلات وفي كتب قلائل لعل بعضها أرث من بعضها.

وأعني إلى جانب ذلك الأدب المطوي الذي قرأته وأقرؤه لبعض أصدقائي الكتّاب والشعراء.

وأعني بإيجاز لا تطويل فيه ما تقرّره المجموعة الأولى والثانية من مستوى طيب كان يجب أن يتمتع به أدبنا لولا أنه مستوى محجوب وغير مشهود.

إن تاريخ النهضة الأدبية مقرون بتاريخ العهد السعودي المجيد وهو تاريخ قصير الأمد بالنسبة لخطوات الفكر الراكد فكان المعقول أن تُنتج خطوات هذا الفكر خلال تاريخ نهضته القصيرة آثاراً كآثار اليازجي والمنفلوطي، وزملائهما من رواد نهضة الأدب المصري، على ما بين التاريخين من فارق في امتداد تاريخ المحاولات هنالك وقصره هنا.

أما أن تُنتج آثاراً عليها طابع الأدب المصري الحديث بعد أن قطع في اتجاهه كلّ هذا التاريخ الطويل، فذاك ما يبدو غريباً في نظر تاريخ نهضة الفكر وسيرها البطيء!..

إن أدباء مصر طبقات.. نستثني منها الطبقة الممتازة التي تمثل قيادة الفكر المصري، وهي طبقة المازني والعقاد وطه وتوفيق الحكيم ومن إلى هؤلاء ممن تجاوزوا حدود الإقليمية إلى دنيا الفكر العالمي المرموق.

ولكن ما عدا هذه الطبقة، فريق من الشيوخ والشبان، لا ندَّعي أن بعض أدبائنا يتساوون وإياهم بدون ممايزة أو تفريق ولكننا ندَّعي اقترابهم من مستواهم هذا غير مغرورين أو متحاملين.

ولعلنا غير مغالين، أو مبالغين إن قلنا: إن بعضاً مما تنشره الصحف

والمجلات المصرية الممتازة وبعضاً مما يذيعه المؤلفون هنالك، لا يكاد يلحق ببعض ما أنتجه، ويُنتجه الشعراء والكتاب في هذه البلاد.

ولعلنا غير مغالين أو مبالغين لو نقدنا شعر بعض الشعراء عندنا والشعراء المصريين وانتهينا إلى نتيجة إنصاف الأولين قبل الآخرين ولكن هذا ما يطول نفسه وتقصر المنهل وأية مجلة أخرى عن استيفائه.

على ان المقارنة هنا غير عادلة مهما كانت نتائجها منصفة - أي إنصاف - لهذا النفر المنسي من أدباء هذه البلاد!.

إن هؤلاء لم تُكونِّهم الدراسة الجامعية التي تُكَوِّن الأدباء - عادة - في بلاد كمصر وسوريا والعراق.

وإن فوضى الحياة واضطرابها هناك، غيرها نظاماً وطمأنينة هنا.

وإنهم هناك أدباء.. حرفة واتجاهاً فنياً كان الدافع الأول...

وأنهم هنا أدباء ينساقون للاتجاه الفني بالدافع الأول حتى النهاية، أما الحرفة فإن الأدب لا يلتقي وإياها في غير ميدان الوظيفة والعمل الكتابي المأجور.

أفليس في المقارنة بين أولئك، وهؤلاء.. ظلم بَيِّن لهؤلاء، وإن كانت تؤدي إلى الإعجاب باستمرارهم إلى جانب أولئك غير مظلومين أو مغلوبين؟!

ولكن ما نقوله عن أدبنا قد يكون مشكوكاً فيه ولو قدّر لما نقول أن يسمع به، كاتب مصري أو سوري أو عراقي، فيرمي به إلى حيث يرمي بكل قصة لا تؤول بغير المبالغة والتهويل.

وهذا وأمثاله، معذورون، غير ملومين.. مادام أن الإعلان عن هذا الأدب لم يأخذ طريقه إلى ما هناك من صحف ومجلات وما إليها.

على أننا لا ننسى - إلى جانب ذلك - فتور الأدب المصري عن مسايرة

يقظات الفكر في البلاد العربية كلها، فقد أغفل جانباً كان يجب أن لا يغفله، بعد أن تقلدت قيادة الفكر العربي، إن لم تكن قيادة الفكر الشرقي كله.

فكل ما نقوله، أو يقوله سوانا، عن أدب هذه البلاد مستغرب منكور عندها، لأنها لم تعن نفسها قبل بالبحث عنه، والتعليق عليه، ولأن الصحف المصرية - إلى جانب إهمال الإعلان من قبلنا - ماتزال تربط مصير الإنتاج الأدبي عندها باسم الناظم، أو الكاتب، لا بقيمة الإنتاج نفسه وما يساويه في ميزان النقد والتقدير!.

وبعد، فإن أدبنا مغمور، وأي مغمور! وقد كان حريّاً أن لا يذكر الأدب السوري والعراقي، إلا ويذكر هو بينهما دون أية مفاجأة.. ولكن إغفال الإعلان عنه، قد جنى عليه الإغفال المطلق، فليس له في دنيا الفكر العربي غير ما لماضيه من ذكرى تقليدية تفني ولا تغني!.

افتراه غير صالح (للتصدير) بعد كلّ هذا؟.

فأين هي الكمية المعبأة للتصدير؟

وأين هم (المصدرون) الذين يستطيعون أن يدفعوا ضرائب التصدير مستبشرين، متوقعين من ورائه الفائدة الطيبة، والمورد العذب الجميل؟

هل يستحق شعرنا التصدير ؟ ولماذا ؟

إذا كان المقصود بالتصدير في سؤال الأستاذ صاحب المنهل هو طبع شعر شعرائنا ونشره خارج البلاد فإن هذا قد حصل فعلاً كما أظن..

لقد طُبعت مجموعة وافرة من نظم بعض الشعراء هنا، وإن كان بعضها أو كلها لم يَرُجْ كثيراً في الأسواق الخارجية بل ولا في الأسواق المحلية - لا لأن مستوى الشعر عندنا ينخفض عن مستوى الشعر في مصر مثلاً أو لبنان، فإن من شعرائنا من أَضَعَهُ - وأنا مطمئن البال - في الصف الأول الذي أضع فيه البارزين من شعراء البلاد الشقيقة..

بل لأن (سوق الشعر) عموماً أصبحت كاسدة أو معطلة في هذا العصر..

إن سوقاً أخرى راجت الآن في الدنيا إلى حدّ بعيد وهي (سوق الواقع) وكل من دخل هذا السوق يخرج منها بتخمة كبيرة يتعذر عليها معها أن يحلم أو يتخيل..

كان يحلم بالمرأة مثلاً ويتخيلها.. ربما لأنها كانت تحت الخباء.. أو في البيت.. أو تحت البراقع، فرآها في سوق الواقع لحماً ودماً.. كيف يحلم بها أو يتخيلها إذا كان في السوق أو خرج منها متخماً إلى حد المرض..؟

وكان يحلم بالمجد والثروة، فوجد أن الشعر لم يعد ثمناً صالحاً لشراء الأحلام في هذه السوق - إلا من أقلية بسيطة كهواة النشوق في عام ١٩٥٥م!

على أن ضجيج القطار في سوق الواقع فَرَضَ - حتى على هواة النشوق - أن يَجْروا ولا يَتَلَفَّتُوا يمنة أو يسرة، وأن تستقر أحلامهم في رؤوسهم لئلا يفوتهم قطار الحياة الضخم أو يدهمهم في هذه الأثناء.. ولهذا كسدت سوق الشعر..

وأذكر أن لي رأياً قديماً في الأدب كله.. وهو أنه بمعناه الضخم عندما تضغط حروف كلمة (الأدب) ليكون أثرها كأثر (البعبع) أو (الدبدبة) في الأعصاب - قد دالت دولته ولم يعد له وجود إلا في امتداد سوق الشعر.. وهو امتداد تجري فيه الآن حركة هدم وإنشاء واسعة النطاق، ليكون امتداداً طيباً لسوق الواقع الجديد..

إن جو الأدب فيما مضى كان صالحاً للتجلي، وللاستغراق في تمتمه طويلة.. ثم ترتفع سحب البخور في الفضاء ويهيم فيها عشاق التجلي والأسرار..!

ولعل هذا النمط في طريقه إلى الانقراض كزوائد الحياة كلها بالتدريج، غير أن هذا لا يمنع وجود الهواة واستمرارهم في كل زمان ومكان، بل لعل هذا ضروري لتحقيق التوازن دائماً بين الهائمين في التجلي وفي سوق الواقع..

إن عندنا شعراء ما أشكّ في عبقرية بعضهم.. وأستطيع أن أزاحم في سوق الشعر بأمثال الأساتذة حمزة شحاتة والسرحان والعواد والقنديل وغيرهم.. وأنا أتخيل نجاح الصفقة وأتوقعها وإن كان فيهم من لعلّه في حاجة إلى الصقل..!

غير أنني سأنتظر أنا والأساتذة وقتاً طويلاً في سوق الشعر حتى تتيسر الفرصة التجارية بإقبال عدد ولو ضئيل على السوق من (هواة النشوق)..!

ولعلي سأتردد كثيراً، فيما بعد، عندما أفكر في تصدير كمية وافرة من (مساويك الآراك) إلى مدينة (هوليوود)!

إخفاق الأديب

أرادت مجلة (المنهل) الغراء أن تثير في عددها الممتاز حواراً طريفاً حول (إخفاق الأديب في الحياة) فطلبت إلى الأستاذين عبدالحميد عنبر و(ح) أن يجيبا إلى الكتابة بما يجول في خواطرهما من فكر وآراء، والموضوع كما يرى القارىء الكريم عويص جداً وإلى حدّ بعيد، ذلك لتشعّب نواحيه وتعدّد وجهاته فلا غرو أن قرأنا فيه بحثين مختلفين، يستمدّ كل منهما ناحية من الموضوع غير التي يستمدّها الآخر ولا غرو أن يكون لي رأي خاص أحبّ أن أذيعه على القرّاء فأشارك الكاتبين المحترمين في هذا البحث المستفيض.

ومن حقّ الموضوع، أو قل من مقدمة هذا الموضوع أن نسأل عما إذا كانت نفس الأديب نفساً ممتازة عن سائر النفوس أو غير ممتازة؟ وقد لا يحير القارئ في الجواب إذا لاحظ رسالة الأديب التي اصطفته الحياة لتبليغها، تلك الرسالة الشاقة التي تجعل منه وساطة بين الطبيعة وبين الإنسانية، توحي إليه الأولى بمختلف آيات الجمال والجلال، ليرتلها على مسامع الثانية، قطعاً موسيقية من لحن الفن، وبيان اللغة، فشعوره وأحاسيسه وقف على استلهام نبرات الحياة ودقات الكون، وقيثارته وقف على ترتيل تلك النبرات والدقات بالألحان الشجية والأنغام المؤثرة، وعلى ذلك فليست نفس الأديب كغيرها من النفوس تستمع إلى نجوى غير نجوى الطبيعة، وتلبي نداءً غير نداء الحياة، بل هي النفس المختارة لتلك النجوى وهذا النداء، ومن هنا يأتي اخفاق الأديب في الحياة واضطرابه في معتركها الماثل، فهو

بدون شك يدرك مهمته الملقاة على عاتقه ويدرك سموّها الذي حَبَتْهُ الطبيعة لأجله، ثم هو يشعر في قرارة نفسه بمطالب وغايات لايدري ما هي، وأين هي، ولكنه يتصورها كهذه التي يقصد إليها الناس ويسعون في سبيل الوصول إليها، كُلٌّ حسب جهده وتوفيقه، فيندفع في الطلب ويمعن كما يفعل أولئك الناس، ولايكاد يقترب من الحقيقة ويتبين الغاية التي يصبو إليها حتى يصدمه الخيال القائم في رأسه، وَيَرُدُّهُ خائب الأمل كسير العاطفة ويمكث قليلاً يستجمع قواه ليعمد إلى غاية أخرى قد تكون - كما يتصوره خياله- أعز وأنبل، وما هي إلا العاقبة التي صار إليها في أول أمره، ثم لايزال يتراوح بين الخيال والحقيقة، ذلك يُمهِّد أمامه السبل ويصور له الأماني العذبة المعسولة ويأخذ بيده في سبيل تحقيقها، وهذه تعرض له أخيراً فيلوي عنها بوجهه، وينصرف إلى حيث الاستسلام للخيال والوهم حتى يقضي نحبه وتنتهي حياته سلسلة متصلة من الكفاح المنهزم والاخفاق العنيف.

ويحسب الناس وفي مقدمتهم الأديب أن تبعة الانهزام والاخفاق يجب أن تلقى على الحياة التي لم تولِه سوى الحظ العاثر والخطط المعاكسة، وهو - في نظرنا حسبان ضال ووهم خطأَ تغذيه العاطفة المتّبرمة والوجدان الثائر أكثر مما يغذيه العقل والتفكير برويِّة وتبصُّر، وإلا فهل من الحق أن نعنف على الحياة ونشنّ الغارة عليها باللوم في حق الأديب مع أنها لم تتعرف إلى مطالب خياله الجامح لنوليه من العطف والبر ما يكفل الوصول إليها بدون عناء ومشقة؟؟ وهل من المنطق أن ندع ذلك الخيال وطموح نفس الأديب جانباً من البراءة والنزاهة لنقول للحياة إنك أنت وحدك الملومة والمواخذة فيما لاقاه الأديب من سقوط واخفاق؟. إن التبعة - في نظري- يجب أن تُلقى على نفس الأديب التي أوحت إلى خياله الاسترسال في أودية لايعلم مصيرها ولانهايتها تلبية لنداء السمو الروحاني المنبعث في أعماق تلك النفس والجاري في شرايينها، ولقد كان في وسعها أن تجنح

إلى الهدوء، والسكينة ومماشاة الحياة ونظام الطبيعة، وكان في وسع الحياة إذ ذاك أن تغدق عليها من النعم والخضرة الحلوة ما يكفل لها عيشة السعداء الآمنين، وكنا والحالة كذلك هدوء وطمأنينة- نستطيع أن نواجه الحياة بشيء من اللوم والتعنيف لو كان حظّ الأديب هو الاخفاق والاضطراب بعينه، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، وإنما كان الغلو في الخيال والسمو في الروح، وكان من وراء ذلك الاضطراب أو التهافت والشقاء، إذن فالذنب هو ذنب الخيال والسمو لاذنب الحياة التي لاتصانع ولاتحابي إلا من يظاهرها على ما هي عليه من أنظمة وقوانين..

والأن بعد هذا كلّه أفلا نستطيع أن نستخلص نتيجة في موضوع الاخفاق نقرر فيها أن من ضروريات الأدب وتذوقه بمعناه الصحيح هذا الاخفاق.. يلازم الأديب في أول دور من أدوار حياته ثم يختلف الأدباء من هذه النقطة ويفترقون، فأديب يشعر بهذا الاخفاق ويدرك أنه لامحالة يلازمه في جميع أدواره إن هو أصرَّ على متابعة السير وراء خياله الجامح إلى غير غاية، فما يسعه حينئذ إلا أن يقلع عن جميع أحلامه وتصوراته ويضطر إلى أن يجاري الحياة ويصانعها كلّ المصانعة، ثم هي لاتدخر وسعاً في سبيل ارضائه وإشباع نهمة السعادة فيه، وأكثر أدباء العربية لو أردنا استعراض تاريخ حياتهم، من هذا القبيل، فمن الصاحب بن عباد إلى ابن العميد إلى أبي نواس إلى ابن أبي ربيعة إلى أمثال هؤلاء الذين انهزموا لأول صدمة من صدمات الخيال، فاستسلموا للتيار صاغرين يندفع بهم كيف شاء وأنّى شاء، وكانت حياتهم كلها حياة لهو ومنادمة ومتعة وتسلية والقليل منهم - رغم شعوره بالاخفاق- قد أبى عليه تكبره وإباؤه العاطفي أن يرضخ للحياة ويسلمها زمامه تقوده كما قادت تلك الكثرة إلى حيث السعادة الجوفاء.. فأعلن التمرد والسخط وأرسل صورته يزمجر كالرعد، يقصف به هذه التعاريج والالتواآت في الطبيعة ويصور فيه ثورته والتهاب ضميره وكبرياء نفسه.. ومَنْ مِنْ الأدباء الأقدمين أجدر بتمثيل هذا القليل من الحكيم الشاعر أبي الطيب وفيلسوف المعرة

أبي العلاء، لقد استرسل الأول وراء أحلامه المعسولة، فظل يتنقل من مصر إلى مصر ويصبُّ من حين إلى حين نقمته على الدهر وثورته على الحياة وغرور الناس وانخداعهم لها ولأباطيلها المنمَّقة وتزويقها الأجوف، وانصرف الثاني إلى العزلة بين الجدر والكتب واكتفى بما يسد رمقه من النبات والأشربة، وظل يقذف قنابله الشعرية على الحياة وتعلاتها وزخارفها، ويصور سخطه عليها وتهافت الناس حولها أبدع تصوير، وهكذا أمضى الفريقان حياتهما وذهبا إلى حيث يذهب الموتى.. فريق سعد وتنعم بلذائذ الحياة، وفريق شَقِيَ وتبرّم وسخط، ولم يشأ له كبرياؤه أن يندفع كما اندفع ذلك الفريق، ويسعد كما سعد في حين أن كلا الفريقين أخفق واضطرب، ولكنما افترقا منذ الصدمة الأولى، ذلك إلى السعادة وهذا إلى الشقاء، فأي الحياتين خير؟ قد تكون حياة المصانعة والمداراة وكسب السعادة خيراً للأديب في نفسه وحدّ ذاته، ليقضي عيشه ممتع الجسم ناعم البال، ولكن الخير للتاريخ والأدب أن يترفع الأديب ويحرم نفسه من تلك المتع الفانية ليكسب الخلود عن طريق تصويره للآلام التي مازالت الإنسانية ترزح تحتها منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، ولعل في المتنبي والمعري وتخطي صوتهما هذه القرون العشرة الطويلة واحتفاء الناس بهما أيّما احتفاء تصويراً للخير الذي زعمته منذ حين.

وبعد فإن إخفاق الأديب في نظري من ضروريات الأدب، يلازمه في أول السير، ثم هو بعد ذلك بين طريقين، فإما أن يسلك طريق المصانعة فيسعد كما سلك القوم منذ عشرات السنين، وإما أن يسلك طريق الكبرياء والإباء، ولايبالي الغاية التي يصير إليها، كما سلك المتنبي والمعري وأمثالهما ممن ضرب على وتيرتهما من أدباء الشرق والغرب.

لغتنا بحر

لا أعرف لكلمة (السِّيرك) بديلاً في لغتنا، فهي تطلق على مجتمع فيه عدد من الناس.. والحيوان.. بنظام كنظام الأسرة الواحدة.. يجمعهم الحلّ والترحال من كل مدينة لأخرى، إذ يمارسون ألعابهم ومن ضمنها السحر والشعوذة، ثم يعيشون من دخلها إلى جوار مسرح اللعب، في عربات متجاورة، قد اجتمعوا من الشرق إلى الغرب.. ومن البقر والحصان.. إلى الأسد والفيل.. ومن كل ما تطيب به حياة كهذه.. جوها الحبّ.. واخاء الإنسان للإنسان.. والحيوان.. إلى آخر قصة المغامرة والخطر فيما يمارسونه من العاب!

ولا أرى ان كانت هناك كلمة في لغتنا تؤدي كل هذا المعنى الذي تؤديه كلمة (سيرك).؟

ربما كان في وسع علماء اللغة أن يجيبوا، وأن يختاروا كلمة استبعد وجودها.. ثم قد لا يطيب الاختيار غالباً ولا تعيش الكلمة المختارة، وإنما تعيش الكلمة المنقولة إلى النطق العربي كما هي عليه في الأصل .. أم بتحريف ما!

والحق أنه لايضر لغتنا أن تعيش فيها مئات الكلمات والمصطلحات الأجنبية، فإنها كالبحر لايتأثر إطلاقاً بأية روافد تصب فيه، ويظل هو هو بحراً.. إلى ما شاء الله كما قال عنها حافظ إبراهيم في قصيدته المشهورة التي نظمها على لسان حال اللغة العربية.

ولقد هضمت اللغة العربية إلى اليوم، ما قد لايحصى من كلمات أجنبية، فلم يتأثر خضمها الكبير بأية عجمة في هذه الكلمات، بل لقد غدت وكأنها عربية المولد.. والحروف..

خذ كلمة (الراديو) أو (التلفزيون) مثلاً، فإنها على ألسنتنا وأقلامنا.. حروف عربية، ونطق عربي لعله أفصح وأطيب من النطق الأجنبي الذي يبدو عليه الاعوجاج والتحريف في مخرج الحرف الطبيعي من بين اللسان والحلق والشفاه..

ثم إنها عدا ذلك أصبحت تخضع لقواعد لغتنا بدون اشكالات، فكلمة (الراديو) تعامل معامل المبنى دائماً على السكون.. وكلمة (التلفزيون) تقبل النصب، والخفض، والرفع.. كأية كلمة أخرى..

فما الداعي - والأمر ما ذكر- لإضاعة الجهود في سبيل تعريب الكلمات الأجنبية.. وهو ممكن بالنطق.. والحرف.. والقاعدة.. والكتابة.. واللغة لايخشى عليها من مثل هذا التعريب؟

إنما يخشى عليها من باب القواعد، وتركيب الألفاظ، والعبارات، واستعارة الكلمة لغير معناها، فإن الظاهرة الواضحة في انتاج الجيل المعاصر تفتح هذا الباب..

إنها ظاهرة الخطأ المستمر في القاعدة وما يتفرع منها..

فالذين يحذرون الخطأ ويتفادونه قلة فيما تخرجه المطبعة في كل بلد عربي.. والأكثرية هي التي أصبح الخطأ يجري في إنتاجها - أيّا كان- مجرى الماء، فالمرفوع فيه منصوب.. أو مجرور.. أو العكس..

والعبارة تنقصها الروابط الضرورية أحياناً لتصحيح مفهومها..

والكلمة تطلق في سياق العبارة على معنى ليس هو بالتأكيد معناها ولا من باب الخيال..

خذ كلمة (طالما) مثلاً، فمن الواضح معنى (الطول) فيها إلى حد ملموس.. أي أنها تؤدي معنى حدوث ما بعدها حدوثاً طويلاً..

غير أنها دارجة على الأقلام وبإصرار، لنفس المعنى الذي تؤديه كلمة (كيفما) أو (حيثما) أو (مادام)..

إنّ ما يجب أن نعالجه ونتفاداه هو أمثال هذه الأخطاء في استعمال الكلمة، أو في تحريكها.. أو قواعدها..

أما الكلمات التي تولد أجنبية فلا داعي للبحث عن بديل عربي أصيل لها، إذ لا خطر في بقائها أو استعمالها كما هي، مع اخضاعها أيضاً لقواعد لغتنا..

إن البحر لايتأثر مطلقاً بمثل هذه التفاهات!

أين نحن من العالم ؟

إن بعض الناس قد لايعلمون شيئاً عن المملكة العربية السعودية، وأعتقد أن حظها في ذلك كحظ سائر البلاد العربية أو بعضها، فقد كانت مصر تشكو تفاهة نصيبها من الدعاية لها في العالم الخارجي إلى عهد قريب.. وتحضرني بهذه المناسبة قصة الأمريكي الذي لقيه شاب مثقف من أبناء هذه البلاد في لندن، فقد سأله عن بلده.. ولم يستطع أن يفهم الأمريكي شيئا عنها لو لم يذكر له قصة الزيت، فبدا عليه أنه فهم ولكنه استدرك كمن تذكر شيئاً محزناً، وقال ما معناه: إن موقف الامبراطور هيلاسلاسي عندما دهمه الايطاليون ببلادكم - يخاطب الشاب السعودي- لم يكن موقفاً رائعاً، فقد فرّ هارباً بروحه إلى بلاد الانجليز، ولم يستطع أن يفهم الفرق بين الحبشة وبين بلاد الزيت إلا بعد محاضرة طويلة بهت لسماعها الأمريكي، مع أنه كان أحد الأعضاء في مؤتمر تابع لهيئة الأمم المتحدة.

إن مثل هذا الجهل بوجودنا من الأجانب طبيعي ما دام أن البلاد العربية بأسرها ما تزال في موقف لاتُحسد عليه إلى اليوم، غير أنني أتحدث عن البلاد العربية، ومدى تعارفها ببعضها داخلياً، ولست أقصد التعارف الرسمي، فهو مقرّر، ولكنني أقصد تعارف الروح إلى الروح أو تعارف الفكر إلى الفكر، فما يعلمه الآخرون أو معظمهم عنا ليس هو أكثر من معلومات مشوشة أو مرتبة عن المشاعر المقدسة والآثار التاريخية التي تضمها الصحراء في جوف الجزيرة، وأطرافها.. ربما في شكل قرى متفرقة.. يسكنها أقوام بدائيون قد التفّوا حول تلك

الآثار والمشاعر التي فرض التشريع حمايتها والتوجه إليها من قريب ومن بعيد.. ولذلك قد يدهش الكثيرون ممن يزورون هذه البلاد عندما يرون فيها عمراناً أو مظاهر حضارية أو فكرية كالتي ترمز إليها قصة الفكر أو الأدب أو قصة المستوى العلمي عموماً هنا.

إنهم - وفي مقدمتهم أهل الفكر والقلم- لايكادون يعرفون شيئاً عن الواقع الأدبي في هذه البلاد، وقد بدا على بعض المفكرين ممن قرؤا قصيدة أو كتاباً لشاعر أو مؤلف سعودي ما يشبه الدهشة لوجود حياة فكرية هنا بأسلوب جذاب.. وعندما تستعرض في بعض أبواب الصحف العربية باب الإعلان عن قيمة الاشتراكات في الداخل والخارج مثلاً فقد تدهش إذا رأيت أن اسم البلاد العربية السعودية ليس له وجود في بعضها، مع أن النسبة التي توزع بها صحف الأقطار الشقيقة لدينا، قد تكون أضخم كثيراً من النسبة التي توزع بها في جهات أخرى.. ولن تعجبوا بعد ذلك إذا استطرد أديب أو محرر في أية صحيفة عربية- إلى ذكر شيء عن الفكر أو عن الأدب في الشرق العربي.. فأغفل البلاد السعودية.. كأنها إلى اليوم تضرب في بيداء جهل عميق.

إن لدينا صحافة .. وشعراء.. وأدباء ومؤلفات، ونمواً حضارياً، ومدارس ومعاهد عالية.. ونحن في منتصف الطريق أو دونه.. ولكن هذا يجب أن لايحول دون إنصافنا.

إننا قد لانزاحم بمستوانا الثقافي، غير أنه عندما تُذكر البلاد العربية في مجال الثقافة وفي مجال الفكر، فإن حظ بلدنا بينها يرفع الرأس، ولذلك فمن حقنا أن نطالب بحقنا وليس معقولاً أن نظلّ منسيين إلى هذا الحدّ.؟

بقي أننا مسئولون أيضاً عن الظهور في دنيا الظهور منذ كانت الحياة في عصرنا ضجيجاً لايشقّ فيه الطريق إلا ضجيج مثله، وما أشك في أننا مقصرون،

وأنا واثق بعض الثقة من أن عقدة الظهور أدبيًا في العالم الخارجي سوف تنحلّ بالتدريج، وسيجرؤ على الظهور من لايجرؤ عليه الآن، أو من يقول بشعوره الفلسفي: لماذا أظهر؟ وأي شيء وراء ذلك؟.

ولكنني سأذكر البلاد العربية أيضاً، فإنها غير معذورة في أخذ فكرة عنا غامضة أو غير صحيحة إلى هذا الحدّ.. وإذا كان صوتنا لم يرتفع بعد فأقل ما يجب أن نُعرف به هو الوجود لا العدم.. وقد أصبح التجاوب الفكري بين الأحياء في عصرنا طبيعاً يكاد يرتفع به مستوى رجل الشارع إلى مستوى المثقف، إذا لم تفارق بينهما ملامح أخرى لاتدرك من النظرة أو المقابلة الأولى..

وقد أضيف إلى مظاهر الفكر ونشاطنا الحيوي هذه الإذاعة العربية التي تسمعون منها حديثي الآن.. فعسى أن تساعد مع المظاهر الأخرى على إبلاغ صوتنا إلى العالم العربي وسواه إن أمكن، وعسى أن تكون سبباً لما نودّه أن يكون من تجاوب روحي فكري عميق بين هذه البلاد وشقيقاتها التي ينبغي لها أن ترفع منظارها قليلاً، لتبصر شيئاً مما هنا.

في عالم الكتب

هناك كتب كثيرة أفضلها وأختارها، ثم قد لا أقرؤها وإن كنت حتماً لا أتخلّى عن القراءة، فإنها هوايتي المفضلة، وهي شيء والاختيار شيء آخر.. على أنني كما أظن لست الوحيد الذي قد يقرأ مالا يختار، ويختار ما لايقرأ، فما أكثر الذين يتمنون مالا يعيشون، ويعيشون مالا يتمنون صابرين أو غير صابرين.. والقراءة من العيش ومن الحياة عند بعض الأمزجة والهوايات.. وهي باب كبير يدخل منه عدد وافر من الأذواق والاختصاصات في العلوم والفنون بأنواعها، ولا ترتبط بمهنة الإنسان أو بعمله فقد يفضل الطبيب كتب الأدب، ويفضل العالم كتب الشعر، ويفضل الفيلسوف لوحات من رسم (روفائيل) أو (بيكاسو).

على أن من الصعب تحديد الاختصاص أحياناً، فإنني قد أكره أن أقرأ كثيراً أو قليلاً في العلم المادي وأرقامه المزعجة، غير أنه قد يستغرقني كلام عن الذرة - مثلاً- أو الصاروخ - أو وسائل احتلال القمر في المستقبل، أو ما إلى ذلك مما هو من غير مزاجي أو اختصاصي.. إذا كان لي اختصاص..

إن في الأمر سراً.. هو الكاتب وقدرته على أداء انفعالاته، بأسلوب ممتع جذاب.

إنه هو الذي قد أجدني أقرؤه ولو كتب عن طبقات الأرض أو آبار البترول، وعملياته المدهشة،، من المنبع إلى المصب.. إلى براعة الاستغلال!

وربما كنت أفضل قراءة بحث في التاريخ، أو في التمثيل.. غير أنني أحسّ أن كاتب البحث لم يعش في انفعاله بصدق، إما لأنه من الأساس ليس أهلا للانفعال الصادق، أو لأنه لم يحسن تحديد انفعاله أو الحديث عنه، أي لم يعشه هو جيدا، فكيف يُحْسِن أداءه لأعيش ملتذاً به وفيه؟

وربما عاش في انفعال تافه كنت أتوقع أن لا يكشفه كالعورة، وأنا وأنت نتطلب انفعالاً آخر على قلمه فيه حركة وفيه حياة.

وهناك من يكتب ما نعيشه حقاً، ولكنه غامض أو متعب مملّ، فلابدّ- إذا كان اختياري نافذا - أن يكون الكاتب الذي أقرؤه أياً كان ما يكتبه، هو الذي أعيش معه وأحس أنني قضيت في صحبته وقتاً سعيداً، فإذا أضيف أن موضوعه حبيبٌ إليّ فقد بلغت معه أوج السعادة.. غير أن هذا لايتيسر دائماً كما يلوح، فإنني قد أهوى موضوعاً أو أكثر، ولكن الأقلام التي عالجته متعبة مملّة أو غامضاً كما أسلفت. فمثل هذه لابدّ من التفرغ لها من الشواغل أيّا كانت، وهكذا قد أفضل (السندوتش) أو أي قلم من طراز مريح ولو كان موضوعه غير ما أهواه، وأؤجله مكرها للتفرغ..

وأغلب (السندوتش) من إنتاج أقلام هذا العصر، منذ كان (السندوتش) نفسه من فنونه، وربما أغنى أحياناً وسدّ الحاجة..

فمن (السندوتش) أغلب القصص والشعر، والمقال السياسي وما إلى ذلك مما هو محلّ اهتمام عالم اليوم، ويسكت به الجوع إلى حدّ ما، وقد يعيش به القارئ في عصره فلا يتعداه إلى أي عصر مضى..

والذنب ذنب العصر إن كانت ثقافة (السندوتش) غير صالحة.. والمجد مجده إن كانت صالحة..

وربما أصبح هذا شأن أكثر الناس في هذه الأيام.. حتى المثقفين منهم..

والكتّاب في المقدمة، وهم معذورون إن دارت ثقافتهم حول جيلهم دائماً، فإن زحمة الحياة في هذا الجيل تشغل الأحياء عما عداها وعداهم.

ولهذا فإن الذين ينقطعون للدراسات العميقة التي لاتقنع بالحاضر ولا بالماضي وتودّ أن تَعُبَّ كل شيء يحبسون أنفسهم للدرس والاطلاع في حدود برنامج يتقيدون به كالآلة أو أشد نظاماً منها - هؤلاء يبدو كأنهم يعيشون في عالم بعيد لا يصلهم فيه من زحمة الحياة حولهم إلا الصدى فقط، وهذا هو ما أتمناه.. ولا أعيشه كأكثر أبناء هذا الجيل..

وإلى أن يكون ذلك في وسعي سأظل أقرأ الكاتب الذي أعيش معه سعيداً بعض الوقت.. وهو الكاتب المقل، أما المكثر فذلك الذي أحس بالأسف للوقت الذي أقضيه معه أحيانا..

ولهذا أبدؤ كتبا ولا أتمّها، وقد أتمّ قراءة الكتاب كما يُتِمُّ أحدنا إفراغ أي طعام في جوفه لأنه جائع، أو لأنه خسر نفقته فحسب.!

على أن من الصعب تحديد أية كتب مفضلة عندي، إذا استعرضت شريط الكتب التي قرأتها منذ قرأت، ولاشك أنها كثيرة، فإذا لم يسعني التفضيل على هذه السعة والامتداد، فكيف يسعني ذلك في زمن معين كالزمن الأخير مثلاً، وقراءتي فيه ليست كأمنياتي؟

على أن التفضيل والاختيار في عالم الكتب يبدو معقداً في نظري إلى حدّ كبير، وإذا كان من السهل أن أفضل في دنيا المذكرات مذكرات كاعترافات جاك روسو- مثلاً- أو مذكرات نهرو عن العالم أو لمحات من تاريخه، أو أن أفضل في دنيا القصص.. قصة من نوع (ذهب مع الريح) الذائعة الصيت، فإنه لايسعني أن أقول: أي هذه الكتب المفضلة أحبّ إليّ وأحسن عندي.؟

إنها تبدو كألوان الطعام، أو الفاكهة، أو الزهور، فكيف أفضّل بين العنب

مثلاً والرمان.. والورد والياسمين.. وكلّ منها حبيب إليّ من باب لايدخل منه الآخر.؟

إن القاموس يبدو هاماً ومفضلاً، وجمهورية أفلاطون تبدو كذلك.. وعبقرية ابن الرومي للعقاد كتاب هام مفضل أيضاً، وقصة (ذهب مع الريح) أو (ابن الطبيعة) أو أية قصة عالمية أخرى- تبدو بنفس الأهمية ونفس التفضيل، فكيف يمكن أن أقول: أي هذه الكتب أفضل وكلّها لايسدّ فراغ الآخر بحال..؟

وأهم هذه الكتب هو نفسي.. إنها فعلاً أهم كتاب..

إن أي كتاب في الدنيا هو عبارة عن نفس إنسانية تقول لك: أقرأني أو أقرأ شيئاً مني في هذا الكتاب..

فكيف أفضل على نفسي كتاباً آخر، وقراءتُها بفهم وإخلاص أسهل وأجدى كما يبدو.؟

ووجوه الناس.. وكلّ من حولنا.. كتب حيّة للتأمل وللقراءة بأنواعها إن لم تزد أهمية عن الكتب الأخرى، ولهذا أحسّ أن الاختيار بين كلّ هذه الكتب قد يتعذر إلى حدّ بعيد.

كتاب واحد أحسّ أنه المفضل دائماً، ولهذا أحسّ أنني أقرأ جديداً فيه كلما عاودت قراءته.. وإلى الأبد أعيش في جوّه سعيداً.. أو هذا ما يجب أن يكون..

إن هذا الكتاب المفضل هو القرآن..

مَزْمَـــزة (١)

كانت (مزمزة) وكانت هي العنوان المتفق عليه مع الأستاذ السباعي، غير أن الأستاذ العريف لم يعجبه العنوان، ولا الاسم الذي كنت سأضعه تحت العنوان من نفس القافية، وقال: إن هذا هو شعور الكثيرين - أيضاً - بعد إعلان (الندوة) عن الاسم والعنوان.. وأضاف أنه يفكر كثيراً في إعلان اسمه الصريح تحت ما يكتبه في (البلاد السعودية) بعنوان (همسة اليوم) وأنه سيفعل ذلك، فقلت للصديق، إن اسم (أبو نظارة) الذي توقع به الهمسة أصبح مرادفاً لاسم عبدالله عريف وأن الناس قد يُطلقون لقبًا أو كنيه على أحدهم، فيمضي ذلك، وقد يصبح علماً عليه أكثر من الاسم المدون في شهادة الميلاد.. ولكنني تذكرت أن بعض الناس قد لايعرفون حقاً إلى الآن: من هو (أبو نظارة)؟

غير أن الكثيرين يعرفونه، فما حساب القليلين معهم؟ ولماذا يكون اسم الكاتب مهماً، ولايكون المهمّ ما يكتبه الكاتب؟

ورغم أن هذا مبدأ صحيح، غير أن هناك اعتبارات كثيرة لابد من مراعاة سلطانها وإن فشل المبدأ الصحيح.

هناك - مثلاً- فضول الناس ضد كل مجهول، وهناك أثر خاص يقترن باسم الكاتب- في مشاعر قرائه، حتى وإن كان كاتباً غير معروف، فإن للأسماء تأثيراً،

ودلالة، وحياة- أعمق كثيراً مما تُصَوِّره بضعة حروف تبدو خرساء على الورق واللسان.

وربما كان هناك إحساس الكاتب بنفسه، وإن كان قد يغالي فيه أحياناً، ولكنه لايكره- بل يتمنى - أن يحس به الآخرون نفس الاحساس، وليس في هذا ما يعاب أو يؤخذ عليه.

ربما كان هذا غامضاً ينقصه الشرح والتبسيط، ولكنه حوّل (المزمزة) إلى كلام، وحول التوقيع تحتها إلى اسم صريح.

وانتظروا العريف.. ربما (حوّل) إلى الاسم الصريح وربما (حوّل) أصدقاء آخرون مازالوا يستترون تحت توقيع (هو) و (ألف) و (عين) و (ابن سيناء) و (ابن الايه).. وربما ظلوا تحت الستار أو وراءه، وثبتوا على المبدأ الصحيح.. مبدأ الفكرة لا المفكر، وما يقال أو يكتب، لا القائل أو الكاتب.. لقد كنت أتمنى أن أكون مثلهم إن ثبتوا.. ولكن هكذا كان.

مَـزْمَـــزة (٢)

المزمـزة كـلام .. وبعض الكلام (مَـزْمَـزَة) عـلى وزن (هَنْكَره) و (دردشـة) و (فـرفشـة) و (قَـعْطَبة) و (طَرْطَعة) وغيرها مجموعة كلمات نعيش في مفـهومها الدارج، حتى لقد يتعذر عليّ أن أجد لها بديلاً من الكلام الفصيح، إن كان بعضها على غير صلة قريبة أو بعيدة بلغة الضاد..

خذ (المزمزة) مثلا.. ماهي على وجه التحديد؟ ربما كان لها أكثر من مفهوم واحد.. ربما كانت اصطلاحاً فنيا لحالة خاصة، وربما كانت عملية انسجام عميق في الكلام عن موضوع أو سلسلة مواضيع.. يتحدد اتجاه الكلام فيـها، ويتخذ أسلوب (الطقاطيق).. من واحدة.. إلى أخرى.. تماماً كقزقزة (الفصفص) أو (اللّب) بلغة اخواننا المصريين.

وكما نبدأ (الطقاطيق) أحياناً من (الطبقة الأرضية) بلغة (المنشدين) تبدأ (المزمزة) نفس البداية بمجرد استرخاء الإنسان مع نفسه أو مع الآخرين في جلسة رائقة ينتظر لها طول المقام..

إن أي مـوضـوع، ولو كـان هو (البـامـيـة) أو (الفـاصـوليـا) صـالح لأن يَجُـرَّ (المزمزة) من أول السلم إلى آخره في ايقاع منتظم على الوحدة، يدور فيـه الكلام بين (الممـزمزين) كالنفس بفتح الفـاء.! ويبلغ الانسـجام حدّ الذروة أو الطرب، أو السخسخة، إذا انحبك (الكلام) واتخذ شكل (المناقلة) في جوها الفني، مع براعة القدرة على تصنع الدهشة، والانكار وكل أنواع المسايرة بأروع أساليبها.. إلى حدّ التمايل، واطلاق آهات الطرب ودموع الفرح والحزن عند اللزوم.

مَزْمَــــزة (٣)

ثم حدِّث عن (المزمزة) ولاحرج.. خاصة في مثل هذه الأيام..

إن العالم كله - كما يلوح - في (مزمزة) مستمرة..

الصحافة، والإذاعة، والمؤتمرات والمجتمعات.. العالم بأسره في (مزمزة).. وكل يغني على ليـلاه.. فـالمهم أن (المزمـزة) -كـالقناعـة! كنز لايُفنى ولاتنفـد مواضيعه.. من الصِّفْر.. إلى الذهب، ومن الكراث في (الحلقة) إلى سياسة أمريكا في الشرق الأوسط!

ومن شأن (المزمزة) أنها قد تطول أحياناً، فلا ينتبه من ينسجمون فيها إلا على صوت مفاجأة قد تهيل التراب على كل (مزمزتهم) الرائقة.! ثم .. لابد من (المزمزة) ومن استمرارها مادام في الدنيا فضول يتطلع، ورغبات تتحفزّ وتتصارع إلى الأبد.

وكثيراً ما تبدأ (المزمزة) بلا هدف.. ومن أي موضوع صالح لمسك (الوحدة) على (الايقاع) البارد - في أول الأمر.. ثمّ.. ثم يتطور إلى ما يشبه الاندماج في حلقات (الزار) أو (المزمار)

الجوّ - مثلاً - إنه حارّ اليوم.. أليس كذلك؟ وترتفع حرارة (المزمزة) بسرعة البرق أحياناً - إلى بحث (العملة) وخطرها، وتطورات مشكلتها، وما ترتّب عليها وتفرّع عنها.. وإن ظلّت المشكلة قائمة بأسلوبها، وفي أثرها (المزمزة) بأسلوبها الحلزوني الطويل أو بأسلوب المراقبين السياسيين!!

إن قصة المزمزة قصة طويلة كقصة الأبد.. والأجيال.

مَزْمَـــزة (٤)

خذ أية فكرة ولا تحتقرها، فربما كانت مفتاح تطور كبير في حياتك.. وربما في حياة الآخرين.!

إننا نشكو الفراغ في حياتنا.. الفراغ الذي يفضي بنا إلى التسكع بين (المركاز) والسوق، أو أي مكان نتوقع وجود (مزمزة) فيه، مع أن الفراغ تقطعه القراءة والدرس.. والعبادة.. أليست عملاً جليلاً يقطع الفراغ؟. وإذا كانت أعصابنا في حالة فتور ضد كل شيء، وكأن الدنيا قد استحالت إلى (علبة صلصة) كما أشعر أحياناً- فلعل التفكير وحده هو الحل الوحيد، على أن نقاوم فتور الأعصاب، فقد تتمرد حتى على مجرد التفكير، إلا إذا كان تفكيراً طائراً يجوب الدنيا كلها في مثل لمح البصر إن أمكن، ليرجع بنفس السرعة، ويؤكد أن الدنيا، أو الحياة، لم تعد تطاق.

هنا يجب أن نحتال على أعصابنا، بكل طرق الإيحاء، وأن نلاطفها بعبارات هادئة من نوع: إنها - أي الحياة- شيء أو شرٌ لا بدّ منه، فمن المستحسن أن نتقبلها على علاتها وما يجدي التمرد عليها، لاسيما إذا كان صامتاً، لأنه سيأكلنا وحدنا فقط.. وتستمرّ هي، أي الحياة وكأننا لم نكن، فلنكن معقولين.. ما الذي يُكْرِبُنا الآن؟ يبدو أننا لانود عمل شيء معين.. حسناً.. إذاً فلنفكر في شيء معين.. ولا نتخبط..

هل رأيت أعـواد الكبـريت المحـترقـة؟ إنهـا تافـهـة ولكن ربما كـانت بداية التفكير الصالح منها، وفيها، بداية موفقة تغنيك - إذ كانت عـاطلاً- عن اللف والدوران في نطاق معين محدد..

فكّر جيداً.. ولا تحتقر فكرة معينة، ثم لا تستح من بداية التنفيذ، فإن الحياة لم يعد فيها مقام صالح لخجول في هذه الأيام.. والعمل التافه - كما قد يراه الوهم- لا يعيب.. إنما يعيب ما لايخفاكم..

فكر، ولا تضيع وقتك في (المزمزة) ولا تترك لأعصابك عليك سلطاناً..

مَزْمَــــزة (٥)

اكتبوا .. اكتبوا.. لماذا لا تكتبون.؟ و (مزمزة) دائمة من هذا القبيل، تتبعها بعد أن تُكتب (مزمزة) أخرى من نوع: كتب فلان وقال فلان؟

وقلت للذين يقولون أكتبوا.. اكتبوا..

لقد كتبنا، وما تزال أقلام حية تواصل الكتابة في كلّ، أو بعض، ما يعنّ لكم أن نكتب فيه.. ولكن لماذا لاتحتضنون أنتم فكرة الكاتب إذا لمس بها وتراً حساساً في نفوسكم؟ لماذا تكتفون بمظاهر الطرب في مجالسكم وفي تعليقاتكم الطريفة.. ثم قد تموت فكرته، غالباً، منذ درج الاعتبار السائد على وصف ثمرة الأقلام وكفاحها بأنه كلام صحف.. وخيالات أدباء؟؟ لماذا لاتكونون أنتم وراء هذه الخيالات إن كنتم تزونها حقاً.. حتى إذا تبخر كلام الصحف جمدتموه ثم استمطرتموه كالسحاب، ليتحول إلى نبات وزرع وحياة.؟

إن هذا يعني تأييد فكرة الكاتب ممن يرون أنها صالحة. لماذا يظلون دائماً وراء الكواليس، ويظل الكاتب وحده عرضة لاستجوابهم.. ثم تلحقه (المزمزة) بذيولها سواء كتب أو لم يكتب ولا نعفيه إلا من التأييد، ومن الشفقة، أو اللوم عند اللزوم!

وسكتُّ على مضض..

وقال بعض الأصدقاء الذين كانوا يسمعون :

- حق!

الماضي . . والمستقبل!!

يشغل الماضي والمستقبل حيِّزاً كبيراً من اهتمامنا.. وإن كان الحاضر هو الأهم. أو هذا ما يجب أن يكون، غير أن الحاضر- كما يلوح- في حكم (همزة الوصل) لا أكثر ولا أقل..

وندر أن يكون الماضي إلا كأي خيال جميل، نَحِنُّ بعواطفنا إليه حتى ولو كان أثقل من الدم الثقيل عندما كان وقبل أن يغدو ماضياً.. وخيالاً جميلاً..

أما المستقبل فإنه موضوع الأمل، ولهذا يشطح الخيال فيه..

والناس سواء في هذا الخيال..

أذكر أن أيز نهاور قال مرة - أو لعل غيره قال- ما معناه:

إن من سوء الحظ أنه لايوجد مركز أعلى..

وهكذا يتطلع خيال ايز نهاور إلى مركز أعلى بعد رئاسة هي أعلى الرئاسات في (كادر) العالم كما يبدو.

وهكذا كان الأعلى دائماً هو الهدف..

وربما احتاج أحدنا إلى اللف والدوران كثيراً في طريقه إلى الأعلى، فالغاية- دائماً- تبرر الوسيلة، وان كانت بعيدة أو شديدة المراس.!

ولهذا حقت التضحية والمكاره على كل من يستمر في طريقه إلى الأعلى.. باصرار..

والصحافة - كما أظُن - تركبها هواية هذا الطريق ضمن هوايات أخرى..

والطريق صعب شاق، ولكن الصحافة الناضجة تحتال لأهدافها حتى تصل.. ولقد عرفنا في تاريخ الصحافة العربية صحفاً من هذا الطراز لم تمنعها وعورة الطريق أن تمضي وتحتال، حتى استطاعت أن تكون عملاً حياً في تاريخ الوعي.

وربما كان الطريق من وجهة صحافتنا أصعب أو أشد مراساً، غير أن هذا يجب أن لايقعد بها عن المضي وعن الاحتيال..

ولهذا سأنسى الماضي وما أكره أن تنساه الصحافة، و(الندوة) في المقدمة بين عامها الأول والثاني بعد مشروع (الدمج)!

ولابأس أن نذكر الأخطاء.. معترفين..

إن أحدنا قد يجد صعوبة في مثل هذا الاعتراف.. غير أن الصحافة الناضجة ترحب به ولا تأباه..

إن ذكرى الحسنات لاتجدي كما تجدي ذكرى السيئات والأخطاء، فربما أثارت الأولى عوامل الغرور، وهو أول الوهن في تاريخ كل مشروع.. وكل رجل..

أما الأخرى فإنها تثير غالباً دوافع الكفاح لتقويم الخطأ، والظفر بحسنات جديدة..

إنه جهاد طويل في طريق الصحافة.. وأتمنّى لها مزيداً من هذا الجهاد، فهو أفضل رياضة يمارسها هواة المتاعب.. لتربية عضلات من الحديد في نفوسهم ضد الوَعر والشوك.. في طريق الجهاد الطويل.!

الهـدف الأكبـر

ما هي اللذة.. وما هو الألم؟؟

وليس من همي أن أتفلسف في ذلك كما فعل بعضهم من أيام (سقراط) فهناك كتاب ضخم اسمه - كما أذكر- (فلسفة اللذة والألم) نقله إلى العربية إسماعيل مظهر، وهو كاتب فحل شهير، أو هكذا كان في أيامه، ثم انطوى فلم يرتفع له صوت إلى اليوم.. شأن بعض من لمعوا من رجال القلم والفكر، ثم انطووا لأسباب يطول شرحها.. وتلك مسألة أخرى، فالمهم أن في كتاب الاستاذ مظهر من البحث ومن أفكار (أرسطبس) وغيره من الفلاسفة ما قد يدير الرأس..

ومن هنا- كما يلوح- ثقلت الفلسفة على مزاجي..

غير أن هذا لايحول مطلقاً دون التفكير في اللذة أو الألم، كأي شيء آخر تفكيراً لا فلسفة فيه..

إننا نمارس ألواناً كثيرة مما اصطلح الناس أو بعضهم على أنه لذة.. ولكنني قد أحسّ في أعقاب كل لذة- بأنني كمن لم يمارس شيئاً مطلقاً - وهذا يصدق على الألم أيضاً..

إنني - فقط- أتخيل ما مضى مجرد خيال كالذي أتخيله لغيري من الناس..

إذا شبعت مثلاً من طعام لذيذ بعد جوع، ذهبت أتخيل أني كنت قد أكلت كأي شخص آخر لا علاقة له بشخصي.. ربما على سبيل الإطلاق..

ثم يحدث أن أتخيل لذة أخرى لأمارسها، فأنا دائماً بين خيالين - مجرد خيالين - سواء كنت أنا موضوع الخيال أو سواي، إذ ليس هناك أي فرق يذكر في النتيجة بين أن أكون أنا.. قد نظرت إلى صورة جميلة.. وانتهيت.. أو زيد هو الذي نظر وانتهى..

إن في وسعي أن أتخيل لذّته إذا نظر إلى نفس الصورة.. كما أتخيل لذتي.. بنفس الأسلوب والطريقة، فما هي اللذة .. ومتى تبدأ.. وتنتهي؟

إنني أشعر بلذة اللقمات الأولى على الجوع.. ثم يهبط شعوري كما يهبط ميزان الحرارة.. حتى الصفر.. فما هو هذا الذي يرتفع ثم يهبط؟

إنه شيئ غير لساني أو فمي.. أو أي عضو آخر.. إنه معنى، فما هو؟ ربما كان لا شيء.. مجرد معنى فحسب.. ثم قد يتحول إلى خيال.. وسأم بعد الخيال!

كخيال النوم - مثلاً- أين هي اللذة فيه؟

لقد اختلف الناس في ذلك لأهمية الاشكال كما يبدو، فقال بعضهم إن لذة النوم في أوله، غير أنه لايمكن، كما أظن: أن تكون لحظات ما قبل النوم هي أول النوم، فإنها حالة صحو.. ربما كان فيها تعب.. أو تهيؤ للنوم، غير أنها ليست من النوم كلياً.. ثم لاشيء بعد ذلك إلا أنني لا أعود أشعر بشيء مطلقاً.. وأنا أنسرب - ولا أدري كيف أنسرب إلى النوم؟؟..

ولقد حاولت كثيراً أن أضبط نفسي في هذه اللحظة لأعرف كيف أنام، فلم أفلح إلا في الشعور، بعد أن أصحو، بأنني كنت نائماً فحسب.. مع شيء من الأحلام إن تذكرتها، كما لو كانت أحلام شخص آخر بعيد عني كل البعد.. شخص مسافر - مثلاً - أو ضرب.. أو مارس أي تصرف، بينما أنا في حالة أقرب إلى العدم على فراشي، في هذه الاثناء..

وما بعد النوم صحو كالذي كان قبله، وهو إما صحو نشاط أتخيل معه

الذي كان، وأتخيل - في نفس الوقت- لذة أخرى.. أو هو صحو بليد يرغب الاستمرار في النوم..

والنشاط أو الرغبة كلاهما مجرد معنى.. والمعنى ليس هو النوم.. ولا لذة النوم، فأين أو كيف أو ماهي لذة النوم؟

وقس على هذا كل لذة.. أو ألم..

إننا نسمي الحالة ألماً أو لذة.. وهي حقاً شيء يشعر به الناس، ولا شك في أن له مظاهر كانقباض الملامح أو انطلاقها بين اللذة والألم، ولكن هذا ليس هو الألم أواللذة.. إنه مجرد معنى يشعر به أحدنا.. قد يتلوى - مثلاً- أو يبتسم أو يرقص ليعبّر فقط عن هذا المعنى، ولكنه يظلّ غير مفهوم لدى الإنسان ذاته- إلا بأسلوب المقارنة والتشبيه - أي بدون تحديد من نوع تحديد أي عضو في الإنسان، كأنما الأعضاء والكيان كله تعبيرات عن معان نحسها، ثم لاندري عنها شيئاً أكثر من هذا الاحساس.

إن هذا قد يؤكد إلى حدّ ما- ولو من زاوية نظري- أن الهدف شيئ أكبر من اللذة ومن الألم، وإن بدا الهدف دائماً هو اللذة وتفادي الألم.

إنه شيئ آخر يلوح أنه أكبر من الحياة نفسها، منذ كانت - وهذا حال اللذة وحال الألم فيها- متاع الغرور حقاً..

تصور الغرور.. إنه معنى كبير شائع في ملايين المخلوقات..

تصور معنى كهذا نختلف كثيرا ولا نتفق في تحديد مظاهره، ثم قد ننكر الشعور به أيضاً..

تصوره وتصور أن متاعه شيء اسمه الحياة الدنيا.. أي تصور معنى يتمتع بمعنى، فما الذي يبقى في اليد.؟

لاشيء إلا الهدف الأكبر وراء الحياة.. والموت.

فكرة الكاتب

كنت أنشر تحت هذا العنوان ما تيسر من الكلام في صحيفة (المدينة المنورة) وأعاود النشر تحته اليوم في صحيفة (البلاد) مع إيمان كبير مني بأن أي كلام يقال أو ينشر - لا ولن يفيد ما لم يبلغ حد (الوعي) في نفوس الناس.

وربما كان الكلام الجيد كثيرا ، كالأفكار الطيبة التي يلوح أنها في متناول كل إنسان، غير أن المهم هو أن (يعيش) الناس في الفكرة الصالحة، وأن ينفعل بها رجل الشارع، وبهذا تتطور وتصبح فكرة الجميع، كما هو الحال في كل فكرة نجحت إلى الآن، لا أن تظل فكرة الكاتب أو الصحيفة.. ثم ينتهي كل شيء.. وتتحول الصحيفة إلى قرطاس.

وأشهد أن الناس عندنا يحبون أن يقرأوا شيئاً لذيذاً في الصحف، ويحبون أن يشهدوا مشاعرهم، وكل ما يفكرون فيه أو يتوجّعون منه - حياً نابضاً على أقلام الكتاب.. بل ويصفقون للكاتب إذا أجاد ، وإذا رفع صوتاً كان له معنى - الآهة- الحارة في صدورهم..

غير أن الناس يقفون عند هذا الحدّ من الانفعال، وكأن المقصود هو مجرد نفس بفتح الفاء - يخرج من الصدور إلى الهواء الطلق..

إننا نبحث عن انفعال جديد يحتضن به الناس فكرة الكاتب إذا كانت صالحة، ثم يتبنّونها حتى تكبر.. وتتحول إلى بناء ضخم.

إن فكرة الواحد غير فكرة الجماعة.. وكلّ إصلاح وجد في الدنيا إنما كان نتيجة شعور حي مشترك يدافع عنه الجميع..

لايكفي أن تقول: كتب فلان.. وقال علان.. ثم نستريح وكأن المهمة قد انتهت عند هذا الحد.

إنها - بالعكس- تبدأ من هنا..

إن ما قرأته وتقرأه يجب أن يعيش في دمك، إن كان صالحاً.. حَوِّلْهُ إلى هدف.. اعْتَقِدْهُ.. ثم دافع عنه.. وانشره.. ليكون بالتدريج هدف الجميع..

من هنا كما أظن.. يتحرك وعي الناس..

الشعر.. صحافة!؟
(بمناسبة صدور جريدة «عكاظ»)

ربما كان الشعر أقدم من النثر، لأنه أقرب إلى الفطرة كما يلوح أن الموسيقى أقرب إليها من الشعر، منذ أخذ يُعَبِّر بها الإنسان.. وكانت فطرته حينئذ تعيش في انفعالات بدائية.

ثم تطورت فطرته.. وتطورت موسيقاه إلى معان أوضح..

وأخذ انفعاله يتحدّد ويتطور..

كان مشرق الفجر.. والشمس.. والبرد والحرّ.. والسموم والأعاصير.. والمطر والسحاب.. والشفق.. والليل.. والقمر.. والنجوم.. والفضاء.. والبحر والجبل- صوراً كثيرة عاشتها فطرة الإنسان القديم بخيال غامض مثير.. كصور أخرى على الأرض عاشها بنفس الفطرة مع نفس الخيال..

صوراً اسمها الأسرة.. والقرية.. والدنيا التي يعيشها ويتطور فيها من الفطرة إلى الانفعال المتلاحق بتلك الصور.. وإن ظل غامضاً كالموسيقى التي كانت تُتَرْجَم عنه وتتطور..

كانت علاقة الرجل بالمرأة غريزة صماء أول الأمر، ثم أخذت تتحول إلى انفعالات بعد العشرة والتجربة.. في شكل عواصف ورغبات موضوعها الحبّ-

مثلاً- أو الكره والخصام.. والأمل.. واليأس.. والمشاركة.. والمنفعة.. ومعان أخرى.. كانت غامضة في البداية، يوم كانت الموسيقى تترجم عنها بالصوت الجميل الممكن..

ثم جاء دور الشعر يوم اتسعت دائرة هذه الانفعالات.. وكان لابد للتعبير عنها من لغة أخرى بأسلوب أقرب إلى الموسيقى منذ كانت هي التعبير المألوف..

فكانت هذه اللغة هي لغة الكلام، وكان الأسلوب هو الشعر..

وهكذا يلوح أنه - أي الشعر- إنما كان ضرورة في بداية الأمر، كالصورة التي كانت تدفع الإنسان القديم إلى الصراخ في الغابة وبين الكهوف.. والأشجار.. ثم إلى الموسيقى..

كان الشاعر يعبر عن انفعالاته كلما واتاه الانفعال والتعبير، إن أحب، أو كره، وسخط، أو رضي، وفرح أو تألم..

وكان الشعر ضرورة من ضروريات فطرته التي كانت محدودة أول الأمر..

ثم أخذ الشاعر يتطور إلى إنسان اجتماعي، له ماله وعليه ماعليه.. وتطور الشعر معه إلى انفعالات ورغبات أكثر من التي مضت يوم كان يحيا ويعيش في نطاق ضيق هو نطاق ذاته الهائمة في عالم غامض كبير..

ولم يعد هدف الشعر أن يُعَبِّر عن نفسه لنفسه وللآخرين كيفما اتفق، فقد أصبح ضرورياً أن يتوخّى الأناقة والزي الجميل، ليكون مؤثراً.

وبدأ اتصال الشعر من هنا بالآخرين يتخذ شكل الانسجام مع رغباتهم.. ويتطور في نفس الوقت إلى أغراض تعني الشاعر.. وقومه.. ولم تكن يوماً من أغراضه قبل هذا التطور..

رغبات فردية واجتماعية يصدق عليها مبدأ الاحتيال على الحياة بالأسلوب

المناسب.. من الفخر إلى الحماسة.. إلى المدح والذم.. إلى استهداف الثروة.. والمجد.. إلى أي اعتبار يشرف سمعة الشاعر وسمعة القبيلة..

واتسعت دائرة الانفعالات من هنا، منذ تخلّلها شيء كثير من الكذب.. والنفاق.. والرياء.. وطلاب المجد والحياة باختصار.. حتى اتخذ الشعر شكل الصحافة من قبل ميلادها بآلاف السنين.

غير أنها صحافة كانت تصدر بين كل فترة وأخرى، وتوزع في (سوق عكاظ) مثلاً وفي سوق (ذي المجنة) أو في سوق من أسواق الصحافة أي الشعر.. في تلك الأيام..

وجاء دور النثر من هنا.. ومضى في نفس الاتجاه..

غير أن هذا بحث يطول، فالمهم أن الشعر كان صحافة الماضي.. ربما بأخلاق صحافة الحاضر، ولكن أسلوبه كان عالياً فقط، لأن الانفعالات كانت محدودة، فلما اتسعت كان لابد أن ينزوي الشعر، وأن يبرز النثر لأداء تلك الانفعالات بما أمكن من الكذب إلى الصدق إلى أي انفعال.. موضوعه الفخر أو المدح.. أو الشتم.. أو عالم الحب أيضاً.. إلى آخر مايجري مجرى الكلام المعتاد في صحافة اليوم وليس للشعر معنى في مثل هذا المستوى.. أو طاقة عليه..

ولهذا انزوى.. وربما عاد.. في شكل صحافة تصدر- على سبيل المثال - شعراً من الحرف الأول إلى الأخير..

وخير سوق تصدر صحافة كهذه فيه (سوق عكاظ) فقد كان هو سوقها من قبل عندما كان الشعر شعراً حقا.. فلماذا لا يكون سوقها اليوم.. ليجدد صحافة الأمس بشعر عصري جديد؟

صدقوني لو فكر الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار يوماً في أن يفعلها لفعلها

وأصدر لكم صحيفة (عكاظ) شعراً كلها من الألف إلى اليا ء.. في شكل منظومة رائعة السحر والاتقان!

وربما بدت أول الأمر غير مقبولة من القراء، غير أن طرافتها ستكون عاملاً كبيراً من عوامل رواجها ليس في الشرق الأوسط، بل في العالم كله..

وقد يحرص العالم نفسه - بحكم الطرافة - على ترجمة (عكاظ) - شعراً كما هي - إلى كل لغة وكل لسان، وقد يفعلها العطار نفسه بأقلام تراجمة سوف لا يطول عمرهم غالباً مع العطار، فإنه حتماً سيتعلم اللغات التي يترجمون إليها ليبطل خدماتهم، ويتولى بذاته الترجمة كيفما اتفقْ.

ليته يفعلها لنشهد تطوراً عجيباً في دنيا الصحافة، ربما غدا به لسوق عكاظ شأن من قبيل أخطر الأحداث في القرن العشرين..

ربما كان هذا سبب ميلاد مدينة ضخمة في السيل الصغير- وهو غالباً (عكاظ)- واتخذ العطار على إحدى الروابي هناك، داراً ضخمة لصحيفته التي تصدر شعراً كلها من الألف إلى اليا ء.. في كل أسبوع مرة.. ثم قد تصدر يومياً إذا راجت الرواج الذي توقعته لها في الشرق الأوسط.. ثم في العالم بأسره..

إن نهضة كبرى سيقفز بها الشعر لو فعلها العطار.. وربما فعلها.. فإنه يلوح ممن قد لا يهمهم أن يحفروا البئر أحياناً بإبرة..

من يدري؟ ربما فعلها فإنه في جلده وفي كفاحه عجيب أي عجيب.

إن إخراج (عكاظ) فصل من فصول هذا الكفاح.. ادعوا له بالتوفيق.

الأدب . . بخير!!

يقال دائماً أن الصحافة جنت على الأدب، فلم يعد سوقه رائجاً كما كان.. وأشك كثيراً في صدق هذا الذي يقال، فقد كانت الصحافة قديماً، وكان فيها أدب قوي كل القوة.

بل لقد كان أسلوب الصحافة حينذاك أسلوباً مجوداً ملؤه الأدب والبيان.

ثم تطورت الصحافة، لا لتجني على الأدب، بل لأن الحياة نفسها دفعتها حتماً إلى هذا التطور..

فإن تكن جناية فإنها جناية الحياة منذ غلبها طابع السرعة والقلق، ومنذ أخذ الناس يكرهون مايثقل على أمزجتهم، ولا يرحبون إلا بكل خفيف طريف لا يثقل عليها ، ويتسع وقتهم له بين مختلف المشاغل والهوايات.. وإنني لأذكر كلاماً بهذا المعنى كتبه الأستاذ الكبير المعروف أحمد حسن الزيات يوم كانت تصدر مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها بقلمه وأقلام الفحول.

ثم لم يطل عمر - الرسالة - كثيراً بعد هذا الكلام الذي كتبه، وأذكر أن عنوانه كان (أدب السندوتش).

وماتت (المجلة) تقريباً.. باستثناء عدد قليل مازال يكافح ويصدر في الأقطار العربية، منذ أصبحت الأغلبية الساحقة من قراء (الصحيفة) التي تعكس

لهم أضواء الحياة وتجاملهم على المزاج الخفيف.. لا (المجلة) التي تقدم البحث الدسم والمقال الغزير.

وباستثناء مجلات أخرى اتخذت نفس الطابع الرائج.. طابع الصحيفة ومعناه.. والاسم (مجلة) فقط.

ونحن عندنا نفس الحال ونفس المزاج، فيما عدا ضعف نسبة القراءة أو التعليم.

غير أن نشاط - المجلة - لم يتوقف لدينا..

كانت مجلة (المنهل) - مثلاً - هي المجلة الأولى.. وكانت تصدر يوم كانت تصدر مجلة (الرسالة) التي ذهبت من وقت طويل..

فلم يكن مدهشاً - بل كان معقولاً جداً - أن تتوقف (المنهل) قبل أن تتوقف (الرسالة) مادام أن حال القراء في مصر لم يشجع على استمرار (الرسالة) هناك، فكيف تستمر (المنهل) وحال القراء هنا ليس أسوأ كثيراً من حالهم هناك.

ولكنها استمرت.. ليس وحدها.. بل زاملتها مجلات أخرى كأنما تنشقّ عنها الأرض بين كل يوم وآخر.. من (الإذاعة) إلى (الرائد) إلى (قريش) إلى (الجزيرة) أخيراً.. إلى (عكاظ) إلى ماقبل ذلك.. والله أعلم بما يكنه الغيب من (مجلات) في المستقبل اذا استمر نجاح الحاضر.. ويبدو أنه ناجح، بدليل أن مجلة (المنهل) ليست متطورة - فحسب - في أعدادها الأخيرة، تطوراً قوياً.. أنيقاً.. معاً في الشكل والمادة.. بل إنها مع التطور قد جازفت بمشروعها الأول من نوعه - والأستاذ عبدالقدوس الأنصاري تصادفه (الأولية) أحياناً، كما لو كانت لقطة سائغة.. في منتهى اليسر والحلال..

إنه مشروع (يوبيلها الفضي) بعد كفاح - المنهل - خلال ربع قرن..

إن هذا يعني النجاح.. فكيف هو ومستوى (المجلة) عموماً في العالم العربي قد هبط كما أظن..

ربما كان مستوى (المجلة) عندنا لم يهبط، وهذا قد يعني أننا مازلنا متأخرين، لأننا نفضل على الصحافة التي هي خفيفة الروح، أدباً ثقيلاً ربما انطمست به بصيرة القاريء وازداد تأخراً..

إنه تأخر لطيف على كل حال.

وأنا أرجح هذا، فإن الأستاذ العطار عطفاً على الأستاذ السباعي، عطفاً على الأستاذ الأنصاري، عطفاً على الأساتذة كلهم أصحاب المجلات، لم يجازفوا غالباً.. كلٌّ بمشروعه- وتصوروا ضخامة (اليوبيل الفضي) وتكاليفه الجامدة، وتكاليف إصدار مجلة حديثة يكون همها التفوق وكسب السوق في هذه الأيام- لم يجازفوا إلا والنجاح مضمون لديهم مائة في المائة.

ولكن النجاح ليس هو اللون المادي دائماً، فربما بدا أن كلّ نجاح الناجح هو كفاحه المستمر، وليكن الهدف قريباً أو بعيداً، غير أن المكافح المخلص لابدّ أن يصل..

إن إيمان المكافح وإخلاصه- كل النجاح.

كلمة أخرى.. وهي : لماذا اختار الأستاذ الأنصاري كلمة (اليوبيل) وهي أجنبية فيما أظن.. وهو ممن يفضلون- إن لم تخُني الذاكرة - مبدأ استبدال الكلمة العربية بالأجنبية كالمذياع بالراديو، والهاتف بالتليفون.. وهو مبدأ ذهب المجمع اللغوي في طريقه طويلاً.. ثم يبدو عليه أنه لم يعد منه حتى الآن؟!

لقد كان في وسع الصديق أن يختار كلمة أخرى بدل (اليوبيل) كالكفاح الفضي مثلاً.. أو العهد الفضي.. أو أية كلمة في وسعه ولاشك أن يحسن اختيارها بدل كلمة (اليوبيل)..

ثم إنها ربما غدت من نفس (الأوليات) التي تصادف الأستاذ دائماً بمنتهى السهولة..

أظنها (قفشة) وأرحب بجواب الصديق، وأتمنى لكفاحه وكفاح كل صاحب مجلة يواصل كفاحه بها - في إخلاص - برغم ظروف الأدب الأخيرة..

أتمنى لهذا الكفاح المخلص أطيب الأماني..

وكل مجلة.. وكل (عهد فضي) جديد بعد المنتظر.. والأدب وهواته بخير..

أين يقف الله؟!

هذا عنوان (حكاية) منشورة في إحدى المجلات العربية.. ولا أكاد أجد متسعاً من الوقت لقراءة القصص غالباً، وإن وجدته فإن في الدنيا إنتاجاً رائعاً منها، أفضل قراءته على ما عداه..

إلا أن العنوان المذكور أعلاه، أغراني بقراءة الحكاية، فإذا هي حكاية فتاة (ظبطها) عمّها، وهي تمشي مع حبيبها في الشارع، فأنكرته ارتجالاً، وهو يتهجم عليها، أو اعتماداً من ذكائها - كما يظهر - على فكرة الشبه.. وسبحان من يخلق من الشبه أربعين.. ونجت بهذه الحيلة، وساء موقف عمها أمام الناس..

ثم ذهبت إلى البيت في الحال، واستبدلت ثيابها.. وعندما جاء عمها وفاتحها وفاتح أباها - شقيقه - بالتهمة، لم يسعها غير أن تواصل الإنكار.. واختلط الأمر في نظر أبيها.. ولابد من حل سريع، فما هو؟

هو المصحف.. والقسم على المصحف.. كما اختاره كاتب الحكاية..

أقسمت هي على المصحف بأنها لم تغادر البيت إلا مع صديقتها، ثم عادت معها إليه.. وأقسم عمها على المصحف نفسه بأنه رآها عياناً في الشارع مع الفتى.. الحبيب..

وإلى هنا.. والكلام ربما كان معقولاً من باب الخيال، أو من باب الواقع.. فما أكثر الكذب والكذابين، والحالفين والحالفات بالكذب والبهتان..

غير أن الذي ليس معقولاً - إذا استبعدنا الانحلال!- هو أن (يقف الله) عمداً بجوار الفتاة الكاذبة ضد عمها الذي ذهب حالاً إلى المستشفى في حادث شلل.

ربما جاز هذا صدفة.. إنما لا يجوز أن تتخذ الصدفة فكرة معناها أن الله وقف إلى جانب الكذب.. والحب.. والفتاة- ضد الصدق.. والحفاظ.. والعم المسكين!

وكأنما تقول فكرة - عدا مافيها من الانحلال- تصلح لأن يعالجها قلم كاتب أو قاص من أضعف الدرجات في فن القصة.. ربما من درجة العوام!

فكرة طابعها الرقاعة!

ثم.. أين يقف الله؟

هل هذا كلام أو أدب يليق.. مهما تحررنا؟

إن التحرر - كما أظن - شيء غير الرقاعة.. وغير هذا اللون من الأدب.. المستعار من أحمر الشفاة!

صخرة الايمان

قرأت في بداية مطالعاتي كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل، فكانت انطباعاتي الأولى متأثرة بأسلوبه على حدّ رأي بعض الأصدقاء من نقاد الأساليب!

وكانت تهمة التطرف أو الإلحاد مسلطة فوق رؤوس أمثال هيكل في تلك الأيام.. وربما كان فيهم أو في بعض إنتاجهم مايلقى عليهم ظل التهمة ولو كظل السحاب الرقيق..

حتى جاء كتاب (حياة محمد) فزعزع التهمة، ولكنه لم يقض عليها، بل لقد ثارت في وجه الكتاب زوبعة أظن أن فيها معنى التهمة نفسها إن صدقتني الذاكرة..

وفي هذا الجو قدم هيكل وزار مكة والمدينة.. ويظهر أن الأستاذ محمد حسين زيدان قال للدكتور محمد حسين هيكل كلاماً حول رأي الناس في دينه في إحدى حفلات تكريم هيكل، فتصدى هيكل للردّ وقال - وأنا أروي من ذاكرتي نقلاً عن الزيدان! - قال مامعناه: إن الايمان في قلبه يشبه الصخرة القوية الراسخة.. مهما تغمرها الرمال من أطرافها وحواليها فإنها ستنقشع عنها في يوم من الأيام، وستظل صخرة إلى الأبد..

تذكرت هذا بعد أن فرغت من مطالعة القصة الأخيرة التي نشرها الدكتور

محـمـد حسين هيكل.. قـصـة امـرأة خلقت هكذا.. أو (هكذا خلقت) كـمـا قـال الدكتور وكما قالت القصة..

امـرأة انعـقـدت في نفـسـهـا عـواطف مـعـينة بعـد أن توفـيت والدتهـا وتزوج أبوها.. ولو قدر لها أن تناقش عواطفها أو أن تجد من يناقش عواطفها لما انعقدت تلك العـواطف وتحولت إلى (عقدة) في نفسها كما حصل، ولكنها كانت في سن النضـوج، وهـو سن الانفـعـال.. والانفـعـال لا يتطلب المناقـشـة، بـل ولا يرتضـيـهـا غالباً.. في مثل هذه السن على الأخص..

وتزوجت المرأة، وكـأنما تزوجت مـعـهـا عُـقَدها أيضـاً، فـأنجبت الأولى طفلين، وأنجبت الثـانيـة عدة تصرفـات عليـهـا أو على أكثرها طابع الشـذوذ.. ورغم أنها أسـاءت ببعض هذه التـصـرفـات إلى نفـسـهـا وزوجـهـا وطفليـهـا.. ثم إلى زوجـهـا الثاني، وإلى بعض أصدقائها من الرجال والنسـاء- غـير أنني لم أشعر نحوها بأي رثاء أو إشـفـاق.. بل لعل شعـوري كـان مزيجاً من المقت والازدراء- أحيـانـاً- وأنا أتابع بعـض تصرفـاتهـا في القصـة.. حتى انتـهـت إلى امـرأة صـالحة أدت فـريضـة الحج.. والزيارة، بل وفكرت في الهجرة إلى هنا لولا علاقاتها بمصر..

لقد ذكـرني هذا الإتجاه الصـالح الذي اسـتـغـرق نهـاية القصـة أو صـاحبـتـهـا بصخرة الايمان في نفس هيكل..

وذكـرنـي أسلوبهـا بأسلوبه في (حيـاة مـحـمـد) وهـو أسلوب لذيذ لا يثـقـل ولايخف، ولا يطول ولا يقصر، ولا يتكلف الرشاقة ولا يزهد فيها.. هو أسلوبه في كل إنتاجه كما أظن، غير أنني ماأزال أعتقد أن (حياة محمد) هو كتاب هيكل الخالد.. إن صحّت أكذوبة الخلود في الدنيا..

بالإضـافـة إلى أن مـقـدمـة (هكذا خلقت) فـيـهـا افـتـعـال واضـح - في رأيي - لحكاية الفتاة التي قدمت له «ملف»!.. القصة في حديقة (مينا هاوس) ليقرأها،

سواء نشرها أو لم ينشرها حسب تعليمات كاتبة القصة التي كلفت الفتاة بحملها إلى هيكل..

وسواء كانت القصة مكتوبة بقلم صاحبتها أو غير صاحبتها فلماذا لم يقل هيكل: إنه عدَّلها بأسلوبه؟

وإذا كان هذا هو المفروض فنياً وإن لم يقُله فإن حركة الفتاة، ومن ورائها كاتبة القصة، في تقديم ملف القصة كما قدمته للدكتور في حديقة مينا هاوس- حركة مسرحية كانت الصحافة أجدر بها من هيكل.

ولكن - مع هذا - قصة القصة كما قالت المقدمة.. ولتكن القصة واقعية، أو ليكن فيها شيء من الواقع.. بما فيه واقع هيكل وبعض أحلامه وأمانيه- غير أن سرد بعض الخواطر في غير مكان من القصة- كان يتحول بالكلام الذي يسردها إلى مايشبه البحث والأسلوب التقريري المركَّز.. مما قد يبعد به عن جو القصة إلى حد كبير..

وأخيراً وأولاً.. لقد كان الإيمان قوياً في القصة وفي قلب هيكل.

ذلك العالم

أحس أن عقلي - أو ما لا أدريه على وجه التحديد في رأسي - يصيبه شيء كالكلل أحياناً.. وأتمنّى حينئذ أن لا أفكر في شيء على الإطلاق، ويطيب لي أن أسترخي - كما أوْصَى ديل كارنيجي - ولو على الكرسي في مواجهة المكتب.. وقد أُغْمِضُ.. أو لا أغمض عيني.. كاندماج عميق في الاسترخاء، إذا «تَرْعَصْ».. فكرةَ - أية فكرة - فيما لا أدري إن كان هو العقل أو أي ملكوت سواه ضمن غلاف رأسي الصغير..

وقد أتصور أن حركة الفكرة معناها ذهاب الكلل، فأتناول أقرب موجود إلي مما تبعثر على مكتبي طويلاً.. باسم القراءة.. ثم يظل بلا قراءة.. ربما إلى الأبد.

وإذا الفكرة نفسها تتحول إلى خطّ الاهتمام والتحفّز لمتابعتها في ذلك الملكوت.. وقد تنطلق أخرى.. وغيرها.. كما لو كانت مجموعة من الديدان الصغيرة نشطت فجأة في حوض ماء قديم.

وإذا الحروف تتجمد أمامي فيما أقرأ، وأظل أُقَلِّبُها على لساني، وذهني بدون طعم.. أو جدوى.. تماماً.. إذا كثرت الأولى - أي المرقة -.. وقَلَّت الثانية - أي المقادم -! كأية «مرقة مقادم».

إنني أتتبع ما في نفسي أحياناً، فإذا هو عالم عجيب لا يسعني غير أن أقفل عليه الأبواب ما استطعت.. لأمارس الحياة..

والحياة ربما كانت هناك.. في ذلك العالم الذي أقفل عليه الأبواب!

الوعي للصحافة

ينبغي للصحافة أن تمضي في اتجاه جديد طابعه الجد والكفاح لبناء المجتمع بناءً قوياً صالحاً..

كما ينبغي لها أن لا تشايع هوى من يحبون أخبار السهرات والقيل والقال، والنبأ المثير، أو من يفضلون أخبار الفضائح.. وأسرار الناس.. حتى التي في البيوت والصدور - على أي خبر ينفع ولا يضر، فإذا تتبعت الصحافة هوى الناس ومزاج السأم والفضول والقلق فيهم، فإنما تنشد الرواج من أسهل الطرق.. هذا إذا لم يكن هواها من نفس الهوى ونفس المزاج!!

والمفروض أن تكسب الصحافة الرواج من أحسن الطرق وأفضلها، لتكون في مقام الريادة الصالحة لإيقاظ الوعي وتوجيهه في جماهير الناس.

إن وعي الفرد قد يكون صالحاً أو على استعداد للصلاح، غير أنه يذوب في وعي الجمهور.. وهو - في الغالب - خليط يغلب الضعف فيه القوة.. وهكذا يشيع الكذب والنفاق، والفضول والخوف.. إلى آخر ما يطفح به الوعي العام!

ولهذا كان حقاً على الرواد أن يكون الوعي فيهم هو الوعي الأقوى ليسحق الضعف.. وكان على الصحافة أن لا تنزل إلى هوى الجمهور، بل أن ترفع هواه للمستوى اللائق بوعي قوي جديد يموت الضعف فيه للأبد..

ربما خسرت الرواج أول الأمر، غير أنها ستكسبه في النهاية إذا أصبح الوعي واقعاً لا مجرد خيال.!

إن بعض العقليات ماتزال تكره الصحافة وتسخط عليها إذا أخطأت يوماً،

أو تدخلت فيما لا يعنيها كما تظن تلك العقليات.!

إنها تتعامل مع الصحافة كما لو كانت في منتهى الطفولة أو التطفل..

والعقاب.. والزجر.. والمقاطعة.. والتعنيف - من أساليب هذا التعامل على الطراز القديم في التربية!

ومما لا شك فيه أن الصحافة قد تخطىء، ولكنها قد تصيب، ولم تسلم صحف العالم - أو معظمها - من الصواب والخطأ في رواية الأخبار، أو في التعليق عليها، أو في أي باب من أبوابها.. غير أن هذا يحدث من الآخرين أيضاً.. ممن ينكرون عليها الخطأ.. وقد يتجاهلون الصواب.!

والكبار.. حقاً.. هم الذين يتسع صدرهم.. حتى للهواء..

والصغار.. حقاً.. هم الذين يَبْدون دائماً على أتمّ الاستعداد للنطّ كلما أخطأت الصحافة أو أصابت..

هم الذين قد يدور في نفوسهم أنهم أكبر من الصحافة.. وأنها أقل دائماً من مستوى الوعي والمشاركة في موكب النهوض والإصلاح.. كأنَّ هذا شأنهم وحدهم.. والصحافة فضول ملؤه العجز، ولهذا ينبغي أن تظل في المقام الأدنى تحت مستوى الكبار.. الصغار.!

إن من حق الناس إذا أخطأت الصحافة أن يصححوا أخطاءها.. أيا كان الخطأ.. في المبدأ، أو الاتجاه.. وأن يحاكموها إذا اقتضى الأمر بالنظام..

فالهدف هو الوعي والتقدم.. وهو واجب ضخم تشترك فيه الصحافة.. وسائر الكبار والصغار.. والتعاون على الواجب حق معناه إصلاح الخطأ وتقويم الاعوجاج.. بالحسنى إذا توفر الإخلاص.. لا بأسلوب تربية الأطفال في الزمن القديم!

إنها عقليات عجيبة..

غير أن الصحافة، إذا اجتهدت وأخلصت، ستنتصر حتماً على تلك العقليات!

من هو الدجّال ؟

من هو الدجّال؟

هل هو الإيطالي الذي قال: إن نهاية العالم تحددت في ١٤ يوليو؟ أو العالم هو الدجال؟!

لقد شاع هذا الدجل في صحف العالم، وجرى على ألسنة الناس مجرى الفكاهة أو الجد.. غير أنهم، على الحالين لم يسلموا من القلق.. في انتظار اليوم الذي قال عنه الدجال.!

ثم روت الصحف والإذاعات هلع الناس في ذلك اليوم.. بل كأنما قتلهم الذعر في أوروبا، ولاذ بعضهم بالفرار.. وهاموا في الجبال.. والكنائس.. واعترفوا بالذنوب طلباً للغفران قبل نسف العالم!

كلهم صدقوا أن شيئاً خاطفاً سيقع ويمحو العالم بأسره من الوجود.. ومع هذا أخذ بعضهم يكتب وصاياه.. ربما للتاريخ.. أو للخلود.. بعد فناء العالم!

وفي الشرق أيضاً شاع نفس الذعر..

تصوروا أن شيئاً منه قد راج عندنا، وأن فينا من خضّه القلق.. ولعل فينا من فضّل جوار الحرم في ذلك اليوم، باسم الأمان من كل خوف في هذا الحرم.!

غير أن اليوم قد مضى كسائر الأيام.. وأظنه كان هادئاً، فإن أي زلزال أو أي خبر عنيف لم يطرأ يومها على العالم الذي هزّه الرعب.!

لقد انخضّ العالم بكل ما فيه من علم ضخم يغزو الفضاء، ويتحدّى المجهول، ويتيه بفتوحاته في القرن العشرين.. سيد القرون والأجيال!

وبدل أن يحاكم الإيطالي، أو يحال للمستشفى كأي معتوه في الدنيا - شاع دجله وروته صحف العالم.. كأي فتح جبار يسحق الدنيا.!

حقّاً.. من هو الدجال؟

الإيطالي.. أو العالم؟!

الذكرى تنفع المؤمنين

مازال بعض الأصدقاء يُنكرون أن يكون عنوان مثل هذا الكلام (ذكرى).

إنهم يتصورون عالم الذكريات فيما أظن، وكأنه المقصود بالكلام تحت عنوان (ذكرى).

والحياة كلها ذكريات يستوي فيها الماضي والحاضر والمستقبل، فكل شيء يتناوله القلم، أو اللسان، أو مجرد الشعور الصامت - يَصْدُق عليه أنه ذكرى مضت.. أو في الطريق! ويندرج أي كلام تحتها بهذا المعنى..

والمعنى الأهم في نظري هو الذكر والاعتبار..

والذكريات قائمة بهذا المعنى أيضاً، بل إن الاعتبار فيها هو الموضوع الخالد.. إلا أننا قد نكره الاعتبار فعلاً، وإن عشقناه اسماً فحسب.. ولهذا أدير وجهي - وأنت أيضاً - عن العبرة في الحادث التافه أو الكبير، ونشعر في نفس الوقت بأنها - أي العبرة - حقيقة بارزة في كل حادث وفي كل تعليق!

إننا في الغالب نحب أن نشاهد الصور والحوادث بإحساس ملؤه الراحة والانسجام.. ولا نحبّ أن نطيل الوقوف عندها للتأمل أو الاعتبار.. وقد نتظاهر بحبها، غير أن السلوك الموجّه في غرائزنا لا يحفل كثيراً بمثل هذا الحبّ أو هذا الرياء!

ولهذا فشلت العظة - ليس اليوم بل من بداية الخلق - إلا فيما ندر.. ولهذا تكررت.. وكـانت بدل العظة عظات لا تنفـد، وإن ضـعـفت الجـدوى، وضـعف الاعتبار..

ولكن الإيمان ينتصر حتماً على مثل هذا الضعف..

الإيمان بالمبدأ الأفضل.. وبالمثل الأعلى..

ونحن في حاجة لأن نبني مثل هذا الإيمان في نفوسنا بعد الذي فقدناه منه في سبيل حب العيش والحياة ليكون أقوى من كل ضعف فينا ضد الحوادث.!

وحينئذ ستتحول العظة إلى طاقة كبيرة في إيماننا الجديد..

ومرة أخرى.. ومراراً.. وإلى الأبد:

وذكِّر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين..

إنها هي الهدف.. بعد الإيمان..

العملاق الكبير

حمزة شحاتة.. اسم يشد إليه الأنظار من وقت طويل يزيد عن ربع قرن!

وقد عرفه الناس قوياً من البداية.. سواء في الشعر، أو في النثر، أو في الحديث.. إلا أنه منذ كان ضد النشر، لا لأنه انطوائي كما قد يقال، فهو اجتماعي بكل طبعه ومزاياه، وإن كان صارماً، يحب أن يضع منطقه على الأرض، ليعيش فيه!

ربما.. بهذا المنطق.. عزف دائماً عن النشر إلا في مناسبات قليلة، لعل آخرها ما نشره أيام كان العريف يرأس تحرير صوت الحجاز، إن صدقتني الذاكرة..

إلا أنه عاش، ويعيش، في أذهان الناس، عملاقاً بارع الفكر، والشعر، والبيان.. حبيباً إليهم إذا كتب، أو نظم، أو تحدث.. أو إذا صادق.. ولم يجهله الصديق!..

وأشهد أنه كان انفعالاً كبيراً.. على الأخص في جيلنا.. يوم كانت حياتنا تجري على وتيرة تُذكِّر بحياة المشّائين.. من طلاب الأدب والفلسفة.. في العصر القديم!..

إنه سيضحك.. كعادته إذا قيل مثل هذا - بأسلوبه الساخر.. العميق.. غير أن اليأس لم يداخلني فيه..

ورجوته أن يكتب.. ولوَّحت - أو لعلّي هدّدت كما قال - بنشر رسائله إليَّ إن لم يكتب.. فإنها تشكل أدباً قوياً ليس هو (على هامش الأيام) فحسب.. بل من أعماقها أيضاً..

وصمت طويلاً.. وربما استغرق الجواب عنده عاماً.. أو نصف عام!.. ثم كتب رسائل ثلاث إليَّ.. أقدّم اليوم منها اثنتين[1] ..

والثالثة في انتظار ما ستزاملها من قلمه الجديد.. وإلا فمازلت عند تلويحي - أو تهديدي كما قال - والسر - إن كان فيها - عليه أمان الله!.

وطال الانتظار..

وظننت أول الأمر أن الأستاذ الصديق حمزة شحاتة قد تأخر - كعادته أحياناً - في الجواب..

ثم اتضح أنه كان سيسافر إلى الغرب يلتمس العلاج وسلامة البصر من طارىء ألمَّ به كما حدثني بعض الأصدقاء..

لقد كان هذا من بواعث القلق.. غير أنني - وقد علمت أنه تماثل أخيراً للشفاء - أرجو أن يكون قد ذهب كلّ ما يشكوه، وتحققت له السلامة وأطيب العافية..

ثم.. لم يكن بدّ من نشر الرسالة الثالثة التي ظلت طويلاً في الانتظار، فضممت إليها رسالة من رسائله القديمة إليَّ، أحسبها تكبر الجديدة بنحو بضعة عشر عاماً، ولم يسعني التحديد لأنها كمعظم رسائله ليست مؤرخة..

وهكذا تقرؤون له رسالتين في هامش اليوم[2].. إحداهما تكبر الأخرى بحكم تاريخ الميلاد..

---

(١) نشرت بالمقال الأسبوعي بجريدة البلاد في ١١/٤/١٣٨٠هـ.

(٢) نشرت بالمقال الأسبوعي بجريدة البلاد في ٢٤/٥/١٣٨٠هـ.

والمهم أن للرسالتين أسلوباً واحداً كما قد أرى أو ترون، رغم أن بينهما مسافة كالتي بين جيلين..

أسلوب بدأ.. واستمر.. قوياً، بارع الصياغة والتأثير..

وإلا فهل في وسع أحد النقاد أن يقول: أية رسالة هي الأولى من الرسالتين..

إنها كلها كسائر رسائله وشعره ونثره - نمط من البيان أوله القوة، وآخره القوة، في طراز من الفكر والخيال والبيان.. هو حمزة وأسلوب حمزة.. العملاق الكبير..

وتمنيت أن يجود الصديق بالرد بعد الصمت.. وبالمقال بعد الرسالة.. وبالشعر والنثر في كل فن ولون..

فقد كان لزاماً أن يسمع الناس صوته.. وصوت كل أستاذ بارع من أساتذة الفكر والبيان..

ودعاء محبيه له معي بالخير والشفاء..

ثم مضى حمزة شحاتة إلى جوار ربّه (يرحمه الله) وقرأ الناس عنه ما كتبه بعضهم.. ولكنه لم يستوعب كل شيء، لاسيما وأن ما نشر - من شعره على الأخص - شيء قليل، والأكثر محفوظ لدى بعض أصدقائه ومحبيه.. كرسائله التي أحْتَفِظ ويحتفظون بشيء منها، ووددت لو تضافرت الجهود لإخراجها، فإنها طراز متفوق في عالم الفكر والبيان.. كشعره الذي علمت أن هناك محاولة لجمعه وإخراجه في شكل ديوان.. ومازالت محاولة كما يبدو!

الأجيــر

السـيـد حسن كتبي أستاذ كبير، غنيّ عن التعريف، منذ كان وسيظل في مقدمة أدباء هذه البلاد..

تفضل وناقشني - كما لو كنت شخص زيدان! - فيما كتبه قبل أيام عن (الأجير) في شخصه العزيز - لصحيفة البلاد).

وقال الصديق: إنه يحتج احتجاجاً صارخاً على كلمة (الأجير) واستعمالها في دنيا الصحافة، فإنها - أي الصحافة - لا تنهض إلا على أكتاف أهل الفكر والقلم.. فما ينبغي وصف أحدهم بالأجير في مثل هذا النهوض..

قلت: ربما كان هذا حقاً.. ولكن وصف (الأجير) إن كان، لا يعيب رجل الفكر والقلم فيما أظن..

إن العقاد - مثلاً - يكتب في صحيفة (الأخبار) ويتقاضى نظير هذه (الخدمة) أجراً مقرراً من أصحاب هذه الصحيفة..

فقاطعني السيد بأنهم - عدا ذلك - يلتمسون (خدمة) العقاد أبرع وأرق وأكرم التماس.. ثم لا ينكرون أنه المتطول، لأن عمل الفكر لا يُقَوَّم بثمن..

وكان في حماسه لكرامة القلم أكبر من النقاش، ثم من ضياع وقت قصير رأيته فيه بعد زمن طويل.. وهذا من (القصور الأخوي) الذي يلوح شبه متفق عليه بين الناس.. والأصدقاء.. في هذه الأيام!

ثم إن الموضوع يعني الأستاذ الصديق زيدان في الدرجة الأولى، فهو أجدر بحومة الجدل والنقاش فيه..

والأستاذ حسن كتبي صاحب فكر.. وقلم ظل محجوباً عن الناس من وقت طويل..

قلت: أرجو أن تكتب ما تقول..

وتفضل.. وقبل الرجاء..

فانتظروا مناقشة كلمة (الأجير) في دنيا الصحافة بأسلوب جزل هو أسلوب الأستاذ الكبير.

تقرير المصير!

تعيش هيئة الأمم ويعيش العالم معها في أكذوبة كبيرة اسمها (حقّ تقرير المصير)!

بالأمس كانوا يبحثون هذا الحق.. ومن قبل بحثوه مراراً.. وهل يُمنح أو لا يُمنح لأيّ وطن تحتله فرنسا، أو أختها انجلترا.. وأخواتها بما فيها إسرائيل.. الولاية الأمريكية المزروعة في قلب الشرق الأوسط..

احتلال كان ينبغي طرده سريعاً، وإلقاؤه في البحر أو في الجحيم، مذ كان ظلماً جائراً لا يستحق الحياة.. غير أن هيئة الأمم أخذت تناقشه بكل أسلوب من نوع (حقّ تقرير المصير) وكأنما الهدف ترويجه على مستوى عال من الرأي العالمي الذي يحتشد عادة هناك.. باسم الخير والسلام!

ومن يدري؟

ربما جاء يوم تتصدى فه هيئة الأمم أو غيرها للبحث في حقّ من نوع (حق النفس) بفتح الفاء.. أو (حق الهواء) أو (حق الماء والطعام) أو أي حق من حقوق العيش والحياة!

حتى إذا تعرض الهواء - مثلاً - للاحتكار في أي بلد محتلّ، وأُصيبت أنفاس أهل البلد بالاختناق أو بأي طارىء سيء من أثر الاحتلال - جاز لهيئة

الأمم أن تعالج الأمر باعتباره حقاً يُمنح أو لا يُمنح.. وإلى أي مدى ينبغي أن يتنفس الناس ويعبّوا من الهواء؟!

إن حق (تقرير المصير) لا يقل عن أي حق كهذا، مفروغ منه، لا يقبل البحث والجدال..

إنه كحق الرجل في داره إذا احتله مغتصب..

إن مهمة السلطة هي أن تُخرج المغتصب في الحال، لا أن تناقش حق صاحب الدار في (تقرير المصير)!

إنها نفس المهمة التي كان ينبغي أن تمارسها هيئة الأمم في كل وطن مغصوب، إن كان الهدف حقاً هو الخير والسلام.. لا إضاعة الوقت.. في الاحتلال.. والأكاذيب!

العلم السياسي

هل ستقع حرب.. أم سلام؟

هذا السؤال يشغل اهتمام صحف العالم.. على نطاق واسع، وبالأخص في مطلع كل عام جديد!

وتتسابق كبريات الصحف في مثل هذه المناسبة إلى الإبراق لمراسليها بأن يبعثوا إليها إجابات وافية على ذلك السؤال، مستقاة من أهم المصادر والأوساط.. في كل مكان!

وهكذا يتحول مجرد السؤال عما إذا كانت ستقع أو لا تقع حرب في العام الجديد – إلى حدث عالمي.. تماماً.. كأي حدث آخر، فيه معنى الكوارث.. أو الفتوحات.. أو معنى الحرب نفسها، إذ تسيل أنهار الصحف بأنباء الحدث – الذي هو مجرد سؤال – وقد تطغى على غيرها من الأنباء.. مع أنها قطعاً، وأياً كانت المصادر العالية في فهم الدبلوماسية، لا تخرج عن كونها مجرد (مزمزة) فارغة كالتي أمارسها أنا وأنت – و(الفصفص) أو الشاي بيننا – لا تعليقاً على ما كان.. بل على ما سيكون.. أولاً.. ما هو؟ ثم ما الذي سيترتب عليه.؟ ولنفترض أن الذي حدث هو كذا.. فماذا تتوقع أن يكون؟ وربما اختصمنا في الإجابة على أسئلة كهذه لا يتفوق عليها – كما أظن – أي سؤال من نوع: هل ستقع أو لا تقع حرب؟

وهذا عدا التنبؤات التي يختص بها الفلكيون وبعض أهل الدجل والحساب،

فـذاك باب من الاهتـمـام بالمسـتـقـبل أسـاسـه علم النجم.. والتنجـيم.. أو علم الشعوذة.. أما الآخر فإنه باب العلم السياسي!

وكـلا البـابين ضـرب من الفـراغ الذي تعـيش فيـه الصـحافـة لإشبـاع هواية القلق.. ولكنها - والحق يقال - مرآة العالم!

بريطانيا . . . العظمى . . . !!

في الحفلة التي أقامتها إدارة الصحافة والنشر، تكريماً للمستر (جون أوزمان) مراسل صحيفة (الديلي تلغراف) في الشرق الأوسط - سألته والترجمان بيننا أحمد سعيد:

- أي عهد في كل تاريخ بريطانيا يراه أحسن العهود ؟

وأخذت أتأمله والأستاذ ينقل إليه السؤال، غير أنني لم أفهم شيئاً يستحق أو لا يستحق الذكر..

ولعلها ملامح الإنجليزي عموماً.. كأنها خرساء، لا تعطي فكرة ولو عن قليل من سجاياه!

حتى ابتسامته تلوح كالابتسامة تماماً، وبنفس الشكل على الثغر.. والشفتين.. والعينين.. والوجه كله أحياناً.. إلا أن شيئاً جامداً فيها يقف، بهدوء، ضد اكتشاف أية ثغرة - ولو كخرم الإبرة - في ذلك الجمود!

وكذلك بدت ألفاظ (أوزمان) وهو يجيب على السؤال باستذكار بعض العهود في تاريخ بريطانيا.. ثم استرجع وقال: إن كل عهد في تاريخها يراه حسناً.. حتى العهد الذي أخذت فيه تتخلى عن المستعمرات، فهو عهد مشرق بمعنى الإنصاف وإعادة الحقوق!!

وهكذا.. يعني أن كل العهود زاهية في رأيه.. بما فيها العهد الأخير!

فسألته عن الشخصية التي يرى أنها - بحق - سدت أو تسد فراغ (تشرشل)؟

قال - والعهدة على الصديق الترجمان!

- إن تشرشل رجل عادي في الواقع.. قائد عسكري صادفه ظرف الحرب، ثم واتته الظروف، واجتازه بنجاح.. ومما لا شك فيه أنه ظرف حرج، ولكنه أقل حرجاً من الظرف الذي صادفه (مكميلان) بعد الهزيمة في (بورسعيد) فلقد صادف انقساماً كبيراً في بريطانيا.. وكان الرأي العام يغلي ضد الهزيمة، والكارثة.. وأسبابها.. عدا الظروف السيئة التي كانت تعيش في اقتصادياتهم حينذاك.. ثم..

ثم إنهم اليوم في توازن وانتعاش طيب، وقد استطاع (مكميلان) أن يحقق لهم ذلك في ظرف قصير.. وهذا، كما أظن، يعني تفوقه على تشرشل في نظر أوزمان.. بينما قرأت في الصحف (أن ريتشارد كروسمان رئيس مجلس إدارة حزب العمال البريطاني قال عن مكميلان أنه ابن ناشر ثري خدم في الحرس الملكي، كل ميزته أنه وسيط مثالي بين رجال الأعمال الذين يمولون حزب المحافظين وبين الأسر الكبيرة التي لاتزال تسيطر على سياسة هذا الحزب، وأن مثله الأعلى هو دزرائيلي المنافق، وأنه محدث نعمة، يشعر بالأمان وهو يملأ وزارته بالنبلاء.. وبأقاربه غير النبلاء!).

وقارنوا بين رأي أوزمان.. وكروسمان.. في مكميلان!

ثم قلت للمستر أوزمان:

- أليس هناك قانون يحاكم به رئيس الوزراء إن أخطأ، وأجرم في حق الناس؟

قال: لا.. ليس في مثل هذا قانون.

ثم لا أدري إن كان هو أو المترجم قد أضاف ما معناه: أن التقاليد وحدها تمثل القانون، ولا يصعب على أي قاض هناك أن يتخذ حكم قاض ذهب في تاريخ انجلترا - تقليداً يُحكم به في قضية مماثلة.. كما قد يصعب اعتبار مثل هذا قانوناً مدوناً بالمعنى المفهوم..

والتقاليد شيء كبير في تاريخ الـ.. الإمبراطورية!

وموضوع الكلام هو (إيدن)..

وهكذا استطرد المستر (أوزمان) قائلاً عن (المجرم العالمي الكبير) أنه أخطأ فعلاً في غزو (بورسعيد) واستبد برأيه في هذا الخطأ.. غير أنه كان يخدم بلاده بما ظنه صواباً، واتضح أنه خطأ فظيع - وخفت أن يقول: وله على الخطأ أجر.. كقاعدتنا! - وأحسبني قلت: حتى ولو جرّ الخطأ لإبادة فظيعة في المدن.. والناس.. والحياة؟!

وأحسبه استطرد بقوله عن (المجرم العالمي الكبير) أن له ماضياً في الكفاح.. لاسيما في الحرب الأخيرة.. وأن حسبه من المحاكمة والعقوبات - بعد الماضي والكفاح المجيد! - أن الناس قد أسقطوه من حسابهم، وأنه قد اعتزل.. وبدا في حكم المنبوذ!

قلت: إن هتلر - أيضاً - وجورنج وجوبلز.. إلى آخر القائمة التي أطلق عليها اسم (مجرمي الحرب) أرادوا - بنفس المنطق - خدمة بلادهم عن طريق الغزو والتوسع.. حتى اشتعلت الكارثة.. وكان منتظراً أن تشتعل يوم (بورسعيد) فكيف ساغ أن يحاكم أولئك، وأن يعدم معظمهم رمياً بالرصاص.. والخطأ في الجريمتين واحد يهدف إلى خدمة البلاد؟

قال: لا.. الفرق في نظام الحكم، فقد كان (إيدن) حاكماً مختاراً يمارس

السلطة على أساس الثقة.. وإرادة الشعب.. أما أولئك فقد كانوا مستبدين.. يحكمون بالقوة..

قلت: لقد كان هتلر يومها معبود لملايين.. ربما في العالم بأسره.. وليس في أمته فحسب..

كان يتمتع بشيء أكبر من الثقة والحب حينذاك.. لاسيما بعد نشوة النصر الأولى، ومايزال إلى اليوم من يحلم به في المانيا.. وربما في العالم!

وتذكرت هنا ما سمعته من (هارتر) الموظف الرئيسي حالياً في مكتب استعلامات برلين.. وكان من قواد الطيران في حرب هتلر..

لقد قال يوم استقبلنا في (بلكونة) بيته المطل على البحيرة، أنهم كانوا قد أحسنوا الظن بحماس هتلر ونواياه، منذ كان ظاهرها الإخلاص والتفاني لمصلحة البلاد، وكانوا يعملون معه بنفس الإخلاص لنفس الهدف، فلما حقت الهزيمة تبين لهم حينئذ ضلال الزعيم، وخطأ الثقة!

وبئس الهدف أن تُسحق الشعوب باسم الطغاة وأهداف الطغاة.. حتى إذا مزق الله شملهم تلمسوا الدجل في الاعتراف بتعاسة الضمير، والتمسوا الفرق بين الحكم الديمقراطي.. والمستبد.. والجريمة واحدة، والمجرمون كلهم سواء في الخزي والعار..

كان حقهم - لو أنصفت الشعوب - أن يحاكموا وأن يعاقبوا نفس العقاب.. رمياً بالرصاص.. لا بالإنسحاب واعتزال الحياة!

وتكلم المستر (جون أزومان) وقال ما لا يحضرني تفصيله الآن.. غير أنه في حدود ما سبق..

وبريطانيا (العظمى!) في هذا الكلام ونظائره، لا تحتاج - مطلقاً - لأي تعليق.

إنحـراف الكـلمة

أيّاً كان الوارد في (لسان العرب) أو أي مرجع من مراجع اللغة، فإنه يثبت - كما أظن- أن كلمة (تخطيط) عربية الأصل والاشتقاق.. كما أن استعمالها لمعنى (الخطّة) أو البرنامج شيء جديد، إلا أن قواعد اللغة تسمح به ولا تأباه..

بقي أن هناك كلمات قد تتخذ صفة (أولاد الحرام) إذ تكون عربية في أصلها وفرعها، غير أن طارئاً، كالرجس والإثم، يطرأ عليها، فإذا هي تتحول إلى وباء!

من ذلك كلمة (اشتراكية) أو (شيوعية) فإن كلتيهما صحيحة مائة في المائة.. من (اشترك) و (شاع) ولك أن تطلق كلاً منهما على كل حالة فيها معنى (الاشتراك) و (الشيوع) لولا أن الأمر قد خرج فيهما عن دائرة الجواز لغوياً أو عدمه - إلى دائرة أخرى كأنما تعاقب الكلمة فيها بالتجمّد على الانحراف الذي جرت في مجراه البغيض.. تماماً كالعار المهتوك في قصة أولاد الحرام!.

ولهذا يتعذر على أقلامنا أن تدير إحدى الكلمتين في أي معنى تدل حقاً عليه بعد العار الذي تجمدت فيه!

وقد ظن الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار أن كلمة (تخطيط) من هذا العار أو ذلك الانحراف.. وهو ظن قد يخطئ وقد يصيب فيه الإنسان، فوددت أن لو جرى الكلام من أساسه في هذا المجال بالأسلوب المناسب لفهم الخطأ والصواب، ما

دام الإخلاص للأصلح هو الحافز الحقيقي للفهم والملاحظة- لا أن يتطور، وينتقل من مجاله، إلى جدال لغوي موضوعه الحرف والكلمة، ونص (لسان العرب) أو أي نص كان!

إن ما يشغلنا ويشغل الناس أكبر حقاً من الجدل، والمهاترات حول التوافه..

واستغفر الله للنقد الجارح وأسلوب الغوغاء فيه..

لقد وجب أن نكون فوق هذا.. من زمان..

المصحّحون (١)

من وقت بعيد والأستاذ عبد المجيد شبكشي وبعض أصدقائي (يَزِنُّون) عليَّ أن أكتب (ذكرى)..

ولعل الأهم هو أن أفكاري كانت (تَزِنُّ) نفس (الزَّنْ)!

ويبدو أنه على شعور الكاتب أو عدم شعوره بتفاهة ما يكتبه- يرتاح إلى أن يفرغ بعض ما في أعصابه على الورق.. ولعل هذا هو سر (الزَّنْ) من نفسي على نفسي قبل أبي المجد.. وبعض الأصدقاء!

وما أزين بهذا شيئاً مما أكتب، ولكنني أذكر الواقع فحسب، مع إضافة أنني اشترطت على رئيس تحرير (البلاد)، وهي الصحيفة التي كانت موطن (ذكرى) أن تسْلم طباعتها من الأغلاط التي تثير الحماقة، وتكرِّه - بتشديد الراء- ما يُنْشَر لصاحبه إلى حد يقرب من السخط العام ضد الصحيفة وكل من فيها- والمصححون في المقدمة! - بل ربما ضدّ الحياة!!

واشترطت شروطاً أخرى.. في مقدمتها أنني لا أستطيعها يومياً، وإنما بالتيسير .. إلى آخر ما اشترطته ووافق عليه عبد المجيد، كما وافق على التوقف إذا اختَلَّ شرط منها، مع البحث عن موطن آخر لها إذا أردت.

وأكرر مرة أخرى شعوري بتفاهة ما أكتب، غير أن هذا لايمنع الاشتراط منذ كنت هكذا... باسم الله ما شاء الله.

المصحّحون (٢)

في (ذكرى) و (هامش) يوم الأحد ثلاث عشرة.. أو أكثر.. من الغلطات.. بعضها نحوي، وبعضها لفظي يتفكك به المعنى.. أو لايستقيم اطلاقاً.. تصوروا كلمة (ضد) إذا تحولت إلى كلمة (من) في سياق العبارة.. وكلمة (يسهم) إذا صارت (بهم).. وكلمة (الذي) إذا صارت (أن)..

وهكذا.. إلى آخر الأخطاء..

ولا أدري إن كان الناس يتصورون أو لايتصورون مقدار غيظ الكاتب وسخطه إذا جاء فيما كتبه أي خطأ أو تحريف..

إنني أحسّ كما لو كان شيء خطير قد انهدم في نفسي، أو على رأسي أحياناً.. ثم يبدو التصحيح بعد الخطأ شيئاً فارغاً لا قيمة له، منذ نَدَرَ أن يرجع القارئ إلى ما سبق أن قرأه بفكرة التصحيح!

والمسألة في نظري مصدرها (الرقاعة) في شعور الموظف - أيّاً كان- بمعنى المسئولية وواجبها كما ينبغي أن يكون..

وقد لايخلو الأمر- بالإضافة إلى (الرقاعة) - من لؤم يلوح أنه طبيعي في غرائز البشر، ربما كان طاهراً من الحسد.. أو من نوازع السوء عموماً.. إلا أنه يظل لؤما- هكذا.. لوجه اللؤم!- في أعماق ما يسمونه (العقل الباطن) ثم يتسرب

ضد الآخرين.. في شكل (تفليت) للأخطاء، وكأنها بدون قصد.. بينما القصد هناك تحت الأعماق!

وإلا فبماذا تفسر- أنت وأنا - وقوع أخطاء في شيء يصحح، ويعاد تصحيحه.. وليس في التصحيح أي اشكال.. أو عناء!

ربما كان علاج مثل هذه الحوافز شيئاً كالحب والاحترام معاً، يشيعه الرئيس في نفوس مرؤسيه.. بلباقة يتعهدها دائماً، ولايتركها لعامل الثقة، فإن النفس الإنسانية سريعة التحول، وفي أتم استعداد له كل حين.!

غير أن الكتّاب لادخل لهم في المرض، أو في علاج كهذا.. وراء النفوس.. والآلات.!

فإلى أن يتم العلاج.. والشفاء.. لاتلوموا أي كاتب إذا فضل سياسة الصمت.. والابراج..

إنها أفضل حقاً من عناء كهذا يعانيه مع نفسه.. ومع القراء.. ثم مع جهاز التصحيح أو التحرير!

وما الجدوى؟

باطل.. وقبض الريح!

المصحّحون (٣)

لعلّ - المصححين- في دُور الصحف لم يأخذوا حقهم من الإنصاف والتقدير.. حتى لقد يلوح أن بينهم ما يشبه الإتفاق الصامت على أداء الواجب بأسلوب من يقول إن: (المشقّة على قد الأجر).

وكأنما كان استمرار الأخطاء المطبعية - وما إليها- في الصحف- من باب الاحتجاج.. والنقمة معا..

غير أن النقمة - مع الأسف- تنصبّ غالباً على الكتاب الذين قد يبلغ الغرور بهم حدّ الرجاء في أن تسلم كتاباتهم من أي خطأ ولو من قبيل (خرم الإبرة) فإذا الذي بها ليس هو (الإبرة) أو (خرم الإبرة) بل مصيبة الخلط.. حتى يبدو كأنهم - أي الكتاب - (يدردشون) أحياناً.. أو كأنما يقولون كلاماً عليه ما يشبه المس.. وهو ضرب من الجنون.. حفظكم الله.

إنني أقدر ظروف المصححين إن شعروا بالغبن، وأقدر أهميتهم للصحافة.. والنشر عموماً.. فعساها أن لاتقل عن أهمية رئاسة التحرير، منذ كان في وسع المصحح أن يحول جهود الصحيفة كلها إلى مجرد هباء.. أو حبر ملطوش على الورق!

لو كنت من أهل الصحف لأنصفت المصححين، ورفعت المتفوّق إلى رتبة رئيس تحرير.. ثم عاقبته على الخطأ بالحسم، وشددت العقاب.. وهو حر في أن

يقـبض الأجر بالوفـا ء والتـمـام حينئـذ.. أو أن يهبط بـه- بعـد الخطأ والحسم- إلى الرقم الذي يحب.. فالعقاب حق بعد الإنصاف.

من يدري..

ربما كان المصحح مظلوماً، ولهذا ينتقم من كتاب لاحيلة لهم إلا الكلام الذي يظلمه المصحح.. كأنما ليرفعوا الصوت بظلامته.. وها قد فعلت.

انصفوا المصححين.. وأرفعوا رتبهم إلى رتب رؤساء التحرير!

العالَم في (قِدرٍ)

في العالم - كما يبدو - لهفة عجيبة على الأخبار أيا كان موضوعها، ولهذا طغت مادة الخبر في الصحف الكبرى على ما عداها، منذ كان الهدف اشباع فضول الجمهور وتزويده بأية معلومات جديدة تتسابق إليها الصحف لتروّج ولتضرب الرقم القياسي في التوزيع، ولم يعد يهمها أن تحقق الخبر بل يهمها أن يكون مثيراً في مادته ومفاجآته، وفي رنينه ووسطه الذي يعش - أو يتناسل!- فيه..

المهم أن يكون خبراً (تسيل) بذكره الركبان، والشعوب، والناس كلهم إن أمكن..

وبعد الخبر يأتي التعليق، فيتناوله من البداية ومن بواعث الخبر ومقدماته.. إلى واقع الخبر ومظاهره.. إلى دلالاته البعيدة أو القريبة على تطورات المستقبل.. إلى غير ذلك مما تتفاوت فيه براعة المعلقين..

وباب الخبر والتعليق على الخبر مفتوح للجميع منذ كان في وسع أي أحد من الناس أن يعلق وأن يبحث سياسة العالم بالجملة، وبالتفصيل.. والمصادفة- غالباً- هي التي تشكل براعة التعليق، وتحدد اعتباره وقيمته في الأوساط، ثم تخلع على بعضهم اسم كبار المعلقين، تمييزاً لهم عن صغارهم، كأية ألقاب أخرى ترسل جزافاً في هذه الأيام..!

ويبدوا لي أن التعليق مهنة الكسالى، أو لعل هذا يصدق على مزاجي إذا لم

يطب لي أحياناً إلا أن احملق في الفضاء ببلادة، وإلا أن أتنفس وأسمع صوت أنفاسي يتردد بانتظام.. فقد يستهويني - حينئذ- أن أفكر في سياسة العالم، وأن أتتبع أخباره بشيء غير قليل من الكسل.. والاهتمام..!

ويروقني أن أبدأ من الشرق - مثلاً - فأتساءل عن الذي فيه.. ما هو على وجه التحديد؟

ويخطر لي أن أقلب الأمر على وجوهه كما يفعل المعلقون السياسيون، فأرسم خط السير بين المشاكل التي يعيشها الشرق من وقت طويل.. ثم أشعر - تدريجيا - بأنها قد اتصلت بالغرب أو بمشاكل الغرب، وبأن الغرب لا استقرار فيه أيضاً.. وإن بدا كالمهيمن على سياسة العالم وأعطى لنفسه هذا الوهم.. أو هذا الصولجان..!

ثمْ.. ثم.. أتخبط من الشرق إلى الغرب.. أو بينهما.. وأحس كأن خيوط هذه المشاكل أخيراً قد تجمعت لدي وأنا اختصر العالم كله وأتصوره في قِدرْ - بكسر القاف- قِدرْ كبير يغلي على نار المشاكل المستمرة هنا وهناك، وفي كل مكان من العالم، ونار القلق الذي يعانيه هذا العالم.. ويسأل دائماً:

- ماذا حدث؟.. وهل ستقع حرب؟

وقد يبلغ به التوتر إلى حدّ أن يقول: ليتها تقع.. والسر هو الأزمة الطاحنة التي يعانيها كل من يعيش في قلق..

ومشاكل العالم لاتنتهي.. ولكنها تتطور.. قد تنحل- مثلاً- مشكلة برلين والمانيا الغربية والشرقية، ثم يبدأونها - أي المشكلة- كما لو ابتلعتها الأرض في ألمانيا، لتخرجها في الأرجنتين - مثلاً - أو في الصين.. أو في أية جهة من الأرض، فالمهم أن تظل كالحية أو الثعبان.. ينبت رأسها هنا.. ويتحرك ذيلها هناك..!

والمهم أن لاتنتهي الأزمة أو المشكلة أو الحرب الباردة وأن يظل العالم بأسره كأي مريض يتنقل المرض في أطراف جسمه وفي غير مكان معين منه، بينما يبذل الأطباء جهدهم للقضاء عليه.. ثم لايقضي إلا على المريض..

وكذلك العالم فيما يلوح.. وهذا ليس جديداً عليه منذ كان الصراع هو طريق الظفر والانتصار..

ورغم كميات ضخمة من السنين التي مضت، وكان المفروض أن يتطور الإنسان فيها إلى الأفضل والأرقي، وأن يكره الصراع وهو أسلوب البدائية الأولى - لقد ظلت- البدائية التي تمثل غريزة الحيوان المفترس كما هي في دمه.. وفي أفكاره أيضاً، وإن بدت أساليبها مصقولة تتخذ اسم (الحرب الباردة) ومظاهرها المهذبة في شكل اجتماعات تعقد بين الأقطاب، أو قرارات تصدرها أية لجان علمية أو دولية.. موضوعها «نزع السلاح» أو استخدام الذرة لأغراض السلم!.. أو أية (دردشة) ينصت إليها العالم بقلق واهتمام وإن كان هذا لم يمنع قط أنها مجرد (دردشة) تتبخّر من هنا ليتحرك السلاح من هناك.. والذرة معه.. ولو في شكل تجارب..!

ومن العجيب حقاً أن صوته إذا تحرك - أي السلاح- في بلاد كالجزائر مثلاً، أو التبت، أو شمال جنوبي أفريقيا، لم تغفل عنه الهيئات الدولية - والحق يقال!- بل تضعه موضوع الاهتمام البالغ، وتسهر الليالي والأيام، لاتخاذ قرارات حاسمة فيه.. وربما طار الأقطاب أو انصاف الأقطاب من لندن إلى واشنطن.. إلى جنيف.. إلى .. أية جهة في العالم لأهمية اتخاذ قرار معين في قضية بدأت تتخذ طابع الاثارة إلى حدّ احتمال نشوب حرب عالمية كبرى بسببها.. وربما صدر هذا القرار في نفس اللحظة التي تتحول القضية فيها إلى اتجاه آخر فيه معنى المفاجأة أحياناً، أو المغايرة لخطط القرار إن كانت.. هذا مع التسامح الكبير في تبديد ما

لايعد ولايحصى من النفقات، ما دامت في سبيل السلام وصيانة الشعوب من أخطار الحرب!..

وكلما مرت زوبعة كدّرت جوّ السلام فيما يرى المعلقون السياسيون، ثم صحا الجو مرة أخرى، بلع العالم ريقه وأخذت دوامة القلق تجتاحه من جديد.. وتمضي نفس التكهنات والأسئلة والاستنتاجات في أعصابه ليمضي معها على أنغام (الحرب الباردة) فيما يشبه الرقص على المزمار) في الأيام القديمة.. وفي المناسبات!

أما القصة نفسها.. قصة الحرب الباردة.. والساخنة.. وقصة (القِدرْ) الذي يلوح أن العالم يغلي فيه، فربما كانت آخر شيء يتصوره العالم بعقل من ينشد الحقيقة. ويلتمس فهمها..

إنه يبحث.. ولكن في عمى أو غباء شديد، ولهذا لم يفهم إلى الآن أكثر من أنه في (قِدرْ) يغلي.. ولكن على نار هادئة.. فقط.. وإلى أن يأذن الله.

خطّة الحيــاة

عندما يسمع أحدنا - نشرة الأخبار من أية إذاعة.. قد لايسعه غير أن يدور في دوامة من القلق والتوتر.. ليس لحساب هذا العالم الذي تتفاقم الفتن فيه والمشاكل وتتلاحق يومياً، وفي غير مكان من العالم، وإنما لحساب نفسه إذا خيل إليه أنه سيء الحظ لأنه وجد في هذا العالم أو في هذا الجيل!

غير أن من يتذكر الحقيقة يستريح ويريح نفسه من عناء كبير، وهي أن الحياة ماضية في خطتها كما أراد لها خالقها من الأزل، ولذلك فإن ما يحدث من المشاكل وما يتفاقم من أمرها ومن أمر الفتن إنما هو شيء من تلك الخطة لابد أن يكون لتتّابع فصول الحياة!

وهذا بالطبع من قديم الزمان، فلم يحدث أن ركدت المشاكل وسَلِمَ العالم منها ومما تجره في ذيولها ليتخذ العالم شكلاً آخر بين كل حين وحين.

وبالطبع أيضاً أن الخير والشر هما مدار الحركة دائماً وظاهر العالم يشير إلى الخير والعز الذي هو ماض إليه بالعلم وفتوحاته الكثيرة.. أما باطنه فما أظن أنه كذلك.. ويحفظنا وإياكم الله!

فلسطين الضائعة

ذهبت يوماً إلى مخيم من مخيمات اللاجئين المشردين من فلسطين التي أضاعها قومها، ومازالوا يضيعونها بكلام كثير ضائع في الهواء!

كانت هناك قرية صغيرة، تبدو مبعثرة كيفما اتفق.. وكأنها كانت كذلك لغرض الهجرة المؤقتة، لا لغرض الاستيطان!!

وتوقفت بنا السيارات عند بوابة المدرسة التي كانت هناك.

وتواثب إلينا أهل القرية وفي ملامحهم خليط من الفضول، والحرد ، والبؤس.. وأحلام العودة!

وشيء آخر له رائحة وصوت وكيان، أحسسته شائعاً على الوجوه، وفي جو المدرسة وفصولها.. وفي كل ما حوالينا.

شيء يقول:

(أنا فلسطين الضائعة)

ورَدَّدَت هذا المعنى أناشيد الصغار والصغيرات: بجوى المغلوب الطريد من دياره وحنينه إلى خيال دياره كل يوم في قرى اللاجئين!

واستقلّت طفلة بنشيد أخذت تلقيه وعلى ملامحها نفس المعاني التي بدت على ملامح الكبار.

واختنق صوت أحد المعلمين بالدموع وهو يلقي كلمة تفيض بالأسى وبالأمل المقهور في العودة.

ورحب بنا بعض المعلمات، وكأنما يمسكن شيئاً من الجوى المغلوب في ابتسامة مريرة ملؤها الشجن واللهفة إلى العودة.. والانتقام.

ابتسامة محروقة تواري الانفجار.. في مواجهة أصدقاء!

وتذكرت أطفالي وأطفال كل أسرة تعيش في بيتها ووطنها قريرة العين.. وهناك في غير مكان من العالم رجال ونساء وأطفال يعيشون على أعصابهم في جحيم الانتظار...

انتظار العودة...

واخْتَنَقْتُ بالدموع والكلمات، أو هكذا أحسست كالآخرين، غير أن قصة الدموع والكلمات قصة عرفناها بالخيبة من وقت بعيد.

نحن في حاجة إلى إيمان قوي صحيح بديننا الحق.. في طريقنا إلى فلسطين!

محنــة القــلم (١)

هل في وسع الكاتب أن يكتب انفعالاته كما هي؟

ربما كان في وسعه حقاً إذا لم يكن ما يمليه أو يكتبه للنشر.. أما إذا كان سيواجه به الناس في صحيفة أو كتاب أو أية وسيلة من وسائل النشر والإذاعة، فإنه قد يتعذر عليه الرواج، وقد يتعذر استمراره أيضاً إذا هو أراد أن يظهر حقيقة انفعالاته اليومية بما فيها التي على سطح النفس، فضلاً عن التي في الأعماق ولهذا يدور الكاتب طويلاً حول نفسه للبحث عما يستطيع أن يقدمه للنشر مع تحري ما يمكن من الصدق فيه.

إن هذا يزعج إلى حدّ المضايقة والكرب أحياناً، منذ كان الأسهل والأقرب للتناول هو ما ينفعل به الإنسان لا ما يفتعله.. أيا كانت درجة الحرارة أو التأثير فيه.

إنني على سبيل المثال قد تهزني حادثة أو رواية معينة، وأحس أن الانفعال بها يجري على قلمي ويسبق إليه.، ثم يقف الانفعال بأية تأثرات خاصة تجاهها كالجبل في وجهي، فلا يسعني غير أن أتجاهلها وأن أبحث وراء غيرها مما لايضايق سواي!!

ومع أن رضاء الناس كلهم أو ارضاءهم غاية لاتدرك كما يقال، غير أن بعض الشر أهون من بعضه على أي حال.

إنهما محنة قديمة كما أظن.. محنة الكاتب أوالشاعر، أو الفنان عموماً، بين الانفعالات وبين ما يطيب أو لايطيب منها، وما أحراه إن لم يصادفه حظ طيب يجتاز به مثل هذه المحنة أن يطوي شراعه في بحر الصمت!

ومحنة أخرى تجري بها أقلام بعض الكتاب والشعراء.. تلك هي محنة المبالغة..

المبالغة التي يحاول الكاتب أوالشاعر أن يصور بها شعوراً معينا من مشاعر الحب أوالحزن، مثلاً، فإذا هو يخرج عن الشعور وعن ظله أيضاً إلى مبالغة حمقاء لا تُفهم أو لايمكن تصورها حتى من زاوية الخيال إلا على أنها شطحة ضلّ بها القلم.. هذا إن كان من أهله المعتبرين!

والمبالغة عنصر من عناصر الكلام منذ وجد عنصر الخيال في محتوانا الإنساني العجيب، ولكن على أن لا تشطح الصورة أو تبدو كخيال المجانين.

قد تهضم أنت أو أنا أن يقال عن أي رجل عظيم: أنه منار أو منارة يستهدى بها في العاصفة الهوجاء والليلة الظلماء.. أو أي قول كهذا مبالغ فيه.. ولكنني لا أدري كيف يمكن أن نهضم قول من يقول عن هذا الرجل أو غيره من الرجال: أنه أكبر من الحياة وأكبر من الموت أيا كان الحزن أو الفرح أو الرثاء والتمجيد.. بل أيا كان كفر من يقرأ أو يسمع شيئاً كهذا القول؟ [1].

إن من يؤمن بالله يعرف جيداً أنه ليس هناك أكبر من الحياة ومن الموت إلا خالق الموت والحياة ومن يكفر به لايتصور بحال من الأحوال أن أي مخلوق كان يمكن أن يكون أكبر من الحياة ومن الموت، لأنه كان حياً، ولأنه مات، فكيف يمكن أن يكون أكبر من حقيقة قد استوعبته أولاً وأخرى قد استوعبته أخيراً؟

---

(١) قائل هذه الكلمة هو محمد حسنين هيكل عن عبد الناصر بعد وفاته - في صحيفة الأهرام بمقاله الأسبوعي المعروف (بصراحة).

ولكنها محنة المبالغة إذ تلتمس قعقعة العبارة والألفاظ - ولو على حساب المعنى واستحالته- ويدوخ القارئ إن لم يفهم!!

ونعوذ بالله من مبالغات كهذه لاتستقيم على الإيمان.. ثم لا تستقيم أيضاً على الكفر.

كما نعوذ بالله من الكفر وأهل الكفر والعناد.

وتطلّ محنة أخرى - وكثيرة هي مظاهر محنة القلم- فيما تقدمه بعض الصحف والمؤلفات من كلام ما فيه إلا (المكياج) الذي يبرق على بعض ألفاظه وتعابيره، كما تبرق الأصباغ على الوجه الذي يلوح تحتها خالياً من أي مفهوم!

وأدير رأسي في السطور فأحس ما يشبه العجز عن الفهم بين صورة مشوشة في عبارة، وخيال مبعثر في أخرى وكلمات تشبه (الرقع) المزركشة في أي (بنطلون) من آخر طراز في القرن العشرين!

وأحس أن الكاتب أو الشاعر يريد أن يقول شيئاً ولكنه لم يفهمه أو لم يحدده في نفسه، فكيف يفصح عنه إلا بألفاظ تنساق على قلمه كيفما اتفق.؟ وقد ينخدع هو قبل غيره بأنه قال شيئا ما، وقد يهتز القارئ من باب العدوى، أو المشاركة في الانفعال بقعقعة ألفاظ تبدو كالمنتقاة أو كقعقعة الموسيقى الصاخبة في رؤس سمار آخر الليل.. في نواديه المعلومة!

وربما كان الشاعر أوالكاتب على علم واحساس نابض بما في نفسه، ولكن رصيده من اللغة والقدرة على التعبير بها رصيد ضعيف يتخبط به في أداء ما في نفسه طويلاً، ثم لايفلح إلا في تحريك خيال القارئ واجتهاده، إذا ثابر على القراءة، ليتبين ما أراد أن يقوله مثل هذا الأداء، ويتبين في نفس الوقت، إن كان من العارفين، مدى العجز في رصيد القائل من اللغة والبيان..

وبينما المكتبة العربية طافحة بكل ما يعود على القارئ بالجدوى والحصيلة النافعة وبأقلام الغابرين والمعاصرين - غير أن جانبا منها يطفح أيضاً بما تحدثت عنه.

وفي الناس من يخدعهم (المكياج) وتريح أعصابهم الموسيقى الصاخبة.. ومن يرتاحون لضعف الكلام وطراوته وعدم إعرابه لأنهم، غالباً، من نفس مستواه!

وأخيراً - لا آخرا- قد يتحيّر الكاتب في اختيار موضوع الكلام.. ويبدو حينئذ كالطائر السريع فوق مجموعة من الصور.. يتخطاها، ولايمسك منها إلا ما يمسك من الهواء!

وكما تنتقل الطائرة من خليج لآخر.. ومن وهاد لأخرى.. أو إلى سلسلة جبال.. وصور.. وراءها البحر، أو الصحراء- أشعر بأنني انتقل نفس الانتقال بين أفكاري.. في منتهى الصمت والحيرة..

أتصور محتوياتها، وأمر بشيء منها مر الكرام، باسم أنها تافهة، وأمر بالباقي نفس المرور، باسم أنها باردة أو غير مؤثرة..

أتصور الأزمة، مثلاً، كموضوع للكلام.. ثم انتقل في الحال لأفكار أخرى موضوعها الرجل أو المرأة.. أو الغضب.. أو دنيا الحب.. والكره.. ثم أتذكر حالة في المجتمع.. أو خيالاً هائماً في أطراف لبنان.. وأظل في حالة انتقال سريع كهذا، أو كانتقال الطائرة من صورة لأخرى.. تحتها.. على الأرض.. والبحر.. وقد تلوح صور كهذه تافهة أو باردة.. والحق أن التفاهة أو البرودة، ليست في الصورة بل في أفكاري، وإلا فإن أي موضوع في الدنيا صالح للكلام إذا انفعل به الكاتب، وأحسن أداء الانفعال.

إن أفكاري - وأفكارك أيضاً - هي التي تلوح تافهة، أو باردة في الانفعال بأي موضوع..

ربما صدق الكاتب ولم يكذب، على ندرة الكذب، إلا لأسباب أهمها الحياة!

غير أنه إن صدق قد لايسلم من العلك.. أو منّ (التجويك) ضمن قالب من الثلج.. ذلك لأن انفعاله كان في صدره بنفس العلك و(التجويك) ونفس الثلج!

وددت أن ينقد الكاتب نفسه.. قبل أن ينقده الآخرون!

محنــة القــلم (٢)

يطيب لي أحيـانـاً أن أكـتب إذا انـتصف الليل، واسـتلقيت على الفـراش لأنام.. يكفي أن تدور أية (مـزمـزة) داخل نفـسي لأنفـعل وأتحـمس، وأتصـورها كلاماً يقطر منه البيان والسحر الحلال، فيما لو كتبته على الورق.. وأنا ساعتها حريص على الانفعال بالنعاس وإراحة الجسم المكدود، فـيثقل علي أن أهبط من السطح، ومن التـهـويم في سكون الليل، ودنـيـا القـمـر والنجـوم.. والفـضـاء.. والسمـاء- إلى حيث أكـتب وأسجل (المزمزة) الطارئة.. ثم .. ثم يندر أن أتذكر مادار في نفسي البارحة، وإن تذكرته وحاولت أن أكتبه، فكأنما أحاول إيقاظ ميت!

وقـد يخـتـرع لنا العلم- النشـيط في هذه الأيام- أي اخـتراع جديد يـتمكن به الإنسان من تسجيل أفكاره وهو صامت، أو مستلق على السرير.. أو في أي موضع آخر لايكتب فيه بيديه، بل بواسطة جهاز التسجيل المخترع..، بحيث يكفي أن أعلقه على المسـمـار مثلاً، وأربطه إلى الجهـة المعـينة التي تدور فـيـهـا الأفكار، إن كانت هي رأسي أو صدري أو مادون أو فوق ذلك- بحسب التعليمات الفنية التي سترافق اختراع الجهاز.. ثم أتركه يسجل.. وأواصل أنا نشاطي في حقل آخر إن أمكن!.

إنه جهاز عظيم يغني عن القلم ليـته يدركنا قبل أن تسـتحيل البقـيـة الباقـيـة من أفكارنا إلى (خردة)!

ولكن هذا الجهاز سيكون مصيبة، لأنه سينقل خواطرنا على علاتها بدون أي تنقيح أو تهذيب، إلا إذا استطاع العلم النشيط أن يضيف لاختراعه وسيلة تتحكم بها فيه كما نتحكم في أقلامنا.. إذا نقسرها أحياناً على الكذب.!

محنة القلم (٣)

أحس أحيانا أن الكتابة ثقيلة علي، حتى كأنها فوق طاقتي، وقد أتجاهل ذلك لأكتب، فأستثقل القلم، وإذا هممت أن أطعنه على الورق، وأديره بما في رأسي، خيل إلي أنني اعتصرها بدون جدوى، وأن حركة القلم على الورق مرهقة كحركة الجبل..

وربما توفرت الرغبة في الكتابة بأسبابها المختلفة، وربما خطرت لي خاطرة أحسبها رائعة.. وأتمنى أن أكتب، فأحس كأن شيئاً في داخلي يسخر أو لايسخر، ولكنه يبث في نفسي الطمأنينة، لأن مثل هذه الخواطر الرائعة ستلبي ذاكرتي عند الطلب، فلماذا أكتبها مرهقاً ما دامت لن تموت؟ وأطمئن فعلاً ثم أنسى كل ما سبق، وأحس أن الذي ملأ نفسي بالطمأنية، يمدّ لسانه ويسخر..

وأتوق أحياناً إلى الكتابة، ولكنني أحس أن التعبير الملائم عن أفكاري لم يتيسر معي.. والتعبير - إذا لم يكن ملائما- قد يدل على المقدرة، ولكنه لايدل على البيان، وهو يعني أن الأفكار لم تنضج.. إن نضوجها يضعها حتماً في التعبير المناسب وحينئذ ما أيسر الكتابة، لأنها ستكون عملية نقل من لوحة إلى لوحة.. إنها ستكون جهداً آلياً فقط.. ولكنني قد أحس في هذه الحالة أنها - أي الكتابة - عمل ثقيل..

من يدري..

ربما كان السبب هو الهدف.. لو كان صحيحاً لهان في سبيله كل جهد..

إنه لن يكون جهداً عندئذ..

سيكون لذة..

سيكون كفاحاً متعباً، ولكنه ممتع.. إذا صح الهدف.

محنــة القــلم (٤)

قد يبدو مملا أن يكتب الإنسان كل يوم..

إنها - أي الكتابة - عمل لا يخلو من المشقة، كأي عمل تمارسه بأي طرف من الأطراف.. أو بمجموعها إذا اقتضى الأمر!

ولايهوّن - بتشديد الواو- عملية الكتابة أن الأصابع هي التي تمارسها- أو بعضها- فحسب، فالحق أنها ليست إلا المظهر المباشر لحركة القلم على القرطاس..

غير أن اليد الواحدة، بل واليدين أحيانا، بالإضافة إلى الذراع من أعلى الكتف إلى الأصابع.. وإلى رأس الكاتب أيضاً- تظل كلها في حالة شغل مستمر إذا كتب الإنسان.. ولهذا قد يحس طعم التعب والمرارة في أعصابه، وربما في حلقه، إذا كتب كل يوم.!

وقد يظن حينئذ أن (الموضوع) غير موجود، مع أنه لاينعدم إطلاقاً، فكل شيء في الدنيا (موضوع) قائم.. ربما للأبد..

غير أن الذي ينعدم هو الانفعال بالموضوع في نفس الكاتب، ولايُجدي حينئذ أن يكون (الموضوع) قائماً أو مرشحاً للكتابة من وقت طويل، كما يحدث إذ أضُمّ موضوعاً إلى الآخر في شكل عناوين، لأتذكرها عند اللزوم.. ثم قد أشعر- إذا لم تكن قد ضاعت في هذه الأثناء - بأن قلمي يظل معها أو مع بعضها في حالة عناد قد يذكر بعناد الحمار أحياناً.. إذا توقف عن السير.. رغم أنه في حالة

صحية سليمة، وقد يلتهب ظهره بالسياط، ثم يأبى إلا التوقف.. لضعف الحافز - غالباً- أو الانفعال!

إن أوجه الشبه بين بعض التصرفات.. في الإنسان والحيوان.. قد لاتُحصى.. وربما كان درسها طريفاً على ضوء تطور العلم.. والأخلاق.. في العصر الحديث!

محنـــة القـــلم (٥)

تحيّرت وأنا أمسك قلمي لأكتب اليوم..

كان أكثر من موضوع يشاغلني، ولكن ذهني - كما يلوح- كان في حالة ارتباك..

وأخذت أتذكر حوادث اليوم، فلقد استيقظت، كالمعتاد غالباً، قبل مشرق الشمس.. ومع أن جو البيت قد لايسلم من المؤثرات في المزاج، إلا أنه لم يكن هناك شيئ يُذكر، وقد أفطرت يومها، وفكرت في وجبة الغداء.. إنها مهمة تافهة في الواقع، ولكننا قد نهتم كثيراً، إذ يلوح أن كل طعام نتصوره حينذاك، خامل لايثير الشهية، أو التطلع إلى وجبة الظهر باستعداد نفساني كبير.! غير أن عامل الجوع وحده هو المهم، فإذا حصل طابت الوجبة أيا كانت.

ثم لم يصادفني بقية النهار إلا ما تعودته كل يوم، كضياغ قسم وافر من وقتي وأوقات الآخرين في قراءة الصحف، والتعليق على الحوادث.. والأشخاص.. بحماس كبير..

ومن المؤكد- ولاشك- أن أحدنا قد يكون في شاغل مهم يقتضيه التفرغ، بمعنى الانقاطع عن أي شاغل سواه.. إلا أن المجاملة قد تتغلب على تصرفاتنا، إذ يتبدد الوقت في انسجام كاذب من الآخرين، ويظل الشاغل الأهم مركونا في الانتظار..

والحق أنها ليست مجاملة فحسب..

إن الانحلال في طبعي أو طبعك- مثلاً- هو الذي يزين سلوك المجاملة، وكأننا نميل حقاً لتبديد واجباتنا.. في تراكم مستمر قد يترتب عليه أبلغ الأثر في العمر.. والحياة..

المهم أنه كان يوما لايخلو من الضياع.. وعوامل الاستفزاز.. والارتياح.. ومن كل ما قد يصفو أو يتعكر به المزاج- شأن كل يوم أفكر وأكتب، وأحيا وأعيش فيه..

ومع هذا تحيرت كثيراً قبل أن أكتب هذه السطور..

محنـــة القـلم (٦)

أصبحت - والحمد لله- لا أضيق بكتابة (ذكرى) بل كأنما هي حبيبة أجلس إليها من صنع خيالي.. حبيبة كالطيف فيه من السحر والجمال.. والوضوح والغموض.. والظلام.. والاشراق- فيه من كل ذلك أو من بعضه أو مما لا أدريه ما يحبب إليّ التأمل إلى حد السكون.

وأظل أناقش ذكرى.. أو الحبيبة ليتحرك موضوع للكلام لا يتعذر في الغالب، ولكن المهم أن يكون حياً في قلبي ليكون شيقاً..

ومن المؤكد ولا شك أن في الساعات التي مرت كالماء فيما يسمّى الأمس، عدداً من الحوادث والانفعالات مرت معها، غير أن بعضها قد لايحيا في القلب ولكن في الأعصاب، فهي ليست إذن ذلك الموضوع الحي!

وأتوقف في البحث عن موضوع كهذا.. حتى إذا وجدته نفد الوقت والمكان.. وانفض مجلس الحبيبة!.

محنـــة القــلم (٧)

قـد يطيب لي أن أكـتب قـبل أن أنام، وهذا يكلفني أن أضع قلمي وراء أفكاري.. أو العكس.. أو أن أملي إذا وجـدت من ارتاح مـعـه للإمـلاء من جـهـد حركة الذراع واليد.. والأصابع التي تمسك بالقلم على وجه الخصوص.

ولهـذا أكـاد أرثي لأولئك الذين ألّفـوا - بتـشـديد اللام- في الماضي تحت أضواء الشموع وتركوا بأقلامهم مخطوطات كبيرة تبدو الحروف فيها كالنمل.. وإن كنت أُقَدِّر جدوى هذه المخطوطات وما أهدته للناس من رأي ومعلومات.

كـيف اسـتطاعت أصـابعـهم أن تمسك القلم وتكتب به في سنوات كل تلك الثروة الضخمة من المخطوطات، على ضعف طاقة البدن أو روافدها كما يلوح بعد المقارنة بين الحياة في أيامهم، وبينها في هذه الأيام!

ولكن طاقة الروح كانت فيهم أقوى فاستطاعوا مالا تستطيعه طاقات أكثر الناس في هذا العصر الذي توافرت فيـه امكانيـات العيـش السعيـد.. فيـما عدا الروح التي أجدبت، ولعل هذا وراء كسل مثلي عن الكتابة أو عن الجهد المثمر في معظم الأحيان، وإن لم أكره قط أن أحارب الكسل.. إنما بكسل شديد!.

محنــة القــلم (٨)

لقد أخذت القلم ووضعت العنوان كالمعتاد عندما أكتب (ذكرى) وجعلت أدير القلم في أحرف (ذكرى) بدون حساب كما لو كنت أرسمها وأعيد رسمها وأذهب وأعود بالقلم بين الحرف الأول والحرف الأخير ذلك لأنني كنت محتدماً.. وما أكثر ما يحتدم الإنسان بين الليل والنهار لأضعف الأسباب أو لأقواها، وما أكثر ما قد يفقدنا ذلك نعمة التوازن أو السعادة إجمالاً.. وما أكثر ما قد نخسره، أفراداً أو جماعات، في نتيجة الاحتدام.

إن أي قول أو عمل يصدر في ساعة غضب أو احتدام قد يلوح أنه في حاجة إلى التعديل إن لم يكن إلى التغيير الجذري أصلاً، ولكن عقارب الساعة لن تعود قط إلى الوراء حتى نتفادى كل ما نأسف عليه- بعد فوات الوقت- لأنه كان!

ولهذا يبدو أن التصرف المناسب عند الغضب أو الاحتدام هو عدم التصرف اطلاقاً.. فيما عدا أن نسترخي، وأن نتأمل الفضاء أو البحر إن أمكن، أو أن نلجأ إلى الوضوء والصلاة!!

لهذا ولما قد تثيره (المعاملات) التي يطالعها المسئول من غضب أو احتدام- إن لم يكن هو محتدماً من قبل أن يطالعها يترجح عندي أن لا يبت فيها عندئذ، وأن يعاود مطالعتها مرة أخرى ومراراً.. تحرياً للصواب بقدر المستطاع.

لقد كان احتداماً مباركاً هذا الذي استكتبني ما سبق بعد أن أدرت القلم طويلاً كما سبق في أحرف (ذكرى)!

محنـــة القـلم (٩)

أحب أن أكتب أحياناً.. لا لأنني أعشق الرواج أو خرافة الخلود في دنيانا، أو لأي شيء كهذا قد يثير شهية الطامحين!

إنما أحب أن أكتب مشاعري، وأشعر بلذة غامرة إذا أنا وضعتها في ألفاظ لا تخرج بها عن حقيقتها إلى المبالغة أي إلى تزوير الحس والانفعال أو إلى أي تصوير غير مفهوم، حقاً إنها لذة غامرة أن أخلو إلى قلمي وأفكاري إذا هدأ كل شيء حولي لأكتب مما في نفسي على الورق..

وَتَصَوَّر إشراقة الفجر، وألَق النجوم، وصفاء البحر، وعويل الريح وسكون الليل، وتغريد البلابل، وسطوة الجمال، وسرائر النفوس وظواهرها.

تَصَوَّر كل مادة أو معنى في هذه القصة الطويلة.. قصة الحياة التي كانت وستظل موضوعاً خالداً للقلم.

ما أسعد أولئك الذين يسعهم أن يصوروا كلما أرادوا بالقلم سحر الحياة أو انفعالهم بها على أي نحو كان، فالمهم أن يكون التصوير بارعاً مؤثراً، وأن لا ينحط مستوى الأداء فيه عن مستواه فيما يحب الكاتب قراءته لإضاعة الوقت فيه، ولقد شغلتني توافه الحياة ومتاهاتها طويلاً عما أحب!

غير أنني سأعود.. لأعيش فيما أكتبه.. وما أجدر القلم بأن يطرب كالموسيقى، وأن يُوَجِّه إلى حياة أفضل، بأعذب الألحان!

ويشدني الحنين إلى القلم، ويشدني بعيداً عنه مايشغل النفس من بهلوانيات الحياة!

وتستغرقني ذكريات ما مضى بإجماله وتفاصيله إلى حد الامتلاء، ثم تهبط كما يهبط الماء من ثقوب صغيرة إلى أعماقي، وأحسب أنني قد خلصت منها إلى الأبد، غير أنها تظل هناك، وقد تختلط بما بعدها أو بما قبلها من ذكريات كل يوم.. ويبدو أن شيئاً كالغطاء يحول دونها، فلا أذكرها.. ولكنها تظل في الأعماق بعيداً عن الضوء، حتى إذا أزيح عنها الغطاء أحياناً تبينت أنها في متناولي إذا شئت ولم يصرفني السأم، وهو عامل يبعثر حياة الإنسان كأوراق الشجر!

أتراه رغبة عن الحياة، أو هو رغبة فيها تضلُّ مسراها كما يضلُّ المنبت.. لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى؟

إنها قصة طويلة اسمها الرغبة أو الرغبات.. أعيشها في داخلي كما يعيشها غالباً كل إنسان، ولو استطعت أن أنقل شيئاً منها إلى الورق لكانت مسرحية فيها أشخاص.. وحوار.. وأفكار.. وصراع على المسرح الذي يكمن في باطنه شيء كالانفجار، وعلى ظاهره سطح خامل.. كالبلادة.. وهو بينهما منسجم مع الحياة؟

يوم واحد يتجدَّد بعينه بين مشرق الشمس ومغربها مرة واحدة إذا انطفأت الشمعة في اليوم الأول.. ومراراً إذا استمرت تحترق إلى ماشاء الله من العمر المقسوم.. وأعُدُّه أنا وأنت بالأسبوع وبالشهر وبالسنة.. إلى النهاية التي تبتلعنا بعد عمر يطول أو يقصر، ولكنها آتية على كل حال!

محنـــة القــلم (١٠)

إنني قد أبحث عن موضوع للكلام.. وقد أجد أكثر من موضوع، غير أن الأفكار تتوقف أحياناً.

وأظلّ كمن يعصر الحجر بين أفكاري وقلمي، وأحسّ شيئاً كالفراغ في نفسي من كل شيء..

ربما كان في وسع الإنسان أن يكتب مع الفراغ، أو مع الإحساس بالفراغ.. أي أن يَصُفَّ ألفاظاً وأن يَرُصَّها بمنتهى الدقة والإحكام.. غير أنها ستظل جوفاء إلا من صناعة الكلام.. وإذا تحول الكلام إلى مجرد صناعة فقد ضاع الهدف..

لابد من هدف للكلام ينفعل به الكاتب حق الانفعال، فإن هذا ضروري لانفعال القاريء بنفس الهدف..

إننا نهدف إلى الإصلاح مثلاً.. ودعك من خرافة الفن للفن.. في أيام لاينبغي أن يكون الفن فيها إلا للرغيف.. والقوت، وضروريات الحياة..

فهل كان انفعالاً صحيحاً بهدف الإصلاح؟

إننا نتناول الجزئيات من وقت طويل، بالنقد والملاحظة.. البلدية.. المرور.. الأجانب.. المشاريع.. الإجراءات.. إلى آخر مانلتّ دائماً ونعجن فيه.. غير أن الموضوع لم يزل قائماً.. وإن تطور الخلل في هذه الأثناء.!

إن هذا يعني وجود خلل رئيسي لا يجدي الكلام معه في الجزئيات، وقد لا يجدي تقويمها إن حصل.

إنه خلل الوعي وانهياره، وإن إصلاح هذا الخلل أو هذا الانهيار ينبغي أن يكون هو الهدف..

محنـــة القــلم (١١)

ذكرت من أول الأمر أنني سأمضي بالتيسير في كتابة (ذكرى).

ومضيت ماوسعتني ظروفي ومشاغلي، وأشعر الآن بأنها تقف كالحائط في سبيلي..

وعلى مايلوح بين استقراري وسفري من فرص كافية للقراءة والكتابة- أحس أن التأمل الصامت ألذّ وأجدى، ولهذا أفضل أن أفتح عيني، وما أمكن من حواسي ومشاعري لأتأمل فحسب.. وأضيق بالكتابة في حالة كهذه..عدا انها قد تغدو عملاً مملاً إذا روّض الكاتب قلمه على مراعاة مشاعر الآخرين ما استطاع!.

ولاشك في أنه من البراعة بمكان أن يلعب الكاتب بأوتار القلوب إذ يداجيها في نفس الوقت.. غير أن هذا يكلف من الوقت والجهد ما لا أجده لأنفق منه بسخاء على مثل هذه البراعة..

إن هذا يعني كما لا يفوت ذكاء القاريء اللبيب أنني سأتوقف عن كتابة (ذكرى) إلى أجل غير بعيد!.

ولا يفوتني أن أقدر بإخلاص رغبات من قد يفضلون أن أستمر كرغباتي أيضاً.. لولا الحائط المذكور أعلاه!

كما قد وددت لو لم يفتني التعبير عن خواطري بعد كلمة قرأتها مؤخراً، وليس في وقتها، للصديق الأستاذ السيد عبدالله عبدالرحمن الجفري، وأحسست جو العطر ومعناه منها وفي ظلالها الرقيقة- ربما إلى حدّ الإغماء!- خاصة عند مسك أو (أصَنْص) الختام.

وما أطيب وأندى ظلال الذكريات..

عريان على رأسه (طرطور)!

قرأت فيما قرأت أن نحو نصف سكان العالم يعيشون في حاجة إلى الغذاء الضروري، وأن أكثر من عشرة آلاف شخص، ومعظمهم من الأطفال، يموتون يومياً في العالم لنقص المواد اللازمة في وجبات الغذاء.

وقرأت فيما قرأت أن في العالم حوالي سبعة عشر مليون لاجيء، ويعيش أكثر من مليون منهم في الولايات المتحدة، وأن من بين هؤلاء اللاجئين ضحايا الحروب، والحرمان الاجتماعي، والاستعمار الظالم الذي يطرد الناس من ديارهم.

وقد تعجب أو لا تعجب لأنني قرأت في نفس الوقت أن الإنسان يحلم اليوم، وبعد أن صعد إلى القمر مرتين بإنشاء مستعمرة على القمر في بحر عشر سنوات من تاريخه.. وأن جهود العلماء تتسابق الآن، بعد أن عاد رواد القمر مرتين في دراسة ماتوصلوا إليه وحملوه بسلام إلى الأرض ليحققوا ذلك الحلم بعد أن يحققوا خيرات كثيرة للإنسانية على الأرض.!

وهم في هذا السبيل يُعِدُّون الآن عِدَّتَهم لرحلة ثالثة إلى القمر الذي يوشك أن يصبح كأي حقل تجارب في القرن العشرين بعد أن كان حلم الشعراء وخيال العشاق!

وسواء عادوا للمرة الثالثة أو العاشرة سالمين.. أو لطشهم لاطش مما ندريه أو لا ندريه في هذا الفضاء الواسع العظيم، وانقطعت أخبارهم إلى الأبد، فإن من

المضحك أياً كانت السلامة، وأياً كانت الفتوحات العلمية التي يحققها النجاح بعد السلامة- أن تراق ثروة ضخمة كمليارات الدولارات التي أُريقت في سبيل كهذا، وفي العالم كما ذكرت أول الأمر عدد ضخم يقدر بنحو نصف سكانه يتضورون من الجوع إلى حد الموت.. والتشرد!

إن العالم يبدو بهذا كأي عريان على رأسه (طرطور)!

ظاهرة التكرار

تتكرر المعاني على قلم كاتب وآخر.. وعلى قلم الكاتب نفسه، فقد يحدث أن يكتب معنى واحداً أو أكثر، وقد تتكرر نفس العبارات وهو لا يشعر بتكرارها.. فإنه لابد لكل إنسان من خواطر معينة يعيش فيها بحيث تغدو منطلق أفكاره ومشاعره دائماً، وبحيث لا يستغرب أن تتكرر على لسانه أو قلمه مراراً.. وتلك ظاهرة بينة في إنتاج معظم الكتاب والشعراء على اختلاف طبقاتهم وأجيالهم، ولا يعاب ذلك ولا يؤاخذ الكاتب أو الشاعر عليه، كما لا يحط هو من شأن المعاني والأفكار، وهو قد يحدث عمداً بحيث يتحراه الكاتب أو الشاعر، أو يَشْعُر به ولا يخشاه، وقد يحدث عفواً إذ يملي شعوره الباطن ما يصادف هوى أو رأياً قديماً لا يذكره هو ولا ينساه ذلك الشعور.

ولقد حدث مثل هذا إن صدقتني الذاكرة على أقلام أساتذة من طراز العقاد ومحمد حسين هيكل وابراهيم عبدالقادر المازني يرحمهم الله وسواهم، بل قد يلاحظ القاريء- الناقد على الأخص- أن أفكاراً وربما عبارات تجري بعينها هنا وهناك.. وفي غير مكان واحد من إنتاج أي كاتب كبير أو صغير.. ويبدو الأمر كذلك في الشعر وفي الإنتاج الفني عموماً كما أظن، فإن بعض الشعراء، إن لم يكن كلهم، تردد قصائدهم لحناً أو ألحاناً بعينها.. قد تكون هي ألحان الغزل، أو التشاؤم، أو النوح، أو أي شيء كهذا، ثم لا يختلف إلا العرض بين كل مرة وأخرى، ومن هنا – كما أظن – يتعملق بعضهم، ويرتفع إلى الذروة.. وينخفض

بعضهم حيث يبدو العرض وطريقته فيه أسلوباً مملاً يردد نفس الصدى ونفس الآهات في أكثر ما ينظمه.. وعلى مر السنين.

اذن هو - أي التكرار - غير معيب أو معاب، والتقاء إنسان بآخر في فكرة أو معنى أو خيال ما شيء طبيعي معقول منذ كان الأصل موحَّداً في الكيان الإنساني العجيب.

ربما كان مُهِمَّاً أن يتفاوت العرض والأسلوب، وربما كان هذا غير مهم، فقد قال بعض الشعراء والكتاب ماقاله غيرهم او ماقالوه هم انفسهم بالألفاظ ذاتها أو بمعظمها، ولا أعيب ذلك وإن عابه سواي أيّاً كان مستواهم على قمم النقد والبيان أو دونها، والمهم أن يكون هذا بعيداً عن السرقة والاختلاس.

وأحس وأنا أكتب الآن بأن شيئاً كالصدى البعيد يجري على قلمي- لما كنت أكتبه قبلاً.. على طول العهد.

فإذا كان هذا أو تكررت نفس الألفاظ والعبارات- فإنما هو من هذا الباب ومن هذه الخواطر التي يدور حولها وجدان الإنسان كل يوم..

إنه - أي التكرار - ملموس في مرئيات الوجود، فماذا هناك غير أن الشمس تشرق وتغرب، وأن أيام الأسبوع والشهور والأعوام هي هي تتكرر وتدور علينا، كما تدور الأرض حول نفسها وحول غيرها، وأن مظاهر الموت والحياة تتداولنا ونتداولها كل يوم.

وسبحان من خلق ظاهراً يُنْسى وباطناً لا يُنسى!

وسبحان من كان التكرار في كلامه العزيز، وكانت المزايا فيه أكبر من التصور ومن أن يستطيع مثلها أي قلم وأي بيان!

هذا العالم

تتراكم الصحف عندي أحياناً لعدة أيام فلا أقرؤها لما يشغلني، ولأن القراءة بعد الشغل قد تشبه الأكل بعد التخمة.. وواضح أن مايفوت الإنسان من هذه الصحف وقراءتها قد لا يخسر به شيئاً يذكر، وأن أي وقت يمضي في متابعة قراءات منظمة أو غير منظمة لكتب ومؤلفات ذات جدوى، قد يكسب به القاريء أكثر مما يكسبه في متابعة قراءات الصحف.. غير أن هذه مليئة بالأخبار والحوادث التي هي على الأكثر من عالم (القيل والقال) الذي يعيش فيه الناس بحيوية بالغة تنقلهم من مجلس إلى آخر، وربما من مدينة لأخرى - ركضاً وراء ذلك العالم!

ماذا هناك؟ قال فلان.. وسافر فلان.. وحصل كذا.. ويقولون كذا.. إلى آخر الدش واللحس لأقفية الآخرين - الغائبين بالطبع!- ويعيش ذلك العالم في أكثر بيوتنا ومجالسنا.. واجتماعاتنا.. ولا يطيب يوم بعض الناس إلا بعد الاندماج فيه والتزود منه ولو لدقائق إذا تعذر المجلس الطويل!

من هذا العالم ظاهرة الصحف.. إلا أنها من مستوى السطح حيث لا تنزل إلى الأعماق إلا نادراً، ولهذا لا تنقطع متابعتها حتى ولو تراكمت، بفكرة أن يعلم الإنسان ماذا هناك.. خاصة إذا لم يكن في وسعه أن يندمج في ذلك العالم ومجالسه كل يوم..

ثم قد لا يجد بعد وقت طويل يمضيه في متابعة ماتراكم منها - أكثر من أنه تثاءب وأدركه النوم!

من هـــو؟

من وقت بعيد كان في الناس من ينادي بأن الشعر انتهى، ولم يعد له مكان في هذا العصر..

والحق أنه لم ينته، ولن ينتهي الشعر، مادامت روافد الشعر تجري في النفس.. والحياة.. إلى الأبد..

وفي البلاد العربية شعراء ممن تفخر بهم - ولا شك - لغة الضاد.. غير أن بعضهم - إن لم يكن معظمهم- يعيشون في عالم بعيد عن الضوء.. وإن لم يَكُفّوا حتما عن (الدندنة) كلما دعا داعي الشعر..

والبحث في انطواء كهذا، وجَوِّه وأسبابه، يطول شرحه الآن..

غير أن في بلادنا من نفخر بأنهم في مقدمة شعراء العربية اليوم كما قلت في الجزء السابق من هذا الباب..

ثم إنهم ممن يعيشون في نفس العالم العجيب.. عالم (الدندنة) أحياناً.. ولكن في الظلام!

ومن هؤلاء شاعر رقيق، لم يتخط الأربعين إن صدقته الذاكرة.!

إنه - على حدّ تعابيره الرشيقة - يجدف ليلا.. وكان ، من قبل، ممن جدفوا كثيراً في وضح النهار..

قرأت له هذه القصيدة تحت عنوان (كيف أنسى؟):

علّمـــيني كـــيف أنسى — لقّنيني الهـــجـــر درســـا

كلّمـــا وقّـــعت لحنا — ذكـــر الحـــاضـــر أمـــســـا

ليت لي قلبـــا يجـــافي — لـيـــتـني مـــثـلك حـــسّـــا

لـيـــتـني أنســـاك حـــتى — تـنجلي الذكـــرى.. وتـنسى

أنا ضـــيّـــعت شـــبـــابي — وأضـــعت العـــمـــر يأســـا

كلّمـــا أفـــرغت كـــأســـا — للأسى أترعت كـــأســـا

إلى أن يقول:

اذكـــري مـــاضي يومـــا — يا أعـــزّ الناس نفـــســـا

وأنثـــري حـــبّي طيـــبـــا — وانشـــري ذكـــراي شـــمـــســـا

كم غـــزلت النور تاجـــا — لك، والأحـــلام عـــرســـا

وفـــرشت الدرب وردا — لتـــهـــاديك.. وغـــرســـا

أنـــا يـــا أنـــسَ زمـــانـي — لا أرى بعـــدك أنـــســـا

لـيـــس لـي نـاي يـغـنّـي — أو فـــؤادٌ يتـــأسّـى

وإذا قـلـت ســـأنسى — صـــاح قلبي: كـــيف تنسَى؟

ألا ترون أنه شعر حلو لذيذ.

إنه لشاعر من بلادنا.. غير أنه ، كما قلت، ممن يجدفون ليلا، وقد جدف كثيراً من قبل في وضح النهار.. ولهذا أطوي مؤقتاً اسمه، وامتحن ذكاءكم فيه.. أو ذكاء من يطيب له مثل هذا الامتحان..

من هو هذا الشاعر المواطن الرقيق!؟

الكوميـــدي الكبير

كنت أقرأ منذ أيام مذكرات المسرحي الشهير (شارلي شابلن) واستوقفني الكثير منها للتأمل..

إن قصة كفاحه ونجاحه بعد الكفاح قصة حافلة بطاقات هذا الرجل، وبقدرته على الوعي والتصرف المناسب، وفهم أوضاع الناس والحياة.. وهو من الجملة لم يكن غامضاً على نفسه كبعض أهل الفن والفكر.

من هذه الطاقات لمحات في مذكراته من الروايات التي صنفها وأخرجها ومثل فيها.

ومن المفهوم أنه (كوميدي) والبراعة في (الكوميديا) مطلب صعب، فليس المقصود هو أن تُضْحِك الناس فحسب.. بل وأن تعلمهم أيضاً!

وهنا تكمن صعوبة تخيِّر الحوادث وجمع شملها بما فيها ما يبدو كالمتناقضات على نحو يُعلِّم الناس ويُضحكهم في نفس الوقت.

ولهذا يبدو التأليف بين الحوادث.. والأبطال بعد إحسان واتقان الاختيار مطلباً صعباً كما قلت، يتعب الخيال كثيراً لتحقيقه، بحيث يجري كل شيء في مجراه الطبيعي، دون أي تكلف أو افتعال، فقد يجد الفكرة بإجمال، أو قد يجدها ويجد البطل الذي يُلْهم الفكرة، ويبقى عليه بعدئذ أن يبحث عن الصور التي يضع الفكرة ويسلسلها فيها، والأبطال الذين لابد منهم بالإضافة إلى البطل الموجود..

وهكذا قد يظل يبحث عن ذلك وقتاً طويلاً حتى تتكامل القصة أو المسرحية بمعناها الكوميدي الكبير!

ودهشت لكفاح شارلي شابلن وجهوده كما تتحدث عنه مذكراته، ولكنه لم يخسرها فقد حققت له أطيب النجاح.. بعد تعب طويل!

المرض يتطور

لقد توصّل العلم - وسيتوصل- إلى اكتشاف حقائق كثيرة بفكرة محاربة المرض، ومع هذا ما تزال الأوبئة تحصد الملايين، وما يزال الناس يموتون بالأمراض التي تقدم العلم في اكتشافها وعلاجها كل يوم.. وهذا لا يعني فشل العلم أو فشل العلاج عموما، ولكنه يعني فشل (التشخيص) أولاً.. كما قد يعني فوات الوقت المناسب للتشخيص والعلاج بالتالي.. وما إلى ذلك من ظروف وأسباب تشكل قدر الإنسان ومصيره المحتوم.

لقد جرب الكثيرون تشخيص مرض في لندن بغير تشخيصه في أمريكا، أو ألمانيا، أو بيروت..

وتجارب الظروف والأسباب التي لاينفع معها أي تشخيص أو علاج تجارب معروفة لا يكاد يسلم منها إلا القليل فيما أظن.. هذا بالإضافة إلى أمراض الشيخوخة التي استعصت وما تزال تستعصي على العلاج في الأغلب الأعم.

ويبدو - أيضاً- أن العلل والأمراض نفسها تتقدم وتتطور بنفس النشاط الذي يتقدم به العلاج!!

ولعل بعض ما يعانيه العالم من مخاوف تجاه مرض كالسرطان -مثلاً - لم يكن يعانيه من قبل.. ربما لأنه لم يكن له هذا الانتشار أو هذه الأعراض التي يلوح أنها تتقدم اليوم، مع أن علاجه ما زال يتعثر،

ولم يتطور بحيث تنكمش المخاوف السائد ضد شيء مثله لم يكن له من قبل هذا الدور أو هذه الأهمية!

ولا أدري ماذا تكون النتيجة لو كانت هناك احصائيات دقيقة لأحوال المرض والوفيات في الماضي البعيد، وقورنت باحصائيات اليوم.. مع أخذ عدد سكان العالم، وتطور العلاج بعين الاعتبار؟

إنّني لا أطعن بهذا في جهود العلم وتقدم الطب والعلاج، ولكنّني أذكر شعوري تجاه ظاهرة من ظواهر القدرة تحكم الحياة والموت، والوجود والعدم حكماً عجيباً قد كان وسيظل المهيمن القهار.

الوزير . . والكاتب . . وآخرون

هل أستطيع أن أكتب كما أحب؟

وعلى طريقة (سقراط) في الإجابة على السؤال بسؤال؟

هل في وسع أحد أن يعيش دائماً كما يحب؟

إننا نرغب أولاً.. وقد تتلاشى الرغبة برغبة أخرى أو بالفراغ إلى حين من كل رغبة.. وقد تستمر وتتحول إلى عاطفة معينة هي الحب.. أي إلى رغبة أقوى نُسَخِّر إرادتنا لتحقيقها إذا استطعنا..

وما أيسر الرغبة وحركتها في النفس وعلى اختلاف ما نرغبه بين الليل والنهار، ثم يذهب ما لانستطيع أن نريده إلى الأعماق، ويظل على السطح ما يمكن ويستطاع.. وقد لايتحقق إذا أردناه، وإنما يتحقق شيء نكرهه أو شيء لم يكن في الرغبة والحسبان، وقد يتحقق ولكن الرغبة تمله وتتطلع إلى سواه.. ويدفعنا قانون الملل إلى معاناة أحلام جديدة.

وهكذا يبدو أن الإنسان تحكمه عوامل أقوى من رغبته ثم من إرادته إذا تحولت الرغبة إلى إرادة أو إلى ورقة عمل كما يقال!.

وهناك التفاصيل الكثيرة التي تصوّر عجز الإنسان عن تحقيق أتفه الرغبات في دنيا الضرورات قبل الكماليات.. ويبدو الإنسان في مواجهة هذا العجز واحدا من اثنين:

ساخطاً يكتم السخط أو يعلنه في مواجهة واقع الحياة..

أو راضياً قرير النفس والعين، بوقائع حياته دائماً كما لو كانت هي التي رغبها وأرادها أصلاً!.

ربما كان في الناس من يستوي عنده الحلو والمر والأدنى والأعلى، لأنه يعيش في طاقة محدودة من الشعور بالحياة، فهو لايرغب وبالتالي لايريد شيئاً معيناً، ويرضيه الواقع كيفما اتفق.. ولعل هذا هو الطراز المشار إليه في قول المتنبي (وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم).

إنه طراز أقرب إلى الحيوان يحتويه الناس، وإن بدا الخروف- مثلاً - في طمأنينة يُغبط عليها، وهو يعالج البرسيم، والجزار يشحذُ المُدْية ليذبحه في هذه الأثناء!!.

غير أن الأولى هو أن يعيش الإنسان نفس الطمأنينة لا كما يعيشها أخو الجهالة أو الحيوان، بل كما يعيشها أخو الزهادة أو الفلسفة، بأسلوب من يقول: سأعيش راضياً أو ساخطاً فيما حصل، لافيما أردته ولم يحصل.. والسخط هو الشقاء بعينه، فلماذا أفضِّل جحيمه على جنة الرضى؟

ولماذا أبيع الطمأنينة بالقلق؟.

إنه مثل عال يلوح سهلاً على الورق واللسان، ثم يتعذر تطبيقه كلما فشل أحدنا في تحقيق أتفه الرغبات أو أحسنها.. وقد يتظاهر بما يَتَيَسَّر من السخر والضحك والفلسفة، وبأن كل شيئ على مايرام، ولكنه يظل- في الأغلب- يداري ما يعانيه بعيداً عن ملاحظة الآخرين، بينما المطلوب - كمثل عال- أحلى الأماني وأطيب الأحلام!

وحول شيئ كهذا تدور فلسفة (ديل كارنيجي) وغيره ممن يحاولون ترويض الأجيال على السعادة ومحاربة القلق !

على أن المبادئ القديمة المبعثرة في كلمات مضغوطه من الشعر والنثر تختصر فلسفة هؤلاء ومؤلفاتهم الكثيرة في هذا المضمار..

وعلى سبيل المثال قول بعض العارفين:

(إذا لم يكن ما تريد فأرد مايكون)

إنها قاعدة تختصر ما بشَّرت به تلك الفلسفة والمؤلفات ضد القلق، فما يشقى بالحرمان من يضع في حسابه دائماً أن ما يريده قد لايكون، وأن منتهى المراد هو ما كان لا ما قد أراده ولم يكن..

إنها مثالية تبدو كالسهل الممتنع في ممارسة الحياة!

وهناك أقوال أخرى مأثورة من الأنبياء والصالحين والفلاسفة والشعراء والكتاب.. فيها خلاصات موجزة لكل ما بشَّر ويبشِّر به دعاة الطمأنينة في كل زمان ومكان..

وهناك القرآن الكريم من قبل ومن بعد.. فيه خلاصة الخلاصات التي تهدي إلى الخير وإلى السلوك الأمثل بين مفارقات الحياة وفي كل أحوالها، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى:

(وعسى أن تَكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم) لكان هذا حسبنا عندما يحدث لأحدنا ما يكرهه، فما أجدره بأن يسعده ماحدث وهو يتصور احتمال الخير فيه، ولاينبغي أن يكرهه حينئذ، كما لاينبغي أن يحبه كل الحب إذا جاء طبق رغبته ومشتهاه لاحتمال الشر فيه، وهذا يعني توازن الإنسان ومشاعره بين الخيال والواقع، وبين الحب والكره، والشقاء والسعادة، وبين الخير والشر عموما في هذه الحياة.

وما أنا بصدد بحث كهذا حول مقومات الحياة.. وكيف ينبغي أن يكون الشعور الإنساني بها وبين مفارقاتها، ولكنني انطلقت أول المقال من التساؤل عما إذا كان في وسعي أن أكتب كما أحب؟

وينبغي أن أذكر هنا - وقد طال الكلام على غير ما توقعت- أن الكاتب الصاعد علي العمير هو الذي جرني إلى كل هذه الثرثرة التي قد يضيق القراء ذرعا بها، فما أكثر ما يقرأون أو لا يقرأون مثلها كل يوم!

لقد وجّه على صحيفة (البلاد) منذ بضعة شهور- خطاباً إلى (الأديب) في شخصي لا إلى (معالي الوزير)، فهذا - على حدّ تعبيره- قد ظلم ذاك (واستأثر بكل الوقت والأضواء والمجد والعمل) إلى آخر ما قاله عن الأديب المظلوم الذي لم يعد يجد وقتاً لاثبات الذات أو ذكراها على الأقل!

ويلتمس آخر الأمر من شخص (معالي الوزير) أن يرفق بشخص (الأديب) وأن يحترم له قدر الأسبقية فيتركه ليأخذ نفسا ولو هنيهات يثوب فيها إلى كتابه أو قلمه..) إلى آخر ما قال.

ولقد أحسست ما يشبه الدغدغة لتفقدٍ أدبي كهذا من زميل في المهنة وفي الوظيفة قبل المهنة وبعدها، فقد كان يوما ما موظفاً في وزارة المواصلات، فهو ذو علاقة بالشخصين على كل حال!

ولكن هل هما (شخصان) حقاً؟ وهل يمكن الفصل بينهما فلا يتأثر أحدهما بالآخر أو يؤثر فيه؟

وفكرتُ بجِدٍ وعلى ضوء علم النفس في ازدواج الشخصية، وما قد يكون منه مرضاً يعالجه أو لا يعالجه أطباء النفس.. وفكرت بعيداً عن هذا، مستعيذاً بالله منه، في تعدد الشخصيات وانقسامها، وإمكان عزل بعضها عن بعضها، ومعايشة البعض المرغوب دون الأبعاض الأخرى بحسب الظروف والتجلّيات!

البعض الرسمي مثلاً - وهو شيء كالظل يتبع (الوزير) أو يتبع ظلاً آخر يسمى (معالي الوزير) وإن كنت لا أدري متى وكيف وجد في التاريخ ظلّ أو اطار كهذا يَلُوحُ فيه حامل أثقال أو غير أثقال بشيء كالأبّهة والوقار!

هذا البعض الرسمي مطلوب أن يختفي كلما سرد أحدهم قصة مرت به أو بغيره.. مؤكداً لأكثر من مرة أنها لعلمي الشخصي لا الرسمي!

وأهز رأسي بمعنى الموافقة أول الأمر، كانصياع تلقائي لفكرة تعدد الشخصيات حسبما قيل ويقال.. ثم أتبين خطورة القصة وعلاقتها الواضحة بالبعض الرسمي إياه، فكيف يمكن التظاهر بأنه لم يسمع شيئاً يستحق الذكر؟ ومن هو البعض الذي سمعها ولا بأس عليه من مثل هذا السماع؟

هو كما يبدو شخص عادي.. ويدور في نفسي أن مسئولية (الشخص العادي) ما ينبغي أن تقل عن مسئولية (الشخص الرسمي) - إذا صحّ الوعي- عن تقويم الاعوجاج على نحو من قال لعمر بن الخطاب (والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا).

وعلى افتراض أن الشخص العادي غير مسئول بحكم الوعي المفقود إجمالاً، فإن الآخر يظل مسئولاً لأن الوعي مفترض فيه بحكم المهنة ومتطلباتها - على الأقل- وفي مقدمتها الأمانة والاخلاص.!

وأصارح محدثي بأفكاري ثم بفشلي في محاولة الحجز بين شخصين: أحدهما لايعنيه الأمر من باب الوعي المفقود، والآخر لم يسعني احتجازه ضدّ السماع.. إنه يطالب الآن بدليل على القضية أو بالمساعدة على إقامته، لتصحيح الخطأ وتقويم الاعوجاج، فإذا هو لايملك دليلاً أو شبه دليل، وكلّ ما هناك أنه قد سمع.. أو هكذا قيل.. وهو يخشى مغبّة الدخول في أية محاولة تسيء لأحد وإن كان مسيئا.!

ويؤكد للمرة الأخيرة أنه قد روى ما رواه ليس إلا لعلمي الشخصي فحسب!

وما أكثر ما يدور نحو هذا على الألسنة مما أظنه غير لائق بأهل الوعي.. من ذوي الرأي والمسئولية على الأخص!

ويأتي - بعد ما سبق عن شخصين في كياني - شخص ثالث هو (الأديب) الذي استفزّه أخونا علي العمير ضدّ استبداد أحد الشخصين المذكورين به وطالب بإنصافه منه.. تماما كما يطالبني البعض بالانفصال عن (شخصي الرسمي) - المستبدّ بشخص الأديب كما قال - لأسمع ضرباً من القصص من طراز ما أسلفت!

ولهذا كان سؤالي في مقدمة هذه الثرثرة هو:

هل أستطيع أن أكتب كما أحبّ؟

وأحسبني قد انتهيت بعد السؤال والجواب إلى أنه ليس في وسع الإنسان أن يعيش كما يحب، فليس في وسعه إذن أن يكتب كما يحب، كما ليس في وسعه أن يقرأ أو ينظر أو يسمع أو يمشي أو يأكل أو ينام - دائماً- كما يحب!

ليس في وسعه أن يعيش إجمالاً وبالتفصيل دائماً كما يحب.

ومع أن الإنسان يملك داخله كما يبدو، ويتصرف فيه بحرية لارقابة عليها إلا التي يلتمسها هو - فإنه قد يضيق ذرعاً بما يلوب في نفسه من وِجْدَانيَّات يودّ أن يهرب منها، ولو إلى صمت بليد مطبق، ولكنه لايستطيع!

إنه قد يهرب خارج نفسه.. مثلاً من الشاي إلى القهوة، ومن زيد إلى عمرو.. من البرّ إلى البحر، ومن السهل إلى الجبل.. من أية معاناة للحياة إلى غيرها، ومن أي شيء لآخر- تحرياً لما يرغبه ويظنّ فيه السعادة، وإن كانت هي في الطمأنينة للواقع كما سبق المقال، ولكنه لايستطيع أن يهرب مما في داخله إلا إليه.. أي إلى داخل نفسه بمستوياتها العجيبة التي قد تتناقض إلى حدّ الصراع، ثم يبدو على ظاهر الكيان أن هنا إنساناً ملؤه التوازن والانسجام! والمفروض أن الإنسان يحكم في داخله، أكثر مما يحكم في خارجه، وهو في واقع الأمر لايحكم على الحالين إلا كما تحكم الذرة التافهة حَركَتَهَا في أشعة الشمس!

وإذا كان من الحق أن تعيش الذرة أو النفس الإنسانية على أي حال من

الرضى أو السخط والقلق أو الطمأنينة ما دامت الحياة قدراً ينتظمها كملايين المخلوقات، فإن من الحق أن يعيش الإنسان بعض التفاصيل كالكتابة إذا لم يكن في مقدوره أن يعيشها كما يحب.. وكيف يغدو في وسعه أن يكتب كما يحبّ وفي ثيابه عدد من الأشخاص كالوزير، والإنسان العادي، والأديب وغيرهم ممن يمكن تصورهم أشخاصاً متميزين أو منحازين لأي معنى أو صفة في محتوى هذا الإنسان. كيف يكتب شخص ما من هؤلاء الأشخاص في معزل عن الآخرين وكأنما لاوجود لهم عندما يكتب؟

إنّ كلّ شخص أعيشه - على افتراض تعدّد الشخصيات - يذوب في داخلي كما يذوب في الكأس عدد من العناصر.. لكل منها قبل الكأس كيان مادي أحسبه أكثر وضوحاً وتمايزاً مما يدّعيه الإنسان لنفسه أو للآخرين باسم (تعدّد الشخصيات).

ودار في ذهني أنه مجرّد افتراض أو اصطلاح لتبرير سلوك الإنسان وتصرفاته الحسنة أو السيئة، فما هنا عدّة (شخصيات) بل عدّة أفكار قد تتخاصم إلى حدّ القتال، غير أنها تتحوّل إلى ذوب واحد في داخل النفس، ثم قد يطغى أحدها ويحكم تصرفَ الإنسان ومزاجَه كما يطغى عنصر بذاته على ما عداه في الكأس أو في ذوق الشاربين.. وعندها يقال:

إن شخص (الوزير) مثلاً قد طغى أو استبد بشخص (الأديب) أو أن شخص (الرجل العادي) هو الذي ينبغي أن يظهر في مواجهة قمة ما دون شخص (الوزير) إلى غير ذلك من الشخصيات التي يحتويها الناس كلهم أو بعضهم بحسب الأحوال والمقام!

والمفروض أن يغمس الشاعر أو الكاتب قلمه في ذوب الانفعالات التي يعيشها، وأن ينقلها إلى الورق، كما هي..

وهذا يستدعي أن يعي حق الوعي ما يريد أن يقوله لئلا يقول كلاماً طائشاً

أو تافهاً أو غير مفهوم، وأن يكون قادراً بالموهبة ثم بوسائل إبرازها في أداء ملائم!

ومما لاشك فيه أن الافتعال أمر ممكن، وقد يتقن الكاتب أو الشاعر أداءه، ويبلغ به مستوى لايبلغه من يحاول أداء انفعال صحيح صادق لا افتعال فيه..

أبو نواس - مثلاً - كان يروي انفعالاته على حقيقتها دائما، أو غالبا، ومع هذا لم يكن مستواه كالمستوى الذي ارتقى إليه أبو الطيّب المتنبي رغم كل افتعال في معظم شعره الذي أصبح أغرودة خالدة كما قال..

ومع هذا أيضاً يلوح المتنبي في شعره الذي كان يصدر عن انفعال كقصائده عن سيف الدولة - أقوى وأحسن منه في شعره الذي افتعله عن كافُور كما حدّث هو نفسه بعد الافتعال ويأسه مما كان ينشده بالافتعال.

إن القدرة الفنية بما فيها الموهبة تلعب دورها في رفع أو خفض مستوى التعبير على الانفعال وعلى الافتعال، غير أن هذا يظل مرجوحاً في ذوق أهل الانفعال وطُلاّبه على حقيقته وإن ارتفع مستوى الافتعال أو تألق كما يتألق الكذب والنفاق!

وعلى أي حال من هذا وذاك، واحتمالات الجدل فيهما وفي مستوى الكتاب والشعراء بينهما - يلوح أن المزاج وحده هو الذي يختار أحد الطريقين.. ولايعني الاختيار التفوق إلالمن يغتر وينسى أن الفشل والضعف والركاكة احتمالات جائزة.. ولكنه يعني مزاجاً يكره أو لايكره الافتعال؟

إنني أحب أن أكتب انفعالاتي كما هي.. لا أَتَصَنَّعُها.. ولا أتصنَّع لها ما استطعت، فكيف أكتب انفعالات عدد من الأشخاص يحتويها كائن واحد.. وهو أنا.. والمفروض أن انفعالاتهم جميعاً تتحول إلى ذوب واحد في داخلي، وأن قلمي يغمس في هذا الذوب وينقل إلى الورق شيئاً منه لا من ذوب مفتعل؟!

كيف أعزل شخص (الوزير) وأدفعه بعيداً عن قلمي وهو يملؤ انفعالاتي بين دوامة العمل ومن أتعامل معهم ويتعاملون معي.. على اختلاف نوعية ومستويات العمل والمتعاملين!

كيف أخنق انفعالات كهذه لأكتب عما أحسه في هدأة الليل أو في صحوة الفجر، أو على صوت السكون وخرير المياه.. أو هدير الأمواج، أو أية تجليات تبثها الطبيعة في النفس.. وهناك انفعالات أخرى تملؤني ولاتكاد تبرحني إلا إذا سكنتْ أطرافي على ما يشبه النوم؟.

ولو أخذت أكتب على الطبيعة كما يقال لما سلمتُ- والقلم في يدي - من صداع طويل..

إن شخص (الوزير) مثلاً سيرفض كلمات أو عبارات أو انفعالات بعينها، لأنها مما لاينبغي أن يصدر عن (الوزير) في نظر الآخرين، وسيقف شخص الكاتب في وجهه قائلاً:

- دعه يكتب ما يحسه على حقيقته..

ويرد شخص (الوزير)..

إن هذا لايتفق مع وقار (الوزير) أو اطاره على الأقل، ثم إن الناس أو بعضهم- على سبيل المثال- قد يقولوا إذا كتبت نقدا:

- لو لم يكن (وزيرا) لما تطاول إلى هذا الحدّ.. أو لماذا لايصحّح الوضع وهو مسئول؟

مع أن تصحيح الوضع- والوعي في مقدمته- قد يستعصي على المسئولين أجمعين إن لم يكن من الله عون لهم...ومن عباده المخلصين!!

وإذا كتبت أفكاراً يومية أعيشها، فقد يلوح بعضها تافهاً في نظر بعضهم.. أو لاينسجم مع هالة الإطار الذي يعيش فيه حامل أثقال اسمه (الوزير) كما سبق.

ويردُّ شخص الكاتب عليه في الحال بقوله: اسكت.. دعهم يقولون ما شاءوا ويشاءون.

دعهم يقولون: كيف يكتب (الوزير) كلاماً عن النمل مثلاً أو الضفادع أو أية حيوانات أدنى أو أعلى إذا تحرك شعوره بها في أي اتجاه..؟ كيف يكتب عن ظاهرة أو باطنة.. جميلة أو قبيحة.. أو عن عاطفة بذاتها كالحب أو الاستلطاف أو الدهشة أو الاستخفاف.. إلى آخر ما يطيب للمزاج الفني أن يصوّره بلغة العاشقين أو الناقدين أو الساخرين.. كانفعالات يومية يعيشها بين الليل والنهار..

ويطول الجدل بين (الوزير) و (الكاتب) ثم قد يشترك شخص ثالث معهما في الحوار، إن تغلب الكاتبُ وضغط قلمه ليكتب خواطره أو يومياته كما هي بدون أية مواربة أو غطاء.. ذلك هو (الشخص الطبيعي) الذي يحاول المواءمة عادة بين ما ينبغي وما لاينبغي.. مسترشداً في ذلك بكل ما مرّ به وبالآخرين من تجربة واعتبار.

إنه يتدخل حينئذ ويقول بهدوء:

- لاينبغي أن يذكر الإنسان كل شيء وكل حدث وكل قصة.. إن هناك ما ينبغي ستره كعورات النفس والسلوك وإن زعم بعض من كتبوا عن حياتهم ويومياتهم.. إنهم كتبوها كما هي..

لقد زعم شيئاً كهذا (جان جاك روسو) الكاتب الفرنسي المعروف عندما كتب اعترافاته وقال:

إنها تحدثت عن كل شيء في حياته بمنتهى الصدق والصراحة.. ولكن بعض النقاد زعموا في مواجهة اعترافاته، إنها لم تستوعب كل شيء، وأن هناك ما ستره ولم يذكره في الاعترافات، وهذا معقول، فما ينبغي أن يكتب الإنسان كل شيء إلا إذا كان (بوهيميا) أو شيئاً ممن يُدْعَوْنَ (الخنافس) أو (الهيبز) آخر

صرخة في رقي الإنسان!

ويظل القلم صامتاً في هذه الأثناء..

وقد ينتصر شخص ما لعله الرابع أو الخامس باسم الإرادة.. لايبالي أن يكتب عن انفعال بعينه ويتجاهل انفعالات أخرى تطلّ على الفكر، وتدور في النفس، وتكاد تسبق إلى القلم.. كيف أخنقها ليكتب القلم؟!

وأشعر حينئذ بأن التعب - ولعله شخصية سادسة- أقوى من إرادتي بعد كل هذا الحوار وصداعه الطويل.

وقد أتغلب على التعب باسم إثبات الذات- على حدّ تعبير أخينا العمير- وإن كانت الدنيا عندي أهون كثيراً من محاولة اثبات الذات فيها، إلا بما يحسنُ به مصير الإنسان بعدها.. وهذا يتطلب إثبات الذات بل قد يتطلب نكرانها.. وتفويض الأمر لله ولرحمته.. إلى الأبد.

ولكن الوقت- بعد كل ذلك الحوار، والتعب، والتغلب عليه، لم يعد فيه متسع لمحنة الفكر والقلم، وهو على أشدها أحياناً. وهناك متطلبات الغد مما ينبغي أن أضع نفسي من أجله على فراش النوم، أو في أي وضع مريح ما أمكن لمعايشة الغد ومتطلباته.

وقد أطرح الخمول جانباً.. وليكن ما يكون من أمر الغد والنشاط المكدود فيه بعد سهر أو جهد يطول أو يقصر مع القلم، والحرف، والأفكار.. وأكتب أي انفعال يظل يؤرقني حتى أضعه على الورق..

وأفكر بعده في النشر، فإن الحرف المطبوع أدعى لاثبات الذات!

وإذا هو غالباً بعد النشر شيء مَسَخَتْه المطبعة.

جملةٌ بأسرها سقطت من أول الكلام أو خلاله.. وكلمات طبعت في سطر آخر، محرفة إلى ما يعطي غير أو ضد المعنى المقصود.. وعبارات لاتبين من رداءة

الطبع.. إلى آخر ما قد يتحول معه اثبات الذات إلى اثبات كلام معقد ، أو تافه، أو غير مفهوم..

وأخيراً لا آخراً أعود لحساب الزمن.. لا أكاد أجده إلا كما أجد الماء في كفي من جدول كالسراب في صحراء!

وعلى سبيل المثال هذا الكلام أو هذه الثرثرة.. لقد كتبت جزءاً منها في شهر، وأجزاء منها في أشهر بعدها.. مع أنها انفعالات مكتوبة في داخلي، وكلما سنحت الفرصة لأكتبها طرأ ما يلغيها في الحال.. حتى انقطعت لها آخر الأمر، وأفرغت ما تبقى منها، أو بعضه على الأصح، فمازلت أشعر بأن في النفس بقايا.. ولكن التعب قد أدركني حقاً..

وأشعر مقدماً بما قد يحسّه القارئ - نتيجة الفصل بين فترات كتبت فيها هذه الثرثرة - من فقدان التوازن أو الانسجام بينها.

كما أشعر أيضاً بما قد يقال عنها أو عن بعضها على نحو ما أسلفت.. أو بما قد يثار بعدها من تعليقات إذا كانت فارغة فسأتركها كما تركت وأترك مثلها للهواء، وإلا فقد أحاول أن أكتب جهد المستطاع.. أو أصمت.. والصمت خير في الأغلب الأعم، بل إن لي اقتراحاً قديماً يعرفه بعض الأصدقاء، وهو أن تعقد مؤتمرات للصمت، بعد أن جرب العالم مؤتمرات لاتكاد تحصى للكلام، ثم لم تحسن نتائجها كما ساءت إلا ما رحم ربك.!

مؤتمرات للصمت.. وفترات يتفق الناس عليها وعلى الصمت فيها.. لعل هذا أحسن وأدعى للخير والسلام ولا أدري كيف تجري أحداث صمت كهذا أو مؤتمرات وفترات كهذه، كما قد يدري ذلك خيال قصصي بارع لايضيق بأي اتهام عقلي يسدد إليه من علماء الكلام.

أهل (أبولّـو)

يُذكرني هذا العدد الأول من مجلة (اقرأ) بعربة (أبولّو) فمنذ طرأت فكرة المجلة في رأس من لا أدريه على وجه التحديد من أهل (البلاد) كان الدكتور عبدالله مناع - ولعله مازال- في دوامة ضخمة كالتي كان فيها أهل (أبولّو) قبل وخلال رحلتها بين الأرض والقمر.. ولم يسلم أصدقاؤه من شرٍّ هذه المعاناة أو خيرها كلما دار البحث، متصلاً ومنقطعاً، حول شكل المجلة.. وحجمها.. وغلافها.. وأبوابها ومن سيكتبون فيها.. والصور ووكالات الأنباء التي ستغذي المجلة بكل ما يفتح شهية القراء، ويحرك وعيهم ويشد كيانهم أمامهم، فتبدو كالعملاق أو كآرم استرونق.. أول إنسان هبط على القمر؟.

ثم لايكاد ينسى مادياتها أيضاً في هذه الأثناء، وموازنتها بين الدخل والخرج، وقصة العجز بينهما.. إلى آخر ما قد يشكل صداعاً في رؤوس أهل - البلاد- وأصدقائها، ولكنه صداع كالنشوة!.

ولقد عشت معه طويلاً في جوّ هذا الصداع.. وأتذكر أحياناً وهو يحاورني قصة الطبع والتطبع.. وكيف تعذر انتصار الطب في تطبّعه على الأدب في طبعه رغم حكم المهنة ووظيفتها التي مارسها في المستشفى ثم في العيادة ورغم نجاحه فيها.. ربما على كره من الطبع الأصيل!

ولقد استكتبني كغيري، وعلى وجه التحديد سألني أن أكتب شيئا من

الماضي.. وفي النفس حنين إلى أيه (ذكرى) مضت كحنين الطائر إلى الوكر وجو الوكر.

من يدري؟ ربما فعلت، غير أنني الآن لم أجد غير ما أسلفت.. شيئاً كالحشو أو كالضياع.

ثم إن ليَّ رأياً قد لا يتفق مع رأي المناع وسواه في الصحف والمجلات التي صدرت وتصدر من وقت لآخر في أي بلد عربي، وهو ترجيح الاكتفاء بأقل ما يمكن منها، وبالأساليب والعناصر الملائمة فيها لرفع القارئ إلى مستوى أعلى مما قد لا تحققه الكثرة ومحاولة الصدور معها كيفما اتفق.

ولكن الدكتور يتخيل هذا المستوى الأعلى لمجلة (اقرأ).

وأشهد بأنني قد لمحت الخير ونواياه للمجلة وأهلها وقرائها في دفقات حوار الصديق المهووس باسمها ولحساب أغراضها.

إنه يحلم -إجمالا- بأن تسدّ فراغاً كالفراغ الدولي في قضية الشرق الأوسط!

ويحلم بها طائرة الصيت في دنيا الخبر.. والصورة.. والأدب.. والسياسة التي قد تجرّ قضية الشرق المذكور وقضية العالم بأسره إلى أسوأ حال.. بفضل غرور بعضهم وانحلال بعضهم!!

ويتابع الدكتور أحلامه بحماس شديد..

وأتابعه وإياها بإشفاق وأمل في أن تتحقق، بعضاً أو كلاً، أن لم يَخُب الظن بالمقومات.. لا سمح الله.

النقـد. . للتفوّق؟

يضيـق الإنسـان عـادة بالنقد.. ذلك هو الأصل، أو هو حكم المجموعـة التي تتطاحن في داخل كل منا، وتتـفق على حب الظهور والتـفوق كل يوم، مع أن هذا قد يساعد عليه النقد سواء كان هادفاً موضوعياً، أم كان صادراً عن الحقد أو أية انفعالات مشابهة متوقعة في كل منا، أم كان نقداً ملؤه اللمس والتجريح، أو العنجهة أو أسلوب (دون كيشوت).

بل يلوح أن النقد مهما ارتفع إلى الموضوعية البحتة، أو حاول الارتفاع، فإن الانفعال الشخصي يصاحبه في الغالب طافحاً على الكلام أو مندساً ضمنه في شكل غمزة، أو نكتة، أو مفارقة تستفز وتضحك، أو تهزّ الأعصاب على نحو ما.. أو لعل هذا هو ما يتخيله الناس خاصة مَنْ هُمْ موضوع النقد على اختلاف المستويات والموضوعات، حيث قد يتبادر إلى الظن أن هناك متفرجين، وأنهم في انتظار الرد والمعركة للتساؤل عن الأقوى والأحسن، والجدل في ذلك ربما إلى درجة التطاحن والاستزادة على أي حال من صراع الديكة.

ومن هنا قد يضيع أثر النقد في التفوق الذي يرجوه كلّ منا لنفسه، مع أنه بشيء من التحكم في الأعصاب قد يساعد النقد حتى ولو كان هو الذم أو الشتيمة بعينها - على التفوق ومحاولته جهد المستطاع.

وهذا - كما أظن وكما لا أفعل- يستدعي الاعتراف سلفاً باحتمال الخطأ في

الرأي والتصرف، وبضرورة اقتباس الصواب من أي رأي آخر حتى وإن جاء في غمرة شتيمة، أو كان بادياً فيها الغرض والاستهداف.

إن ما يعجب كلاً منا قد لايعجب الآخرين، وتفاوت الناس فيما يعجب وما لا يعجب كتفاوتهم في كل شيئ، يتقارب إلى حدّ الاتفاق، ويتباعد إلى حدّ الشقاق.

ولعل الطريقة المثلى هي الاستفادة من الطيب ومن الردىء، ومحاولة تحقيق الآراء والرغبات الملائمة، وأن أهش في وجه من ينقدني بأي أسلوب كان.. بل وأن نظل أصدقاء، فإن العقلية التي تأخذ في حسابها أن الخطأ ممكن وبدون استثناء أحد منه إلا المعصومين- لا يؤثر في تعاطفها مع الآخرين أن يحسنوا أو يسيئوا في النقد أو في التعامل.. كما لا ينبغي أن يؤثر إلا إيجاباً في تصحيح الخطأ والتجربة، وفي محاولة إرضاء ما أمكن من الأمزجة كلما اتفق إرضاؤها مع مطلب التفوق.

ولكن النقد يظل غير مرغوب فيه إلا إذا كان الثناء والإطراء، وهو عندئذ قد يخدع ويجر إلى الوراء، وإلى الركود إيماناً واكتفاء بما حصل واستدعى الثناء.. هذا إن كان ثناءً صادقاً لاكذب ولا رياء فيه، وهو الأقل دائماً، وهو - على أي حال- يحرك الغرور.. والغرور أول الوهن في حياة الأفراد والشعوب!

أسلوب البــرادع!

لقد ضرب الدكتور هنري كيسنجر نحو ثلاثين (مشواراً) بين الشرق والغرب. والمحيطات.. والعالم العربي، وما يسمى (إسرائيل) ليحل مشاكل الشرق الأوسط- بالمفاوضات التي يعتمد فيها على مقومات شخصية، كالإبتسامة وبلاغة الفهم والعلم والذكاء وبراعته في الحوار.. ومع هذا أظن أنه سيضرب من (المشاوير) عدداً آخر في المستقبل إذا ظل حيث هو.. يريد أن يحل المشاكل ويرضي جميع الأطراف في نفس الوقت، وهذا شيء كالخيال المستحيل.

إنه يذكرني بأسلوب (البرادع) ولهذا حكاية.. وهي أن ثلاثة رجال قال أولهم وهو يرفع رأسه:

- انظروا.. حميراً في السماء!

وكان ثالثهم طيبا إلى حد الغفلة، فقال:

- أين.. أين؟ إنني لا أراها..

فرد الأول قائلاً:

- كيف لاتراها.. انظر.. إنها تطير في السماء كما (تبرطع) على الأرض.

فقال الثالث الطيب القلب:

- لا أرى شيئاً.. هذا (فَشْرٌ).. أنت (فَشَّار).

فاستشهد الأول بالثاني الذي كان صامتاً في هذه الأثناء.. ورفع هذا رأسه إلى الأعلى كمن يمعن النظر حقاً ليتبين ما هناك، ثم قال:

- أنا لا أرى حميراً.. وإنما (برادع)!

ذاك هو أسلوب (البرادع) يتوسط به أي إنسان مثل (كيسنجر) بين رأيين متغايرين إلى درجة التناقض، لكسب وارضاء الطرفين معا.. وهو أسلوب شائع، فما أكثر ما يختلف الناس ويتلمسون آراء أخرى محايدة أو غير محايدة، متوقعين أن تكون لصالح كل منهم وتأييده، فيتحرك صاحب الرأي المطلوب بما يشبه معنى الحرج، وكأنه يتململ بين الرأي الحق الذي ينبغي أن يراه، والباطل الذي لاينبغي أن يتورع عن القول بأنه باطل.. وهنا قد يدركه أسلوب (البرادع) فإذا هو كمن يمسك العصاة من منتصفها.. ويتنحنح في الغالب لتغطية الحرج، رابط الجأش قائلاً:

- في الواقع أن ما يراه فلان لا يخلو من صواب، كما أن رأي علان لا بأس به.. ولكن.. ولكن.. إلى آخر ما معناه: أنه لاحمير، ولا عدم وجود حمير.. وإنما (برادع)!!

وهو أسلوب قد يعالج مشكلة أو أكثر بالتسكين المؤقت، ولا يقضي عليها من أصلها إلا الحل الجذري، وما يكون هذا إلا بالتماس الحق ووجه الحق، دون أية محاباة للباطل ومنها أسلوب (البرادع) كما لايخفى.

والحق ووجه الحق في قضية كالتي بين العرب وما يسمى (إسرائيل) أو إحدى الولايات الأمريكية- كما يسميها بعض العارفين! - أوضح من أن يخفى على رجل مثل (كيسنجر) بمقوماته إذا صدقت وصدق.. وأفلح إن صدق، وإلا فسيظل يضرب من المشارق إلى المغارب وبالعكس.. إلى أن ينتهي من الحكم أو من الحياة.. أو تحل المشاكل نفسها بعزمة الحق وانتصاره المبين.

عطاء القادريـــن

يوم دعا الداعي إلى اجتماع قادة العرب في الخرطوم بعد نكبة حزيران في عام ١٩٦٧م ربما كان من رأي الكثيرين أن يحاسب المسؤول عن النكبة في ذلك الاجتماع!

إن المسئول عن نكسة فرد واحد يحاسب شرعاً وقانوناً وفي كل زمان ومكان، ويعاقب إذا اقتضى الأمر بعد الحساب اللهم إلا في أوساط المجرمين والضعفاء الذين يحكمون بالسياط، فكيف بمسئول - وقال إنه مسئول- عن نكبة هزّت قواعد العرب والمسلمين، وأفقدتنا عدداً ضخماً من الناس، والقوة ، ومن أراضينا ، ومن عرائس بلادنا.. وفي المقدمة بيت المقدس الذي عاش وسيعيش تحت راية القرآن.

فمن الحق أن يقال للمسئول كيف حصل هذا ؟ وهل يبرر تقصير القيادات ومراكز القوى كما يسمونها- ما حصل من بلاء؟.

أفلم يكن حقاً أن لا تَعْتَمِد القمة على المخططات وحدها من وراء الجدران- إن كانت- وأن تتفقد الصغيرة قبل الكبيرة وكل ما لديها من عزم واستعداد قبل أن تذهب إلى المعركة بددا ، وتعود في الحال، أسوأ بددا مما ذهبت؟

ولكن اجتماع الخرطوم أسفر عن معونات يدفعها العرب القادرون لتلافي النكبة.. وهي وجهة نظر لابد من تقديرها ، فقد كانت النكبة دما شاخبا على

الأرض من رقاب الشعوب.. وحق أن تعيش الشعوب وأن تنمو وأن يساند بعضها بعضا حتى يكون في وسعها هي أن تحاسب القمم والقيادات عند اللزوم بعد أن يقوى الكيان ويعي الناس أمور دينهم ودنياهم وعيا طيباً لاكذب ولا تهريج فيه..

وحق أن يعطي القادرون إخوانهم من العرب والمسلمين، وأن يقاسموا المحتاجين ما أفاء الله عليهم من الخير، ولا ينبغي أن يحول دون العطاء نظام الحكم أو كيانه أو تصرفاته، فلقد كنا نعطي من هنا ونشتم - بضم النون- من هناك، وما زلنا نسمع الشتيمة من يوم لآخر ولغير هدف بَيِّن سليم.. إلا أن كان هو أن نعطي جزافا، ونحن قوم نحاول النمو والتطور الصالح لأنفسنا وكذلك لإخواننا ونعطي عطاء القادرين من موجودنا بمعنى الحق علينا لإخاء صادق نرجوه في الضراء والسراء.. لا رياء ولا مَنًّا ولاضعفا، ولانتطلع إلى الشكر على ما نعطيه.. ثم لانعطي للمؤمرات أو أية مناورات نستهدفها لصالحنا..

ولاينبغي أن يُسَخَّر العطاء لمثلها أو لغير نفع الشعوب المؤمنة وقياداتها التي نرجو لها سداد الرأي والرشاد..

من حقنا أن نراقب لنتوقف إذا تبينا ضياع العطاء في وجوه لاتحقق النفع الذي نريده لنا ولإخواننا حتى نتطور إلى مستوى أفضل. ونستعيد ما فقدناه بالسلاح إن فشلت المساعي الخيرة، وتعود فلسطين إلى أهلها.. ومن حق اليهود أن يعيشوا فيها وفي غيرها، وبيننا وبينهم كتاب الله الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. وسنظل نعطي كما قلت من موجودنا على نحو ما سبق، ولانبالي أن يشتمنا الآخرون حاقدين أو مسخرين.. أو مجرد شتيمة وقلة أدب!!

والشتم بالشتم.. بل ما أهون الشتم، وقد تتطلع إليه أعصابنا.. ولكن تأباه الخطة التي يتحراها (الفيصل) وقد سلمنا بها في متاهات مضت، وبكل خير نحمد الله دائماً عليه ونسأله المزيد..

والشتم أضعف وسائل الدفاع والهجوم.. ولهذا نتورع عن الشتم والشاتمين، ونتطلع إلى التسامح وإلى مثالية فاعلة يريدها لنا ويعيشها في نفس الوقت (فيصل بن عبدالعزيز) حفظه الله وحفظ به الشمل والكيان وحقق آماله والمخلصين في النصر بالحق.. كما وعد الحق.

كلام عن المتنبِّي والمعرِّي

لا يكاد ينقطع الجدل واختلاف الرأي حول الشعر والشعراء ورجال الأدب والفن، لاختلاف مستويات الناس وأذواقهم في كل شيء إلا ما ندر، فما قد يراه بعضهم في قمة الشعر والنثر قد يراه غيرهم دون القمة إن لم يكن في الحضيض، وكلهم يبدو مخلصاً لمبادئه في تقويم ما يقرؤه على ما قد يشوب الإخلاص من هوى وانفعال!

وربما انعقد كل شيء كالإجماع على مستويات عليا ارتفع إليها بعض أهل الشعر والنثر.. والفن عموماً في الماضي والحاضر، غير أن هذا لا يمنع مدار الجدل حولهم من وقت لآخر إلى درجة الغلو والخصام، وعلى سبيل المثال أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري، فإنهما قمة في دنيا الشعر والأدب والفلسفة، وقد لمع نجمهما ومازال يلمع كل يوم، فهما من مفاخرنا القليلة الخالدة إن كان للخلود شأن يذكر في دنيانا، غير أن هذا لم يمنع قط أن يدور الجدل حولهما وأن تُصَوَّبَ إليهما سهام النقد والمؤاخذة من أبواب وطرق شتى.. رغم أن الدهر قد أنشد شعر أبي الطيب على حدّ تعبيره، وتنقلت فلسفة أبي العلاء بين أَرْوِقَة الجامعات، وتحيَّز لعبقريتهما كبار الناقدين والمفكرين على مر الأجيال.

حقاً ان شعر أبي الطيب وأبي العلاء وحكمتهما تراث مفروغ من ميزاته ومستواه، وما قرأت لهما أو لأحدهما إلا وأحسست معنى القمة البارزة والثروة

الضخمة التي تكدست لديهما بدون حساب - في قوة العبارة، وحلاوتها، والقدرة على الانفعال العجيب بمعاني الحياة ومصادفاتها، ثم تصوير هذا الانفعال بعد أن يَتَحَدَّدَ في النفس، فلا يبدو مُهَوَّشاً غير مفهوم - تصويراً رائعاً محدداً أيضاً، يستغرق القارىء بكل ما يتجدد ولا يذوب في مضامين شعرهما الأخاذ.

تصور انفعالاً كانفعال أبي الطيب وهو يرثي أمه، ولا ينسى أن يتيه بنسب أمه على الدنيا، وأن يتيه هو على أمه بذلك النسب عندما قال:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ

لكان أباك الضخم كونُكِ لي أمّا

لا أدري إن كان قد خطر معنى كهذا أو لم يخطر على بال شاعر قبله أو بعده، وهو أن يكون حسب الأم شرفاً ومجداً: أنها أُمُّ كأم أبي الطيب، أو أم أي عبقري كان.. والأب وغيره كالأم في هذا الباب!

على أنه لا شذوذ أو خطأ في أن يعتزّ أو يتيه بعض النساء والرجال - بمثل هذا الشرف إذا كان الابن من أهله وذويه فعلاً، فهو نسب حق.. وفي التاريخ حاضراً وماضياً من شرّفه أو يُشَرِّفه أن يقال أنه أبو فلان أو أم فلان، غير أن أي ابن يظهر أن سمعته تشرف أمه أو أباه قد لا يخطر له أن يعلن ذلك وإن دار في نفسه مراراً كأية خواطر أخرى قد يخجل أحدنا من إعلانها، وإن ظلّ يديرها في نفسه بعشرات الصور والألوان..

ولهذا لم أسمع هذا المعنى من أي شاعر قبل أبي الطيب أو بعده، ومن الجائز وروده، وإن كنت أستبعد انفعال أحد به كانفعال أبي الطيب في بيت يلوح كالعمارة الضخمة من الشعر..

وربما كان هذا هو الفرق بين فنان وفنان أو شاعر وشاعر، أو كاتب وآخر، فإن الانفعالات بالحوادث وبمعاني الحياة ربما بدت سهلة ممكنة، وفي وسع كل إنسان أن

يمارسها، غير أن هذا ليس صحيحاً على إطلاقه، لأنها - أي الانفعالات - عملية هضم لما يعيش فيه الإحساس، وهي ليست واحدة لدى الناس، خاصة أولئك الذين ركبهم هوس الفن والتعبير بعد الهضم.. أي بعد الانفعال، ولهذا تفاوتوا ويتفاوتون دائماً في مراتبِ التقدير والحب والإعجاب، وربما كان المزية الراجحة هي القدرة على الانفعال الطبيعي بالحوادث، وعلى صياغة الانفعال في التعبير الملائم.

أما الهضم الذي يَمْضغ به الكاتب أو الشاعر معاني أو انفعالات لعلها لم تتّضح جيداً في خياله، فإن تبليغه عنها يبدو بنفس المَضْغِ والجمجمة، ثم لا يكاد يعدو ذلك عند من يحسنون الفهم والتذوق.

وربما تورَّع شاعرٌ ما عن ذكر الحقيقة التي تتحرك في وجدانه، كحقيقة شعور أبي الطيب - مثلاً - بأن مجد أمّه من مجده، أو لعله لا يتورع.. ولكنه لا يوفق إلى مثل هذه الصياغة التي تبدو الحقيقة بعدها طريقة سائغة.. وإن بدت مدهشة أول الأمر..

وهذا يَرُدُّ مرة أخرى إلى المتنبي وإلى مزية القدرة على الإفصاح عنده عن خواطر النفس وانفعالاتها بالأسلوب القوي المناسب، وهي مزية ليست في وسع كل الشعراء والكتاب كما لا أحتاج أن أقول.

ولا يقلّ أبو العلاء عن أبي الطيب إن لم يتفوّق عليه في انصراف شعره إلى الحياة ومتعلقاتها، بعيداً عن أغراض المديح والافتتان بالمظهر وبالقشور! وبكل شيء إلا ما يقتاته كأخشن ما يكون القوت ليعيش عيشة الزاهد الفيلسوف الناقم أو المتشائم، ولهذا كان قمة مثالية في دنيا الشعر واللغة والفلسفة، لا تدانيها قمة أخرى وأي مجد آخر، وهو معذور إنْ ظَنَّ يوماً ما أنه بَزَّ الأوائل جميعاً عندما قال:

وإنّي وإن كنت الأخيرَ زمانه

لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائل

ولم يلبثْ - كما تقول الرواية - أن استوقفه غلام صغير، وسأله:

- أنت القائل كذا.!

فقال المعري: نعم.

فقال الغلام إن الأوائل قد وضعوا حروف الهجاء تسعة وعشرين حرفاً.. أفتزيدها حرفاً؟

ولم يُجِبْ من ظن أنه قد بَزَّ الأوائل، وأضافت الرواية أن المعري تنبأ بموت ذلك الغلام لفرط ذكائه، وأنه مات فعلاً وصدقت نبوءة أبي العلاء، وكأن هذا تعويض عن الفشل في إنصاف الأوائل بصدق النّبوءة في نفس الغلام الذي تحقق على يديه هذا الفشل!

المهم أنه، أي أبا العلاء، كان عبقرياً، وهذا ليس في حاجة إلى أي تأكيد جديد..

وكان يشارك أبا الطيب في مزية القدرة على أن يتصور مشاعره وانفعالاته تصوراً جيداً محدداً لا غموض أو تشويش فيه، ثم على أداء ما يتصوره بنفس البيان الحسن المحدد القويم..

ولقد تخيلتُ الموت وتخيَّله الناس كثيراً، بل لعله من النادر أن لا يتخيل الموت أو يفكر فيه إنسان.

والحياة.. هي الأخرى.. مشاعرنا تجاهها في ذبذبة مستمرة بين الحب والكره، والرضا والسخط، والألم واللذة.. وعشرات الانفعالات مما يدخل في خط الإيجاب أو السلب أو ما بينهما تجاه الحياة.. غير أن السلب كله قد يتحول إلى خط الإيجاب عند تصور الموت والتفكير فيه باهتمام، وربما بدا لبعضنا أن يسخط أحياناً إلى حد أنه يفضل الموت، غير أن هذا مجرد كلام في الغالب، يتضح كذبه

إذا لاحت أية مقدمة من مقدمات الموت في شكل مرض أو أية مفاجآت!

وربما اتخذ بعض المتشائمين من هذا السخط مبدأ شق طريقه باسم الفلسفة.!

وهكذا فعل المعري وسواه..

غير أن الذي أظن أن أحداً غير المعري لم يصور مرارة الشعور بالحياة على نحو ما في البيت العجيب الذي يقول المعري فيه:

ولو كان يبقى الحسُّ في فَمِ ميت

لآلَيْتُ أن الموتَ في الفم أعذبُ

أي انفعال هذا؟ وهل يحسنه كل الشعراء؟

إن فلسفة النقمة أو السخط على الحياة تغمر أفكار الكثيرين وتُلَوِّن أحاديثهم وإنتاجهم على مر العصور، ولكن هنا شاعر يتصور الموت والحياة، وأن لكل منهما طعماً ومَذَاقاً، وأن الحيَّ قد عرف طعم الحياة وذاقه، وأنه لو كان يبقى الحِسُّ في فمه إذا مات، لأقسم المعرِّي أن طعم الموت في الفم أحلى وأعذب من طعم الحياة رغم أنه لم يذق طعم الموت من قبل كما ذاق طعم الحياة!.

إنها شحنة ضخمة من الانفعال ضد الحياة، فيه منتهى السخط والنقمة ومنتهى السخر المرير من طعم الحياة، منذ كان المفروض أنه أعذب وأحلى ولو كان هو بملابساتها طعماً مريراً، ولكنه ليس كالموت على كل حال فيما يتصور الإنسان الذي عرف الحياة.. ولم يعرف الموت في نفسه وفي الآخرين إلا تصوراً، وحقيقة آتية لابد منها، ولا يمكن معرفة مذاقها إلا عند الوقوع!

ذلك هو أبو العلاء ومدى النقمة التي كانت بالغة في نفسه ضد الحياة.. وكان يعيشها شِعْراً يقطر على مداده الأسود، وواقعاً يصبغ حياته الفعلية بلون أسود أيضاً.. فما أكثر الذين يكرهون الحياة معذورين أو غير معذورين، ولكنهم

لا يعيشونها عيشة بائسة في مظهر سلبي خشن كالذي عاشه أبو العلاء، وهو يقضي نحو أربعين عاماً من عمره بين جدران بيت واحد يئنُ فيه وتتوالى زفراته، ليتناقلها الرواة، ولا يطوي أمعاءه خلال هذا العمر كله على غير لون محدد من الخبز والأدم لا يسد الحاجة، ولكنه يقيم أودها فحسب.. كل هذا لأنه يكره الحياة، أو لأنه حائر ضل مسراه في سبيل فهمها على وجه صحيح..

إن هذا يؤكد إيمان المعري وعقيدته، فقد وصل إلى طريق مسدود إذا انتهى إليه من لا يؤمن بخالق الموت والحياة لم تعد لديه القدرة على الاستمرار، شأن من ينتحرون والعياذ بالله.. إذ ما عسى أن يكون معنى الاستمرار في وجود بائس ثقيل على مشاعر الحي ووجدانه يعتقد أنه نهاية المطاف؟

إنما يمسك الإنسان عند هذا الحد إيمانه - إذا صحّ - بالله وبوجود آخر يتلو هذا الوجود..

وهذا - كما أظن - وحده كاف لتأكيد تَدَيُّن المعري ومن على شاكلته، وإن جرت ألسنتهم وأقلامهم مجرى الزيغ والإنحراف في بعض ما تناقلته عنهم الروايات.

السهل . . الممتنع

ما أعيب الجزالة، وما أعيب ضخامة الأداء.. ألفاظاً وتعبيراً، وأن يعنى الكاتب بأسلوبه، فإن الأسلوب هو الرجل - كما قيل - أو هو الإنسان، لشمول ما عدا الرجل بالتعريف..

والمعاني مشاعة، ومصدر الإحساس والتخيل في الدنيا مباح لي ولك وللناس على اختلاف مستوياتهم والعلامة الفارقة بينهم هي الأسلوب، وهذا كلام لا جديد فيه..

والأسلوب ليس هو التعبير وحده.. الأسلوب هو طريقة الإحساس والانفعال والتخيل والتفكير.. والسلوك والملامح إجمالاً.. ثم التعبير، وهذا لا يعني أن الأسلوب يشرح كل ذلك بالكلمة أو الأداة الفنية على اختلافها، وإنما هو يَنِمُّ عن شخص الكاتب أو الفنان كما تَنِمُّ الملامح عن الاختلاجات في داخلنا، فمما لا شك فيه أن لِكُلٍّ منَّا كونه النفسي الخاص.. كلّ منا يحبّ بأسلوبه، وكلّ منا يكره بأسلوبه.. كما أن كلاًّمنّا يسمع بأذنيه وينظر بعينيه، وأحسب أن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك قبل أن نريده نحن، ليشتغل كل حي بإحساسه.. والمشاركة أو الاشتراك بعد هذا شيء غير مستحيل.. ولكنه يجيء عفواً، والمهم من بعد ومن قبل هو وضوح الفكرة والأداء.. أي أن يكتمل نضوج الفكرة، ويكتمل إلحاق ذيولها بها..

ثم يأتي الأداء لينقلها بأمانة وإخلاص، فإن جاء الأداء مجرداً أو رقيقاً، جزلاً، أو سهلاً، منمقاً، أو عادياً، فَإنَّهُ يصور عطاء الملكة الفنية التي اكتسبناها جميعاً من التراث المحشو في أدمغتنا، ومن الانطباعات التأثرية المترتبة على ما نقرأ، وعلى ما نعجب به على الأخص مما نقرأ وننساه، ويظل صداه حيّاً فيما يسمّى الحسّ أو العقل الباطن، فما تجد كاتباً في الدنيا أو شاعراً، إلا وفيه لمحة من آخر، أو في الآخر لمحة منه.. ولكن هذه اللمحة تذوب في الكاتب أو الشاعر إلا إذا كان من المقلدين ولا شخصية له..

أما إذا لم يكن كذلك فإنك تحسّ له شخصية مستقلة تشعر بها وبأنك في مواجهة كيان خاص بمن تقرأ..

وخذ أي كاتب أو شاعر كبير من طراز العقاد أو شوقي أو الرافعي (يرحمهم الله) أو سواهم من الفحول فإن لمحة أو لمحات على أسلوبه قد تذكر بالجاحظ أو بابن المقفع أو المعري أو المتنبي أو غيرهم، ولكن أسلوب كل منهم يظل مدرسة مستقلة تلاشت فيها تلك اللمحات، ولذلك لا ينبغي أن تنصرف العناية إلى الأسلوب اللفظي، قبل أن تنصرف إلى محتوى الأسلوب..

إنك قد تريد التحدث عن الجوّ، فلا تكتفي بأن تقول مثلاً: إن الجو اليوم رائق جميل.. وإنما تختار ألفاظاً وجملاً معينة لإضفاء الروعة على المعنى كما تظن، فتقول: (الجو يبدو فتنة منمقة الحواشي، زاهية الألوان والظلال، زاخرة بفيض أدائها السحري) إن مثل هذا الأداء قد تفضله على أداء (أن الجو رائق جميل) فحسب.

وأضرب مثلاً من رسالة لأحد الأصدقاء جاء فيها (والأفكار بعد ليست أكثر من شعور، وصور، وظلال.. يفسرها الأداء ويجلو منها المعاني المبتكرة أو المعادة، وان الاتفاق في الآراء، أو فيما يؤدي إلى فهمها من الألفاظ التي تحمل معانيها

بين كاتب وآخر، ليس هو المحاكاة في النسج والتصفيف ما لم تمتزج الخواطر، وتختلط الأفكار، ثم تحتك فيكون النتاج وليداً لها بعد ذلك).

هذا كلامه بالحرف.. وهو عبارة قوية لو وضعتها ضمن عبارات كثيرة للعقاد- مثلاً - لما أنكرها القاريء- العادي على الأخص- ولكن رأسه سيدور فيما تعنيه هذه الجملة الطويلة، كما لا يدور رأسه أحياناً في فهم مايعنيه العقاد من أية جملة أطول أو أقصر، وأكثر تعقيداً منها.

لقد دار رأسي بالفعل ولم أفطن للمعنى المقصود بها وفيها، إلا بعد جهد غير يسير، ومازال متردداً في تقريره.. انه - كما أظن - يريد أن يقول (أن الاتفاق في الآراء وفي الأسلوب ليس هو من عمل التقليد في كل حال.. إنه قد يكون عمل امتزاج الخواطر واختلاط الأفكار، واحتكاكها، حيث يكون الإنتاج بعد ذلك وليداً لها)..

أحسبه أراد أن يقول ذلك.. ولكنه أحب أن يقوله كما يريد بأداء قوي مجرد فيما يظن لإظهار المعنى قوياً، ذا طابع أو دوي خاص، ولو على حساب انتهاك جوهره أصلاً، لتبدو العبارة موفقة تحت ظلال شتّى قد يخفى بينها المعنى المقصود.

وكثيرهم الذين يأسرهم الأداء أسراً من الأولى أن يحاربه الكاتب أو الشاعر قبل التغلغل فيه.. وأنا عندما كتبت قبل أعوام كنت أعني بأن يصاحب العبارة شيء كقرع الطبول، ولم أتخلص من ذلك إلا بعد أن فهمت أن التعبير شيء آخر غير هذا الأسر اللفظي.. وقد يكون فيما أكتب شيء من التجويد، أو لا يكون، ولكنني - كما أظن - لا أجني به على أي شيء أريده معنى، وتفسيراً.. على أنني لا أتكلف كلمة بعينها أو عبارة بذاتها.. فما أكتب إلا كما تنساق معي العبارة التي تمثل ما أريد أن أكتب بالضبط.. ربما كان ذلك غير مناسب، فإن بعض الكتاب - وهم الأقلّية - يستطيعون أن يكتبوا بما يسمى السهل الممتنع ما لا يستطيعه من يجهدون أنفسهم كل الإجهاد في سبيل التفوق.

إنها براعة أو مثالية أن تعبر تعبيراً مؤثراً رائعاً عن أفكارك بسهولة ممتنعة وممتعة في نفس الوقت، بحيث يبدو ماتقرؤه سهلاً رائعاً لا صعوبة في ألفاظه أو في علاقتها ببعضها، أو بمعانيها ومضامينها أو في الأداء إجمالاً.. ثم يبلغ تأثيره منتهاه. وقد تحس أنت أو أنا أن في الإمكان إملاء مثله بيسر ودون إجهاد، ولكنه سيمتنع في الواقع إلا على من أوتي موهبته مع ملكة البيان والقدرة على الجهد الملائم للسهل الممتنع.

وليست الفصاحة أو البلاغة وقفاً على هذا اللون كما قد يتبادر إلى الذهن مما أسلفت، فإن أسلوب العقاد - مثلاً - ليس هو من السهل الممتنع في شيء، ولكنه قمةٌ في البَلاغة.

والقرآن الكريم وهو المثل الأعلى - فيه من اللونين.. فيه من السهل الممتنع أعلى القمم كبعض سور الصلاة وكثير من آياته الطوال والقصار، وفيه من الصعب الممتنع أعلاها أيضاً.. كنهاية سورة (سبأ) وكسورة (والعاديات) إلى آخر مايستعصي عليَّ التحديد، لاسيما وأنا أستطرد لهذه الإشارة السريعة إلى السهل الممتنع والصعب الممتنع استطراداً لا أقصد به البحث المدرسي، وإنما هو من تداعي الخواطر كما يقال.

وهناك سهل كالذي يجري على أقلام تعودت أن تخوض في الموضوعات السياسية أو الاجتماعية أو الصحفية إجمالاً بما لا صعوبة ولا امتناع فيه، لأنه مجرد علك وسرد أجوف ترن ألفاظه من الفراغ وإن بدت مصقولة أحياناً.!

كما أن هناك صعباً يشوبه الرمز والإيماء إلى صور ومعان غير مفهومة عن قائليه - في ظني - قبل غيرهم، ولكنه محسوب من القول البارع كما يظن قائله.. فهذا ليس ممتنعاً وفي وسع كل من أوتي القدرة على رصّ ألفاظ وعبارات يلفها الضباب والغموض أن يمارسها باسم الرمز أو الأدب الرمزي..

وهي كذلك حقاً، ولكنها ترمز إلى أن وراءها كاتباً يتعثّر بين الفشل والنضوج.!

إن طريقة الإنسان في التعبير بالكلام أو بالرسم أو بأية وسيلة من وسائل التعبير هي طريقته - غالباً - في الحياة، فهو يعبّر لما يحيا ويحيا لما يعبِّر.. وفي ضوء كهذا تطيب قراءة الكتاب والشعراء وأهل الفن والتعبير عموماً..

وأخيراً ما أوسع مجال القول لمن يريد البحث في دنيا القول والكلام!

هاوي أدب

يطالبني بعض الأصدقاء بالعودة إلى الأدب أو إلى النثر عموماً، وخصوصاً تحت عنوان (ذكرى) ذلك الذي كتبت تحته مراراً، ويعاودني الحنين إليه.. ربما لأنه شيء مضى مع ما مضى من العمر.

وباب الذكرى أو الذكريات واسع كبير يدخل الماضي بأسره منه أو بقضه وقضيضه كما يقال، وهو مفتوح على مصراعيه داخل الإنسان لمرور الذكريات عفواً.

وكما قد يقف رجال المرور ببلاهة، أو بدونها، أمام اختناق حركة المرور في أيام الحج أو غيرها.. في بلادنا وفي غير بلادنا، ثم قد يرتجلون من التصرفات مايزيد الاختناق اختناقاً- كذلك يقف الإنسان أمام اختناق حركة الذكريات داخله في استغراق وذهول عما يمكن لفك هذا الاختناق، منذ كان ضعيف القدرة على التحكم في داخله إلى حد بعيد، ثم قد يثقل التعبير عن الذكريات وهي تمر في نفوسنا على هذا النحو، وبأسرع مما يستطيع التعبير ملاحقته على مَرِّ اللحظات، وبدون أي تصنع كالذي نحتفل به إذا نحن حاولنا التعبير عنها.

إننا نتصنع لنتفادى ما لا ينبغي أن نُعَبِّرَ عنه، فما كل ذكرى تقال في كل حين!

ثم كيف أصوغ مايمكن أن يقال بعبارة مشرقة لا يموت الحرف فيها، بل يحيا في ذوقنا وفي أفكارنا معاً أنا وأنت؟

إن في الإمكان أن يملأ القلم حيزاً من الورق، غير أن المهم هو أن لا يكون تافهاً، وأن يتخطى درجة القبول إلى اللذة والارتياح من الكاتب لنفسه قبل الآخرين، فإن لم يكن كذلك فان التصنع أو الاحتراف سيغلب على طابع الكلام.. هذا إن لم يكن حامل القلم من غير أهله لضعف الموهبة أو لضعف روافدها أصلاً فيه.

أضف إلى ذلك ضعف قدرتي بعد انقطاع طويل كالذي انقطعته عن النشر والأداء، وشغل أطول بما أنا فيه، مما يضطرب به المزاج ولا يستقر، وتتبدّد فيه النفس ولا تتجمّع إلا فيما ندر مما قد لا أدري معه ماينبغي أن يقال وما لا ينبغي أن يقال!

إنها صعوبات شتى تواجه الكاتب وتُكَلِّفَهُ من الجهد والوقت مايحيل الكتابة إلى عمل ثقيل أو بغيض اليه، خاصة إذا أراد الالتزام بها كل يوم، إلا إذا اتخذها عملاً واجب الأداء على أي نحو كان.. ولم أتخذها أو ليس في حسابي أن أتخذها كذلك إلى الآن..

ثم أنني لم انقطع عن الأدب أو أذهب عنه، حتى أعود اليه، فلقد كنت من بداية الأمر ومن أيام الدراسة هاوي أدب.

كانت الرياضيات من أثقل الأشياء على مزاجي، فقد كنت حينذاك بين مدّ الحياة وجزرها أحسّ أن في داخلي شيئاً يتساءل عما هناك؟ وعما بعد الحياة وماقبلها؟ وماهي؟ ولماذا؟ إلى آخر مايدفع إلى القراءة، وحب الكلمة، والاستغراق الصامت في متابعة أفكار الآخرين وتعابيرهم عن تجربة هذه الحياة، ومحاولة التعبير عن هذه التجربة في نفسي ما استطعت.

وكنت بين عواطفي وانفعالاتي، ومايتقلّب به الليل والنهار على نفسي -

أتطلّع إلى الأدب والشعر كما يتطلع المسافر إلى واحة يستْظِلُّها من الرمضاء، أو كأنما لأتَنَفَّس من خلال ماأقرأ وما أتخيّل..

وظلّ شيء كهذا - سَمِّه الأدب إن شئت - مزاجاً عندي يبحث عن الكلمة الحارة الصادقة ليقرأها أو يكتبها، وعن الأنفاس الطيبة لتُحَرِّك المزاج وتُقَلِّبَه على حقائق الحياة.. والموت معاً، وتشده إلى كل خيال أطيب وأشهى، بأسلوب لا يثقل ويريح الأعماق.

وأحسب أن مزاجاً كهذا لا يذوب ويتلاشى في نفس الكاتب أو الشاعر وإن لم يُنتج لأسباب أقوى من المزاج.

ربما كانت هذه الأسباب هي الوظيفة أو الانشغال بكل ما لا يستطاع معه الإنتاج، أو الكسل وحده أو غير ذلك.. وأياً كانت فإن المزاج سيظل حيث هو كالشعلة المضيئة في ظلام الأعماق.

إن كثيراً من الشعراء والكتاب المجيدين يبدو أنهم صامتون من وقت طويل، فهذا لا يعني أن مزاج الأدب قد سكت في نفوسهم، أو انطفأ للأبد والمزاج أصل فيهم..

إن القراءة قد تغني وتسدّ حاجة المزاج إذا كان هو من هواة الانفعال الصادق والتعبير الملائم، وكانت قراءاته في دنيا هؤلاء الهواة.

ولقد كان للأدب دور قيادي يوم كان الوعي عنصراً واضحاً فيه.. ليس عندنا فحسب، فلقد كنا ومازلنا في المؤخرة، وسبقتنا البلاد العربية الأخرى أو بعضها كثيراً أو قليلاً في مضمار الأدب.

ولكنها اليوم تعاني من عودة الأدب إلى مؤخرة الصفوف ماتعانيه.. باستثناء ماترتفع به أصوات الطبول.!

وماأجدرنا بأن نأخذ مكاننا في المقدمة منذ كان مشرق الأدب العربي من وراء الجبال والتلال في صحراء هذه الجزيرة..

وما أحسبنا سنفعل إذا نحن لم نُحاول الوعي وإيقاظ الوعي في ضمائرنا وعلى أقلامنا.. وبالتالي في ضمائر الناس وعلى سلوكهم وتصرفاتهم..

إنني لا أدافع بما أسلفت عن مزاج الأدب أو هوايته في نفسي، فالأمر أهون كثيراً من الهجوم أو من الدفاع، ولكنني ألتمس المعذرة لمن يصمت أو لا يصمت، فكلاهما مغمور بدواعيه، وما أكره أن أكتب كل يوم أو كل أسبوع، أو بين كل حين وآخر.. ولكنني أكره أن أكتب شيئاً لا أنفعل به صادقاً، أو أنفعل به ثم لا أستطيع أن أكتبه بنفس الصدق والانفعال.. هذا إذا لم يصادفني الكسل وينحط بي عن الحركة إلا فيما يشبه اللف والدوران حول النفس أو داخلها مع الذكريات وبقايا الحياة، ومع ما أدريه أو لا أدريه من عوامل الصمت، وتناول الأمور من أيسر الطرق أو أصعبها.

إنني قد أحس شيئاً كالمعنى يضج في صدري، فما أَتَبَيّنه كما ينبغي لمن يريد أن يحوله إلى أحرف وكلمات.. أو إلى أي أسلوب تعبيري آخر، ولهذا أتوقف.. ثم قد أَتَبَيّنه وتتوارد عدة صور لفظية له بالجملة، فأتوقف لأختار.. وقد أنسى فتسبق إلى القلم عبارة أخرى لم تكن في الخاطر أو الحسبان اطلاقاً..

وهكذا يلوح أنه ليس في وسعي أن أمسك القلم وأبدأ كراً أو سرداً كما لو كنت أنقل من لوحة في خواطري إلى آخر الكلمة أو الكلام دون أي توقف أو انتظار، بحيث يكون في وسعي إنجاز ذلك حالاً.. وعلى مايرام!

ربما كان ذاك في وسع من يكتبون كيفما اتفق!

ومن هنا يلوح أن الأمر كما قيل ويقال عن قصة النشر والعوامل التي تحكم النشر، وتُسيء إلى ذوق القاريء الهادف وإلى مستوى الإنتاج.

وترتفع الشكوى بين كل حين وآخر في صحف لعل معظم مافيها دون ماكانت عليه هي نفسها غير بعيد من الأمس.

وعلى غرارها ماتقذف به المطابع ووسائل النشر والإذاعة عموماً، فإنها شيء لا يُقرأ أو يُسْمع إلا ممن لا يهمه الضياع.. هذا مع وجود القادرين على رفع المستوى في كل مكان.. غير أنهم أقلية في مواجهة أكثرية طافية على السطح، وأحسب أن أكثرية الناس قد تفضل السطح لا الأعماق في هذا العصر!

ومن هنا تبدو ظاهرة المستوى المنحط في دنيا الشعر والنثر وكأنها تساير أمزجة الناس.. بل إن الأدب لا يسعه أن يكون غير ذلك، بحيث يَجِدُّ والناس هازلون، أو يهزل وهم جادون!

إنه يعطي من هذا وذاك.. ومن ألوان الحياة كلها بما فيها الزيف والتزييف.. وهكذا.. إلى آخر ماقد تغدو به ظاهرة الانحطاط والمستوى المنحط في الأدب ظاهرة طبيعية كغيرها مما كان أو يكون.

ومع كل ماأسلفت سيظل المزاج حيث هو.. هاوي أدب، أو هو في خدمة هواية الأدب.. لا ينقص إن لم يزد.. وهو شيء لا أهمية له على كل حال.

شعلة الأدب

كنت ومازلت أحلم بمجلة أدبية بحتة.. وكلما صدرت أو أخذت في أسباب الظهور مجلة جديدة ظننت أنها هي الحلم الذي أتمناه، فإذا هي شيء آخر يخيب الظن..

يوم كان أهل (البلاد) يفكرون في إصدار (اقرأ) سألت عن هدف المجلة وأغراضها فقيل أنها أسبوعية.. سياسية.. اجتماعية، أي على نحو ما يكتب الآن على غلافها وعلى صفحاتها.. غالباً!

وأذكر أن حواراً جرى بيني وبين رئيس تحريرها الصديق عبدالله مناع حول الأدب.. ولماذا لا يكون هو موضوع المجلة؟

وأحسبه قد أجاب بأن المطلوب في السوق هو ما تراه في المجلات المماثلة.. وسكتّ على مضض.. ويوم سمعت عن مجلة (أكتوبر) ورئيس تحريرها أنيس منصور، وهو كاتب صحفي وأديب معروف - ظننت نفس الظن.. وقلت ربما جدد عهد مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات، ويكتب فيها الرافعي والمازني والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم.. و.. إلى آخر هذه المستويات، ولكن (أكتوبر) صدرت على غرار مثيلاتها.. والسبق بينها جميعاً على الأغراض السياسية.. والخبر اللامع حتى ولو كان خبر كلب أو حذاء مصقول لممثل أو ممثلة.. إلى آخر متطلبات السوق، مع أن هناك متطلبات أخرى لأهل الفكر والتأمل،

وعشاق كل أسلوب مليء ممتع يفتح أمامهم آفاقاً لا يعرفونها، أو يعرفونها ولكنهم ينسونها في غمرة السوق العام! ولقد كان الأدب - وأحسبه مازال صالحاً أن يكون - شعلة في ضمير الحياة.. واستنطقوا التاريخ، فقد كانت الكلمة دائماً طليعة تحركاته على مر الأجيال..

كان الشعر الجاهلي والنثر الجاهلي - على ندرة هذا - قمة في الخيال والتعبير.. وفي الدلالة على أن وعياً أخذ يتطلع أيامها إلى ضوء بعيد.

وجاء القرآن ضوءاً ومثلاً أعلى في كل شيء.. في المعنى - ويا له من بحر يفوق البحار - وفي الكلمة التي تتحطم دونها أعناق بناة الكلمة في كل زمان ومكان.. وفي الوعي الذي ينبغي له أن يسود الناس، وهو كاف كل الكفاية لأن يثير هذا الوعي ويحققه دائماً، ومع هذا ظلت شعلة الأدب في مقدمة تركات التاريخ.. سواء اقتبست من القرآن فأضاءت طريق الوعي الحق الصحيح.. أم من الشيطان لإيجاد وعي مضلل بالأباطيل..

كانت القصة، والمقال، والكتاب.. وديوان الشعر - مهماز كل ثورة على الواقع إذا كان مما يسوء به حال الشعوب.

ربما ضلت الأقلام وضلت الثورة التي تحركها عن طريق الخير إلى الشر..

وربما كان هدي الأقلام خيراً لا ضلالة فيه، ولكن ضمائر الذين أيقظتهم الأقلام لم تعش في ضوء هديها، وانحرفت إلى الهدم كيفما اتفق.. كنتيجة طبيعية للشعور بمرض الواقع، ولفقدان الوعي أو ضعف مقوماته الصحيحة في ضمائرهم..

إلا أن الأدب الحق يظل - كما أسلفت - شعلة في ضمير الحياة، تخبو وتنطفىء مهما قاومها الطغاة والضلاليون..

فإذا اختفى الأدب فإنه سيظهر مرة أخرى.. ومهما راجت الصحيفة أو المجلة بدونه في سوق اليوم فإن ذلك الأدب المنشود لم يمت.

إن في شباب الجيل حيرة بين كل تيار وآخر مما تطفح به مسيرة الضلال في هذا العصر، وإن أدباً كالذي أعنيه قادر على أن يرد مثل هذه الحيرة إلى صوابها، لا الذي يروج في معظم الصحف والمجلات، مما يلوح وكأنه يقود الحيرة إلى ضلال بعيد..

ستتحرك شعلة ذلك الأدب، وسيحمل القلم لواءها ليضيء الطريق بين يدي الجيل الحائر في معظم الشعوب!

أسئلة وأجوبة . . (من هو محمد عمر توفيق؟)

س ١ - من هو محمد عمر توفيق ؟

ج ١ - هو إنسان بطبيعة الحال.. هكذا كان.. ربما - لو كان لي الخيار لاخترت أن أكون شيئاً آخر أعلى أو أدنى.. ولكن لم يحدث قط أن كان لأحد الخيار فيما كان أو يكون.. وإذا كان المقصود بالسؤال إيضاح حالي ولادة ونشأة.. وحياة إلى الآن، فالمفروض أنني ولدت بمكة المكرمة سنة ١٣٣٧هـ وعلى قول آخر سنة ١٣٣٦هـ، وتعلمت بالمدينة المنورة في مدرسة العلوم الشرعية يوم كان المستوى العالي بها يضاهي المستوى العالي في المعاهد المماثلة في العالم العربي حينذاك.. ثم تقلبت بين الوظائف.. حتى أصبحت وزيراً بقدرة قادر.! وبالطبع ان بقية التاريخ مرهونة بوقتها.. ثم أضيف أنه إذا كان المقصود بالسؤال حالة أدبية معينة.. فهذه الحالة كالحس منذ انتفضت بها وأنا أعيش منها فيما يشبه قشعريرة مستمرة أجار الله من يسمع أو يقرأ.. وإلى هذا الحد أعتقد أنني قد أشبعت السؤال جواباً!

س ٢ - لماذا لم يصدر لك مؤلف بعد كتابك «٤٦ يوماً في المستشفى» و«طه حسين والشيخان»؟

ج ٢ - أولاً لقد نسيتم الثالث أو الثالثة.. وهي قصة اسمها «الزوجة والصديق» وهي ليست موجودة في السوق.. لا لأنها قد تخطفتها الأيدي.. بل لأنها انقرضت كأية سلالة ليست صالحة للاستمرار كما يظهر!

أما لماذا لم يصدر لي مؤلفات بعد ما ذكرتموه بالإضافة الى القصة المنسية أو المنقرضة فالجواب هو أنه ليست عندي مؤلفات تصلح للنشر في الوقت الحاضر. ربما كان في الرأس شيء كثير أو قليل، وربما ارتكبت يوماً ما حماقة إخراجه إلى حيز الوجود.. ومن يعش ير وقد يؤلف!

س ٣ – لكل شيء دلالة. بماذا توحي لك هذه الأشياء، منديل ممزق.. آثار أقدام على شاطىء.. بحر بلا ماء.. شرايين بلا دماء.. عيون بلا رموش؟

ج ٣ – معذرة فإن السؤال عما توحي به إليّ الأشياء التي ذكرتموها قد حيرني طويلاً.. وتبيّنت آخر الأمر أنني لا أستطيع أن أصور حقيقة انفعالي سلفاً بأشياء أتخيلها فحسب.. قد ينفعل الإنسان بخيال لذيذ أو مؤلم تجاه شيء معين يعايشه أو يتصوره مجدداً.

قد أتصور لذة القبلة، أو الوردة، أو الرحلة الغامضة في عالم الأحلام.. كما قد أتصور ألم المرض أو الضرب فأحاول تصوير اللذة هناك والألم هنا.. ثم إن ما توحي به هذه الأشياء أو غيرها يتوقف على ظروفي النفسية عند مشاهدتها أو تصورها، كما يتوقف أيضاً على ظروف الأشياء نفسها، فالمنديل الممزق إذا وجد في صحراء غَيْرَه إذا كان في غرفة نوم.. وغيره أيضاً إذا كان في خميلة ورد فهو قد يوحي الشعور بجريمة.. أو بحالة حب أو بحالة عصبية.

كما قد توحي آثار أقدام على شاطئ بقصة هارب، أو مخبول، أو شاعر، أو فيلسوف.

ومذا عسى أن يوحي بحر بلا ماء إلا أن طائفاً خطيراً قد طاف بالأرض؟

والشرايين التي بلا دماء صورة قد توحي بالموت وإن كانت الصورة غامضة إلا على نحو علمي ربما يفهمه الأطباء..

وعيون بلا رموش ما أحسبها توحي بغير الرثاء والألم.. وربما التساؤل عما إذا كانت من أصل الخلقة هكذا.. أو تقصفت الرموش فيما بعد.. وهكذا يلوح أن من الصعب أن يفتعل الإنسان انفعالاً معيناً تجاه شيء معين لم يقع بعد.. ثم ما الحاجة إلى مثل هذا الافتعال؟

س ٤ - ما هي مشاريعك الأدبية القادمة؟

ج ٤ - إن مشاريعي الأدبية القادمة يظهر مما سبق أنها ماتزال في رأسي.. وعندما تتحول إلى خطوط محددة على الورق فسيكون الكلام عنها مناسباً.. على العموم لا تخلو قشعريرة الأدب والكلام من مشاريع.

س ٥ - الأدب في بلادنا إلى أين يسير؟

ج ٥ - الأدب في بلادنا يسير إلى.. الأدب أحياناً.. وأخرى إلى قلة الأدب!

س ٦ - هل أنت راض عنه؟

ج ٦ - أحياناً.. مع ملاحظة عدم أهمية رضاي؟

س ٧ - ذكرى.. ماذا تمثل في حياتكم.. وهل تفكر في جمعها في أحد الأيام في كتاب؟

- «ذكى» تمثل شيئاً مما في صدري.. وأفكر من وقت طويل في جمعها ضمن كتاب، على ما أحس من تفاهته مسبقاً!

س ٨ - صحافتنا أين هي من صحافة العالم العربي؟

ج ٨ - صحافتنا على نفس مستوى صحافة العالم العربي اليوم ربما كان هناك تفاوت في التوزيع.. وفي بعض المواد، ولكن المستوى متقارب إن لم يكن واحداً عل أي حال، مستوى لا يرتفع ولا ينحط عن مستوى الحياة!

س ٩ - حركة الأدب الشابة ما مدى النجاح الذي تتصور أنها حققته. أو قد تحققه وما هي ملاحظاتكم عنها، ومن يمثلها في رأيكم.. ولماذا؟

ج ٩ - حركة الأدب الشابة طيبة وماضية في طريقها كأية حركة مضت قبلها.. وهذا في حد ذاته نجاح بصرف النظر عن أية ملاحظات وردت أو ترد عليها كضعف اللغة.. والنضوج.. والمقومات.. والخلق. وأسارع إلى تقرير أنها وردت وترد أيضاً على الحركة «المشيخة» التي اجتازت مرحلة الشباب!

وبالطبع.. إلا من رحم ربك في الحركتين أو في الجيلين!

س ١٠ - إما أن ترى وإما أن تموت ما رأيكم في هذه العبارة؟

ج ١٠ - هذه عبارة يتوقف إعطاء الرأي فيها على أن توضع في سياق مفهوم! أما هي في صيغتها الحاضرة فإنها أقرب إلى «الدردشة» إذ ما هنا مقابلة بين الموت والرؤية.. إلا إذا كان هناك حكم صادر من طاغية أو مجنون في حق أعمى يراد له الموت بهذه الطريقة!

س ١١ - هناك من يرى أنه لن يكون لنا أدب.. وهناك من يرى العكس؟

ج ١١ - لكل رأيه.. ولكن من يرى أنه لن يكون لنا أدب ليس جديراً بالمناقشة!

س ١٢ - في كتابك «٤٦ يوماً في المستشفى» كتبت عن الألم وأنت مريض. ماذا يمكن أن تقوله عن الألم وأنت لست مريضاً؟

ج ١٢ - أقول: أنه هو اللذة أو مصدرها.. أو أسلوبها.. والفلسفة في هذا طويلة.. هناك فيلسوف يوناني قديم يشرح هذه الفلسفة كما أتذكر.. اسمه «ارسطبس» وغيره من الفلاسفة في الماضي والحاضر.. مجرد فلسفة لا تنفع ولا تضر!

بين الإرادة . . والإمكان؟

لم أعد أحب أن أكتب كما كنت من قبل.

إنني منذ حين أفضل أن أقرأ، وأن تستغرقني مطالعات مجدية في الكتب والحياة.. ربما كان ذلك لعامل النضوب بعد زمن طويل أو قصير أحسبني قد أستنزف فيه بعض ما عندي إن كان هو شيئاً يذكر..

وهُنَاكَ عامل آخر هو الكسل، فالكتابة كما أحس الآن جهد متعب يقتضي استحضار ما يلوب في النفس، ثم شيئاً كعملية العصر واختيار الألفاظ الملائمة لتمثيله، بالإضافة إلى الجهد المتعب في تحريك القلم وإدارته على الورق مما أحس ثقله على مزاجي كأعمال شاقة!

هناك من يكتبون أو ينظمون شعراً كيفما اتفق، وهؤلاء قد لا يشاقون كمن يحبون أن يتخيروا ما عندهم، ثم يتخيروا له التعبير الملائم، وأنا من تلامذة هؤلاء..

إنني أتردد وأعيد النظر في الكلمة والعبارة وفي السياق، ثم لا أثبت إلا ما أتخيل وقعه في نفسي ملائماً طيب الأثر والأداء.. وشيء كهذا يكلف الكثير من الجهد كما لا أحتاج أن أقول، فما يسمونه السهل الممتنع - وأحسبه قمة البيان - ليس أكثر يسراً وسهولة من الغموض والرطانة أو التعقيد أو إرسال جمل وعبارات ليس فيها من البيان إلا الكلمات وحدها، وإلا التجديف في خيال مظلم غير مفهوم!

إن شيئاً كالذي سبق قد يعني كتاب شعراء الوجد والانفعالات..

وهناك رواد البحث وهواة التاريخ والآثار والفلسفة، والمدرسة العقلية إجمالا، وهؤلاء قد يتكررون أيضاً، ويعيدون ما أبدوه أو أبداه غيرهم، على متاهات شتى يعانونها بين ضعف أو تناقض المصادر.

على أنه طريق وددت أن أسلكه - وربما فعلت - رغم مظنة التكرار، ورغم أنه قد يشد إلى مراجعة مفهومات أختلف أو أتفق فيها مع الآخرين ممن يلوح أنهم يضعون ثقتهم فيها يكتبون وإن كان من قبيل الهراء!

وهو طريق لا يصعب ادعاء التجديد فيه، غير أن امتطاءه صعب لمن يريد صحة الفهم والإخلاص فيه.. لا الرياء!

ولقد قلت في أول الكلام إنني استنزفت بعض ما عندي، فمايزال عندي - وعندي وعندك الخير - ما لم أستنزفه بعد، ولكنني أشعر بصعوبة القول فيه.. ربما لأنه قد لا يُرضي تطلعات الآخرين الذين لا يكرهون الدغدغة والملاطفة والثناء حتى وإن كانوا أهلاً لغير هذا النفاق!

إنه - أي النفاق - عامل مهم في السلوك والتصرفات من قديم الزمان، وفي كبح ألسنة وأقلام كثيرة عن الحركة والإنطلاق.. وهو بأسلوب أرق عامل الإرادة وعامل الإمكان..

ويختلف الناس بينهما في مواجهة الحقيقة، فمنهم من يجري مع الإمكان في أوسع الحدود وأضيقها، ولعل هذا هو الخط العام الذي يسير فيه معظم الناس، فإن تحرِّي ما تتوخاه الإرادة وتبتغيه شيء كالمستحيل في دنيا الواقع ومجال التطبيقات.

وهذا يصدق على الناس في معظم نشاطاتهم واختصاصاتهم، فما يتسنى للعالم، أو الصانع، أو الموظف، أو المهندس، أو التاجر، أو العالم.. إلى آخرهم - أن يحققوا كل ما يريدونه ويبتغونه، وإنما يحققون منه ما يمكن فحسب..

لقد كان وسيظل المراد - والخيال من ورائه - أكبر وأضخم من الممكن، ويطول البحث في هذا على نحو تفصيلي شامل دقيق.. غير أنني أستهدف هنا مجال القلم، وما أكثر رواده في هذه الأيام بعد أن أتاحت الصحافة بكثرتها، وكثرة صفحاتها - لعدد ضخم من طلاب الظهور والمحترفين أن يملأوا الفراغ الواسع فيها كيفما اتفق.. وهؤلاء قد لا يصدق عليهم أنهم يريدون غير الممكن، لضحالة الموهبة أو انعدامها أصلاً فيهم، فهم طلاب ظهور أو ارتزاق.. وإنما يصدق هذا على المواهب التي تنشد التعبير عن حقيقة انفعالاتها بالحياة، ويغذيها رصيد ضخم من الثقافة وخبرة اللغة والبيان.

إن أصحابها يعيشون هذه الانفعالات في أعماقهم، ثم يتحرون أن يعيشوها فيما يكتبون أو ينظمون، ويصعب عليهم - ربما إلى درجة الاستحالة - أن يعيشوا في دوامة الإمكان والشيء الممكن فحسب.

وإذا كان النفاق ضرورة في عالم السياسة أو النقد الاجتماعي، فإنه كذلك ضرورة في عالم الكلمة التي كان مفروضاً فيها تحري الإرادة لا الإمكان، ولهذا أصبح النقد جباناً، لأن هذا هو الممكن في مواجهة مشاعر الآخرين ممن يزعجهم النقد الحق الصادر عن الإرادة التي كان ينبغي أن يتحراها الناقد ولو أزعج بها من يحب أو من يكره..

إنني أنا وأنت قد نضع ابتسامة جوفاء على وجوهنا وأفواهنا ونحن نعطي الرأي لمن يسأل عنه في إنتاج أدبي معين، فما نردد إلا ما يمكن لتألف عواطفه هو أو المنتج أياً كان، وهو غير ما كنا سنقوله لو كانت الإرادة لدينا أقوى وأشجع من الإمكان.

والبحث يطول في هذين العاملين أو في عالمهما الواسع الكبير..

أحمد قنديل [1]

أهل الأدب في هذه البلاد طبقات كأهل الأدب والعلم والحرف والهوايات في كل زمان ومكان.. ويأتي أحمد قنديل في مقدمة الطبقة الثانية مع حمزة شحاتة ومحمد حسن فقي وحسين سرحان وغيرهم، كما يأتي في مقدمة الطبقة الأولى محمد حسن عواد ومحمد سرور الصبان وعبدالوهاب آشي، وغيرهم أيضاً.

وليس الزمن وحده هو مدار الفرق بين الطبقات، فربما كان في الجيل الثاني من لاينقص عمره كثيراً أو قليلاً عن بعض من في الجيل الأول أو العكس، وإنما يؤخذ في الحساب بعد الزمن والعمر عامل الظهور والانفعال بالحركة الأدبية التي يرجع الفضل ولا شك في إيقاظها واشعال جذوتها إلى الرعيل الأول.. أما الزمن فإنه قد يذوب تدريجيا بين الطبقات، إذ يبدو أبناء الخمسين والستين والأربعين ومابينها وكأنهم جميعاً أبناء جيل واحد!

وليس من همي الآن استعراض الطبقات كلها إلى الجيل الأخير الذي يطفو على السطح في هذه الأيام، فذلك يتطلب دراسة شاملة وبحثا متفرغاً هدفه النقد والتاريخ والاحصاء على نحو دقيق يتحرى الصواب، ويتفادى الهوى ومزالق الخطأ والارتجال، وإنما أردت أن أضع أحمد قنديل في الطبقة التي هو منها وإليها كما أظن..

وإذا كان لي شأن يذكر فإنني كآخرين- وفي مقدمتهم أحمد عبد الغفور

---

(١) هذا المقال كان مقدمة لكتاب (الجبل الذي صار سهلاً).

عطار وحسين عرب وعبد الله عريف وسيف الدين عاشور وسواهم- من أبناء الطبقة الثالثة التي تأتي بعد طبقة أحمد قنديل، فلقد كان يرأس تحرير صوت الحجاز التي كانت تصدر بهذا الاسم حينذاك، وتصدر حالياً باسم (البلاد) بعد تطورات متلاحقة بين الاسمين.. وكنت يومها ما أزال طالباً أدرس وأتابع حركة الأدب- وأحمد قنديل في مدارها - بشغف وانسجام..

ثم تحولت علاقتي به إلى خط الصداقة من نحو أربعين عاماً، وأحسب أنها كانت بيننا شيئاً يتخطى الصداقة إلى الاندماج في علاقة صميمية دائمة لاتكاد تفتر، ثم لانكاد نفترق عن بعضنا إلا فيما ندر.. وكان هذا في ريعان الشباب.. يرحمه الله..

كان يعمل بوزارة المالية، وكنت أعمل بمطبعة الحكومة.. ثم بديوان (فيصل ابن عبد العزيز) نائب الملك في الحجاز حينذاك..

ثم تشعبت بنا كعادتها خطوط الحياة، فلم نعد نتلاقى إلا قليلاً، ولكن ما بيننا ظل حيث هو في مكامنه وطواياه..

وكما هو واضح بالبداهة لايعني تعداد الأجيال وتوزيعها على نحو ما أسلفت أنها تأخذ نفس الترتيب في التفوق والاتقان، وإلا لكان حظ أجود الشعراء والأدباء والفنانين في العصور الأخيرة حظاً سيئا إذا وضع قبلهم بعض من سبقهم في العصور السابقة وهم دونهم في ميزان التقييم الصحيح، وهناك من تخطوا عالم الجيل المحدود، فلم يعودوا ينتسبون إلى جيل ما إلا لمجرد العلم والتاريخ، وإنما يحسبون من الأفذاذ على مر الأجيال..

ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن أحمد قنديل الشاعر العربي واحد من هؤلاء، فإن له شعرا عربياً لايكاد يهبط في مستواه عن مستوى فحول الشعراء في العالم العربي عموما..

أما هو فيما عدا ذلك من الشعر (الحلمنتيشي) الذي عُرِفَ وتفوق به على

كل من حاولوه، وهو الشعر الذي يخلط الفصحى بالعامية، فإنه شاعر (بلديّ) و (البلدي يؤكل) كما يقول المثل المعروف..

نعم.. كان شعره (البلدي) أو (الحلمنتيشي) يؤكل إذا جاز أن يؤكل الشعر، ولئن كان معظم القراء يتجاهلون أو يلقون نظرة باردة على معظم مواد الصحف وأبوابها فإن شعره هو يظل مادة مقروءة على مختلف المستويات..

وهو فيما عدا الأول والثاني في دنيا الشعر كاتب (بلديٌ) بكل معنى الإخلاص التلقائي للبلد، لغة وتاريخا، وروحاً، وفكاهة يغلب عليها وعلى الأدب والفن عموماً فيه – مزاج (الكاريكاتير) وهو مزاج يسخر ويضحك ويستعرض المفارقات ويستطرد إليها عفوا لا اصطناع فيه، وعلى نحو فَكِه لايخلو من النكتة ومن طرافة الصورة، ولهذا يلوح أثره وتأثيره أقوى بين أهل البلد..

وإذا كان من يكتب أو ينظم بأسلوب هذا المزاج لايتحرى المثالية فإنه هو لايبعد كثيراً عنها.. على الأخص إذا كتب بالفصحى..

بلديٌ بمعنى الكلمة ومقوماتها على ما تمتع به من اطلاع واسع في دنيا الأدب وسواه، ولقد كان قارئاً لايكاد يملّ القراءة في أي جوّ كان، ومع أي كان أحيانا..

ولقد سبقني حمزة شحاتة إلى إطلاق هذا التعريف البلدي عليه[1]، فما أضيف به جديداً، ولكنني أتسلل منه إلى موضوع هذه المقدمة، وكان قد زارني قبل نحو سنتين بملف في داخله أوراق معدة للنشر بعنوان (الجبل الذي صار سهلاً) وسألني أن أكتب مقدمته، فاستبقيته عندي.. وتبيّنت بعد مراجعته أنني قرأت معظمه فصولاً منشورة في صحيفة (عكاظ) ولكن ما بين يديَّ منها لم يكن يخلو من التشويش، ومن رداءة الطبع، وغموض بعض الألفاظ والعبارات، وكأنما

(١) كان حمزة شحاته ينشر مقالات متسلسلة بعنوان (حنفشعيات) من ضمنها مقال عن أحمد قنديل فيه هذا التعريف.. وأحسبها قد ظهرت في كتيب صغير بعنوان (حمار حمزة شحاته) وليتها ظهرت بعنوانها القديم في (صوت الحجاز).

التنسيق غير حاصل بينها.. إلى آخر ما تحدثت إليه عنه.. وأعدت له (الملف) لمراجعته وتنسيق محتوياته، وتصحيح أخطاء الطباعة وسرعة الأداء التي كان لايبالي أن يجري بها فيما يكتبه، ثم لايحاول إعادة النظر فيه، وألزمته بها أخَويًا، واقتنع وأخذ الملف.. ثم أصبحنا نلتقي لماما، وعلى سطور ما ينشر له شعراً ونثراً في بعض الصحف.. وقد مضى على آخر لقاء به نحو عام..

وفوجئت وأنا أقلب الصحيفة بخبر وفاته.. وخيل إليّ أن أفكاري توقفت عن الحركة، وغابت نفسي عن وجودي لحظات طالت وطال جمودي فيها على (الحوقلة) وعلى شيء أكثر من الاحتدام في صدري..

ولكنه مات.. وانتهى كعشرات الملايين التي تذهب من وجودنا إلى وجود آخر لايعرف حقيقته وتفاصيله إلا خالق العدم والوجود.

وطويت أحزاني وخلجاتي كما طويت وأطوي مثلها كلما ذهب من وجودي واحد من طراز أحمد قنديل..

ومضت الأيام عليه، رفاتا، أسأل الله الرحمة له ولكل من ذهبوا من (أمة محمد) صلى الله عليه وسلم، ولكن صداه لم يمض، فما زال حيا وسيظل كذلك ما دام في الدنيا بلد وأدب، وشعر و(كاريكاتير) وإخاء وصميمية يكاد يتلاشى نمطها في أيام كالتي نعيشها تطورت الحياة فيها إلى الأعلى ظاهرا، وإلى الأدنى فيما دون الظاهر اللماع!

وجاءني (الجبل الذي صار سهلا) من (مؤسسة تهامة) وعلى وجه التحديد من الأستاذ الصديق محمد سعيد طيب مدير هذه المؤسسة، ومن يُلَوِّح كمحركات الطائرة فيها، وقال إنها ستخرج (الجبل الذي صار سهلا) في كتاب على نحو ما كان سيفعل مؤلفه لو امتدت به الحياة، وسألني كتابة المقدمة التي كنت سأكتبها بناء على رغبة المؤلف سابقاً، ثم رغبة أبنائه لاحقا - حفظهم الله..

وأرسل إليّ ملف الكتاب قصاصات من الصحيفة.. وفي الجواب على

تساؤلي عما إذا كان أحمد قنديل (يرحمه الله) قد أعاد النظر في محتوياته على نحو ما ذكرته من قبل - قال الطيب يلوح أنه قد فعل، وأن النسخة التي هي تحت الطبع منه مصححة بقلم المؤلف على نحو دقيق.. ولم يشجعني واقع القصاصات كما طبعت في (عكاظ) على قراءتها إلا بالنظرة العابرة والاستعراض السريع، فلقد كانت بعض الألفاظ والعبارات تتداعم بما يجعل المعنى أو الترابط شيئاً غير مفهوم.. وهذا يعود لرداءة الطباعة وأخطائها، كما قد يعود لطريقته في الكتابة والاستعجال إذا كتب، وأحسب أنه وآخرين ممن أعلم أو لا أعلم لايعودون بالقراءة الفاحصة لما يكتبونه، ولعل ظروف النشر المتواصل لغرضه الأدبي أو المادي أو كليهما لاتساعدهم على ذلك لو أرادوه، فما يبالون أن يدفعوا لموعد النشر وحيزه المقرر ما قد يكون في حاجة إلى إعادة النظر باستهداف الإخراج الملائم! والمفروض أن القنديل قد فعل ذلك وصحح الكتاب في النسخة التي تحت الطبع من مؤسسة تهامة إذا صحّ ما فهمه عنها مدير المؤسسة.

على أنني كنت قد قرأته أو قرأت معظم فصوله التي كانت تنشر تباعاً في (عكاظ) حيث لم تكن تكلف متابعتها وتصحيح مفهومها- كلما اقتضى الأمر- جهدا كالذي ينبغي لمتابعتها جملة واحدة تهيأت للنشر، على ما بالنسخة التي لديّ منها مما أرجو أن يكون المؤلف قد تفاداه باعادة النظر كا أسلفت، كما أرجو أن لاتهمل المؤسسة واجبها تجاه تصحيح ما ستخرجه للناس على نحو دقيق.

والمهم هو أنها - على أي حال - فصول طريفة تنقل القارئ إلى ذكريات بعيدة كذكريات الحج في الماضي قبل عصر السيارات، وذكريات الصعود والنزول من الطائف وإليه عن طريق جبل (كرا) الذي صار سهلا، وعن جو الحياة ومظاهرها وقصصها حينذاك.. وما أحسب أن كاتباً قبله قد تحدث عن شيء من ذلك، وأحسب أنه قد سدّ فراغاً مازال يتطلب المزيد من جهود القادرين على تصوير واقع الحياة بمظاهرها المختلفة في أيام مضت، كجزء من تاريخنا سوف تجهله الأجيال

القادمة إن لم تجد في مواجهتها ما يصوره، كما كان في أي عمل فني كالذي ساهم به القنديل في سدّ شيء من ذلك الفراغ!

ولم يخل كتابه من استطرادات كثيرة إلى الأدب، والشعر، وإلى ذكريات شتى، وإلى أكثر من لمسة فنية لأكثر من واحد من أصدقائه.. في إطار واحد هو إطار ذلك الماضي كما عاشه هو وعاشه الناس في عهد الجمل والحمار، والفوانيس، وأسلوب الحياة إجمالاً في ذلك العهد.

وأسلوب أحمد قنديل في هذا الكتاب هو أسلوب تلك الحياة مع هذه التي نعيشها اليوم، وقد انطبعت ملامح (البلد) بمزاج (الكاريكاتير) فيه ، حتى إذا كان ينقصه الاحتفال أو التصنع لروعة الأداء أو أناقته فإنه يشدّ القارئ إلى متابعته والاندماج معه وفي جوّ ما يتحدث عنه بشغف واهتمام!

ولعل أحسن وأخصر تعريف لكتاب (الجبل الذي صار سهلاً) هو الذي كتبه المؤلف بقلمه في نهاية صفحات الكتاب حيث قال عنه:

(ليس هذا الذي قرأت هنا.. قصة.. ولا هو رواية.. بالمعنى الحديث.. ولعله نوع من.. حكاية مطلقة.. حكاية من نمط ساذج مبتكر.. نابت فيه القفزة.. والاستطراد مناب قاعدة التسلسل.. والوحدة .. والموضوعية.. فلاحبكة.. ولاعقدة.. ولامفاجأة.. فيه اطلاقا).

هو.. بهذا المفقود .. من الموجود.. خواطر.. وسوانح مبعثرة.. ذكريات متناثرة متباعدة كالأيام ذاتها.

ربما كان أقرب شبه لهذا الذي قرأت.. أنه أوراق خريف تتحات، وتتساقط من شجرة عمر مكتوب)..

شرٌ .. لابد منه!

أصبح (التليفزيون) شراً عاماً في الأغلب، وإذا كان هو عندنا لايخلو من التحفظ والاحتشام فهو في جهات كثيرة - من العالم الأول على الأخص- قد هتك الستار وأباح المحظورات وكشف العورات، ولم يعد من الصعب تدريجيا تناول الارسال في أي بلد من بلد آخر لديه بث تلفزيوني ممتع بالغواية وبرامج (الهلس) والضياع!

ومع صرف النظر عن هذا الاحتمال، ومع إيماني العميق بأن (التليفزيون) عندنا يحاول جهده أن يتقي ما يمكن اتقاؤه - تبدو المشكلة أعمق وأدهى من كل جهد، فالناس أمزجة، ولكل مزاج هواية..

هناك من تعجبهم المسلسلات التي يتردد نفس الحوار في كل منها حول الحب، وجريمة تلتف قصة الحب عليها، وألفاظ وأساليب بعينها تتردد في القصة.. ثم لاتكاد تخلو من مظاهر الرعب -غالبا- والمسدسات.. إلى آخر ما قد يعجب بعض الأمزجة، وينعكس في الوقت نفسه على انطباعاتهم - وبالأخص الصغار والجيل المراهق- ثم على تصرفاتهم وسلوكهم على وجه العموم.. كما ينعكس عليهم نفس الشيء من برامج المصارعة والملاكمة التي تستغرق اهتمام بعض الكبار إلى حد الغرام.. إلى آخر البرامج التي ترضي بعض الأمزجة، ولا ترضي بعضها، واعتقد أن أية إدارة للتليفزيون مهما كان حظها من العبقرية والإخلاص

لايمكن أن ترضي الجميع، وإنما تبذل جهدها لارضاء بعضهم أو معظمهم بقدر امكانها، مما يسبب في النتيجة سخط بعض الناس على ما يطرب له غيرهم أيا كان الجهد المبذول، كما يسبّب ضياع وقت المتفرج في مشاهدة ما تهفو إليه النفس حتى وإن كان لايرضاه، مما يؤثر في دراسة الطالب، وعمل الموظف، وفي دنيا الانتاج عموما.

ولا شك في جدوى بعض البرامج الثقافية والرياضية والدينية في المقدمة، على أن يكون عرضها بأسلوب مرن غير تقليدي.. إلى غير ذلك من برامج الطبيعة والحيوان، وتُرَحِّب الأمزجة الواعية بمثل هذا اللون الجِدِّي القويم، وما علينا من غيرها من التي تحب متعة النظر الفارغ، والاستمتاع الرخيص.. فعساها أن لاتشاهد التلفزيون إلا إذا تطرق إليها الوعي الصحيح.

ثم هل من الضروري أن يمتده وقت البث التليفزيوني إلى ما شاء الله، لاشغاله بالتافه الرخيص وبكل ما هبّ ودبّ؟ ولماذا لا يتحدّد وقته ببرامج الوعي والبناء وحدها بدون تفاهات؟

إن حجة إرضاء الناس والأمزجة كلها أو معظمها ليست واردة على من يستهدفون خير الفرد والمجتمع.

لقد أصبح التليفزيون شراً - على الأغلب- لابد منه في البيوت، وجاء (الفديو) فأكمل الناقص كما يقال، بالإضافة إلى إمكانية التقاط البث التليفزيوني من عدة جهات وربما من أحطّها على المدى البعيد!!

والوعي هو العلاج.. الوعي في الناس.. والوعي في الإدارة التي ينبغي لها أن تستهدف بناء الوعي الحق أيا كان سخط الأقليات.. أو الأكثريات إن كانت من ذوي الوعي التافه الرخيص!.

الأوغـــاد

كان (التليفزيون) يعرض مأساة لبنان وأحداثها الدامية وما تصوره من هلع الناس وفزعهم بين أنقاض العمارات التي كانت شامخة، ودخان الحرائق، وعربات الاسعاف وجنود الطغاة، وأسلحتهم.

وما أفظع الصور كلما عبرت الشاشة وفيها بعض الجرحى على الأرض أو على الناقلات أو في المستشفى، رجالاً ونساء وأطفالاً تلطخ الدماء جنوبهم وأطرافهم وهم بين الحياة والموت.

ولله طفل كان يبدو على الأرض في وضع سيء والذباب يتطاير عليه كما يتطاير على الجيفة، ووجه شاحب كما لو كان هو الموت بعينه، ورجال وسيدات مجندلون.. بعض أوصالهم ممزقة أو مقطوعة.. تسيل جراحهم، ولا تكاد تخفى كسور أضلاعهم أو أطرافهم، وهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة.. والمستشفيات نفسها في حالة دمار..

صور فظيعة كنت أشعر في مواجهتها بما لا أدري إن كان هو الألم أو شيئا أعمق من الألم، فأصرف نظري عن التليفزيون إلا خلسة أو اختطافا، والحوقلة على لساني ومن كلّ قلبي الذي كنت أحس معنى القهر والعويل فيه.

وكانت بعض العيون التي رأت ما رأيت حمراء من بقايا الدموع، يعتصرها هول المأساة.. ما أفظعها حقا.. ويا لاجرام المجرمين فيها، وبغيهم على الكبار والصغار الأبرياء، إن كان الكبار غير أبرياء!

وماذا عسى أن تُجْدي مشاعر الناس ودموعهم وأولئك الأوغاد يملكون ما لانملك من قوة السلاح وكل ما يمدُّهم به أوغاد مثلهم، وإنما دموعاً ومشاعر لاتُسْمِن ولاتغني من جوع!

ونملك أن نسأل الله من أعماقنا- متى تدور الدائرة على هؤلاء وأولئك الأوغاد!

إننا نعتقد أنها ستدور عليهم إذا تحرك المسلمون وتولى قيادتهم رجال نحن في انتظارهم من وراء الغيب.

محنة الكلام (١)

يلوح أن الكلام لذّة تطلب لذاتها غالباً.. وربما كان من حسن الحظّ أن الناس لم تتوفر لديهم جميعا طاقة الأدب والكتابة، وإلا لكتبوا وصار الناس كلهم أدباء، غير أنهم لم يحرموا طاقة الكلام باللسان والشفاه، فهم على اختلاف مسئولياتهم يتكلمون.. حتى الذي يلوح أنه آخر من ينبغي له الكلام!

وأحسب أن الكثيرين جربوا معايشة من قد يتصدرون للكلام وعليهم بعض مظاهر الوجاهة والتفوق، ولو كانوا من أتفه الناس فيما وراءها، حيث يطيب لهم التنقل من موضوع لآخر، وإن لم يكن له فيهم باع أو أقلّ من باع!

وهم يأبون إلا أن يصغي إليهم الآخرون كما لو كان الاصغاء فضلا أو مزية ينبغي التهافت عليها من السامعين!

فإذا تحركت محنة الكلام بين شفتي مثلاً أو شفتيك بدت المقاطعة في الحال رمزاً لِحَقِّهم قبل أي أحد في الكلام مُذْ كان هو في ظاهر الأمر دليل القدرة والامتلاء، أما الصمت فهو دليل الحاجة إلى العلم واكتساب معلومات جديدة من المتكلمين.. وباطن الأمر غير ظاهره، فإن ما يطفو على الماء غالباً هو القشور، على أن محنة النثر والنظم عند بعض من يتهافتون عليها بعامل المهنة.. أو اثبات الوجود باسم الأدب والصحافة - لا تَقِلُّ كثيراً عن محنة الكلام في مجالسه

العامرة بكل فارغ لايُسْمِن ولا يُغْني.. بل يغث ويحرك شيئاً كالقرف في النفس، مع شيء كالنفاق- عند اللزوم! - في استلطاف أولئك وهؤلاء!

ويبحث الناس عن النقد.. أين هو من محنة كهذه بمقوماته الصحيحة، وبالوعي الصادق، وبالقدرة على مغالبة النفاق ودواعيه، ليقول كلمة الحق في وجوه أولئك الذين يملأون بعض الفراغ في الصحف بشيء من الفراغ في أنفسهم يلتهم أوقات من لايهمهم ضياع الوقت في فراغ..!

ما أتفه هواة الكلام الفارغ على اختلاف صوره ومزاياه! فقد يدور الحوار بين الناس إذا اجتمعوا على قلة العدد أو كثرته، وعلى تفاهة الموضوعات أو أهميتها، وقد يكون حواراً بارداً أو ساخناً، وقد يسارع إليه من لا يُحْسنه، ويَتَّقيه من يُحْسِنه، إذ يفضل الصمت والسماع! أو يرى الثرثرة طابع الحوار، أو يخشى أي مزلقان فيه، وربما كان ضعف القدرة على الكلام المناسب سببا للتوقف عنه ممن يعرف قدر نفسه، كما قد يكون الضعف ذاته سبباً لحب الكلام والاسراف فيه ممن لايشعرون بالنقص، ويَجُرُّهم ذلك إلى ممارسته كما لو كان هو عين الكمال..!

وهكذا كان الكلام وسيظل مقياساً للتعرف إلى الإنسان المتكلم، وتكوين فكرة عن شخصيته في أول لقاء، ويَنْدُر أن تكون الفكرة غير صحيحة، وعلى أساسها قد تطول العشرة أو تقصر بحسب دواعيها بين شخص وآخر توائم بينهما المصلحة أو المزاج.

وما أكثر ما جَرَّ ويَجُرُّ الكلام إلى الكوارث أو إلى عكسها..

وما أكثر ضياع الوقت في كلام فارغ يجتمع عليه طلابه في مجلس تعودوه، لأنهم يشعرون بثقل الوحدة ووطأة الفراغ، فيهربون منه إلى فراغ أدهى تدور ألسنتهم وأفكارهم فيه بالثرثرة حول كل خبر أو موضوع تافه يقطعون به الوقت الممل، لأنهم فارغون إلا من الفراغ.

ويبدو الإنسان فيما يشبه المحنة إذا كانت تشده علاقات لابد منها إلى مثل هذا الفراغ الممل، وهو من هواة امتصاص الوقت لإضاعته في فراغ!

وقد يشعر بأنه لارغبة له في شيء معين يستفيد منه، وبأنه كالهائم فيما لايدريه، إلى آخر ما قد يبرر إضاعة الوقت في أي مجلس فارغ ممل.. غير أن أسوأ الفروض أو أحسنها حينئذ هو أن يراقب الإنسان مافي داخله من حوار إذا استطاع، فإنه أطيب وأعمق وأجدى.

محنة الكلام (٢)

كنت أول الأمر أشعر بحنق لغبائي إذا تراطن القوم.. في أسمرا.. مثلا.. أو في ألمانيا، أو أي مكان أجهل لغة الناس فيه.. غير أن أعصابي كانت تهدأ فجأة، وأشعر بالسعادة، لأنني أتمتع بكل حريتي، وأنا صامت أرقب الوجوه، وأعلق برأيي، سرا ، على ما يلوح أنهم فيه إجمالاً وبالتفصيل.. ثم لا أجد ما يمنعني من التحول بأفكاري هنا وهناك..

مثل هذا لايتأتى إذا كان الكلام مفهوماً بلغتي، فإن المشاركة فيه تبدو حينئذ من الضروريات.. ولو من باب الذوق والمجاملة.!

وقد يغبط الخرس أو يحسدهم من يفضل الصمت، أو قد يرتاح لعشرتهم على الأقل، فإنهم يتكلمون بالإشارة، وهي لغة من الممكن تجاهلها كيفما اتفق..

وربما كان في الخرس من يميل إلى الثرثرة، غير أنه يتردد كثيراً قبل أن يمارسها بين الناس..

أما الكلام عند غيرهم فإنه يتخذ شكل المحنة، وربما كان في مقدمة مصائب القرن العشرين، إن لم يكن سببها الحقيقي فيما أظن..

كان الناس يتكلمون بالتأكيد في العصور الماضية، إلا أن كلام سنة واحدة في هذا العصر، قد يعادل كلام قرن بأكمله في الزمن القديم.!

كانوا يتكلمون في بيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم، وفي مؤلفاتهم التي كانت تنسخ باليد ويتناقلها الرواة.

ونحن نتكلم اليوم في كل ما ذكر، وفي الصحف ، والإذاعات ، والبريد، والتليفون، والتلفزيون، والآلات الكاتبة، والطابعة ، والحاسبة..

نتكلم دائماً.. ونلاحق بعضنا بالكلام مستعجلين، وكأن الدنيا لم يعد فيها مستقبل للكلام!

وددت أن يسكت العالم بأجمعه في يوم معين يطلق عليه (يوم الصمت)!.

محنة الكلام (٣)

كثير من الناس يعشقون المقدمات، فإذا أراد - مثلاً- أن يحدثك عن انحراف صحته تحدث إليك عن قصة اليوم الماضي وما تناوله فيه من طعام، وعن فسحة العصر التي لم تخل من منغصات ولفحة الهواء التي أصابته وهو يطرح ثيابه من الحر.. ثمّ عن أرقه ليلاً وعن تفاصيل هذا الأرق.. ثمّ عن شعوره في الصباح وتفاهة الوجبة التي تناولها قبيل الظهر، حتى لايكاد يبلغ الموضوع الأساسي، وهو انحراف الصحة، إلا بعد أن تنحرف صحة السامع أيضاً..

لقد جاء إنسان من هذا القبيل، يعرض عليّ محنة مرت به فلم يقل ما هي؟ ولكنه تحدث عن الظرف الذي نشأت فيه.. ثم عن تطورها وأسباب هذا التطور، وأثره في حياته وتفاصيل هذا الأثر، والجو الذي عاش هو فيه من كل ذلك وبأسبابه، حتى نسيت كل شيء عن محنته وأنا أصغى إلى القصة بإعجاب، فلما سألني الرأي لم أجد رأياً أبديه إلا في القصة نفسها، وقلت: إنها لم تنته كما أظن.

قال : ما هي؟

قلت: القصة..

قال: لا تنس أن موضوع القصة هو محنتي..

قلت: فليكن.. إن قصة المحنة في حاجة فنية إلى أن تستمر.. أو أن هذا ما يجب أن يكون لو كتبت القصة بقلم فنان.!

وظن أنني أسخر.. وكانت محنة جديدة..

إن إسلوب الكلام في هذا العصر لم يعد يقبل التطويل و (المكياج) وهو - كما ينبغي أن يكون- أسلوب (التلغراف).

وخير الكلام ما قلّ ودلّ.. غير أن معظم الناس لايعرفون هذه الحقيقة أو ينسونها إذا تكلموا أو كتبوا..

إن موجز القصة يكفي، ولكن محدثك يأبى إلا أن يسرد التفاصيل، والذيول كلها.. غالباً.. إن كلا منا يحب أن يستأثر بالكلام.. لاسيما إذا كان هو، أو بعض قصصه، أو مشاكله، موضوع الكلام..

وبعض الناس قد لايشعر.. أو يتظاهر بأنه لايشعر مطلقاً.. بمعنى المضايقة في كلامه إذا طال.. إما أنه بليد، أو لأنه يتبلد إلى حد يثقل على المزاج!

ونفس الحال إن كتبوا.. فإنهم يحبون التطويل..

وتصور عريضة بدل أن يصوغها الشاكي - مثلاً- في سطرين.. يملؤ بها صفحتين في خط دقيق يلوح كالنمل بين السطور..

ربما كان هذا سر تعاسة المراجعة الأمر الذي كان يتوقع الكاتب الفصيح عكسه بالتطويل!

إن عصرنا اليوم اسمه عصر السرعة.. ولم يعد يطيق الناس - والموظفون منهم وإن كانوا في منتهى الدين والضمائر! - لم يعودوا يطيقون كثرة (الدردشة).

إننا نبحث دائماً عن شيء جديد نرضى به مزاج القلق في عصر السرعة!

ولهذا قد تحال (الدردشة) من يد موظف إلى آخر.. ومن دائرة إلى أخرى.. ومن بلد لبلد.. ومن هيئة إلى مجلس.. وعليها نفس الطابع الأول الذي بدأت به العريضة.. طابع (الدردشة).

أوجزوا.. أوجزوا.. فإن (الدردشة) سبب كبير من أسباب الفساد.. عدا أنها مضيعة للوقت.. والوقت -كما لايخفاكم - من ذهب!

محنة الكلام (٤)

الكلام مزلقان كبير.. أو هو كالطلقة إذا هي أطلقت فقد انتهى الأمر، ولاسبيل لاستعادتها إلا إذا أمكن أن تستعاد الطلقة بنتائجها السيئة.. أو من الفضاء.

ولا أدري من هو القائل:

(إياك وما يتعذر عنه)؟

وإن كنت أستبعد وجود من يعمل بهذا المبدأ، اللهم إلا القليل من أفذاذ الناس.

أما الأكثرية الساحقة فإن الكلام في حياتهم لاضابط له، بحيث كثيراً ما يلقى كيفما اتفق، ويكتشف أحدنا بعد فوات الأوان أنه قال ما كان ينبغي أن يستره كالعورة!.

وتختلف النتائج والاعتبارات بعد أن يقال ما كان ينبغي أن لايقال.

هناك ما يترتب عليه الاعتذار، وهناك ما لا يجدي فيه الاعتذار.. وما أكثر ما جَرَّت إليه الألسنة من حوادث واشكالات على نطاق محدود أو عالمي في بعض الأحيان.

وأخت الكلمة التي تقال تلك التي تكتب، بل إذا أجازت الغلطة أو التسرع

في الأولى كانت الثانية أجدر بحسن الاختيار، غير أن الناس قد سلطت ألسنتهم وأقلامهم على بعضهم كل يوم.

ذلك لأن أعصابنا هي التي تسبق إلينا إذا ابتدرنا القول في معظم الأحيان..

إن الذين يحسنون ما يقولونه في الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب هم الأقلية كما أظن من قديم الزمان.

غير أنه ربما.. لو أحسن الناس كلهم في الكلام لَتَغَيَّرَ تاريخ العالم!

المناخ الفسيح

العربي عموماً وخارج بلاده على الأخص يُذكّر ببدوي قد استأجر الحرم في سالف العصر والآوان - كما تقول الأقصوصة- عن مغامر (فَهْلَوِيّ) عرف حاجة البدوي إلى مناخ كبير لقافلة الإبل التي جاء بحجاج عليها ، فتعرض له المغامر أو (الفهلوي) قائلاً: إن المناخ الذي تريده لإبلك عندي.

وسحب البدوي من يده إلى أبواب الحرم في مكة، وأشرفا معا على الفراغ الواسع الذي تلتف عليه أروقة الحرم، وهشَّت نفس البدوي إذ تحققت رغبته في الحصول على مكان فسيح مريح كهذا لقافلة إبله.

وكان مشحونا بالناس الذين يرتادونه للصلاة والطواف أو للاستراحة، فتساءل عنهم، فقال (الفهلوي) إذا استأجرت فستجده صباح غد خالياً من الشواغل ومن الناس!

وَصَدَّق البدوي وأستأجر الحرم، ودفع عربون الأجرة المقدرة بمبلغ ضخم كما ينبغي لمثل ذلك الفراغ الكبير، على أساس أن الاخلاء سيتم صباح غد، وأن كل شيء على ما يرام!!

وجاء المستأجر يسوق إبله أو يقتادها إلى المناخ الفسيح بعد فجر اليوم التالي.. وصدّه الناس بطبيعة الحال رغم كل مقاومة صارخة من البدوي على أبواب

الحرم الذي لم يكن عرف من قبل أنه حرم! وأدرك أخيراً أنه كان ضحية خداع كبير من (الفهلوي) الذي قبض عربون الأجرة ولاذ بالفرار..

إن العرب أو بعضهم شيء من هذا القبيل.. يرتادون لإبل شهواتهم مساحات واسعة من الزمن المراق، والمال المبعثر، والخلق المهدور..

يستأجرون ذلك أو يشترونه بنفس الغفلة التي استأجر بها البدوي الحرم في الزمن القديم!.

ظاهرة الصحف

إنني أتهم الصحافة بأنها تبدد أوقات الناس..

ربما كانت فيها نفس المزية التي قالها القرآن في الخمر.. وهي أن الضرر فيها أكبر من النفع..

إنني أخرج - غالباً - من قراءة أية صحيفة.. بلا شيء مطلقاً..

وما أقرؤه فيها عن طيران إيزنهاور.. أو اجتماعات خروشوف.. أو مؤتمرات نزع السلاح.. ومؤتمر الأقطاب.. واجتماعات الذرة - يتحول إلى مجرد كلام فارغ قرأته هو - وربما بنفس النص والحروف - من وقت طويل.. منذ وجدت هيئة الأمم..!

ثم أقرأ بعد هذا كلاماً فارغاً لا يعنيك أو يعنيني إلا من باب الفضول.. أو فضول الفضول كحوادث الزواج، أو الطلاق، أو أخبار المرأة أو الصالونات أو أية توافه كهذه لا يزيد مستواها عن (الفصفص) أو (التدخين)..

وأقرأ أي مقال يصادف هوى في نفسي.. غير أنني أنسى كل شيء عن المقال والصحيفة، بمجرد أن أضعها - كما لو كانت عقب سيجارة - في الطفاية..!!

وأحس أن الذي استقر منها في النفس كالذي استقر في الصدر مما ذهب قبل عقب السيجارة..

ربما كان فيها بعض النفع.. ولكنه يضيع في زحمة التوافه.. وفيما يشبه الدخان أو بقايا الفصفص.

غير أننا نستمر نقرأ الصحف كما لو كانت من البلاء الذي لا حيلة لنا فيه.. ولو بدّدت أوقاتنا..

إنها بالإضافة الى ما سبق قد تنشر كلاماً يلوح شيء عليه كالبريق، ثم يبدو بعد معاناة قراءته أنه كلام تراصت فيه، ألفاظ وعبارات وصور يلفها شيء من الضباب أو كالظلام، لا أكاد أتبين فيه إلا أنه أرقى أو أحطّ من مستوى القارىء ولكنه على الحالين غير مفهوم!

كان الناس أو الثائرون منهم على الأدب القديم في العصر الحديث يتطلعون إلى الأسلوب المناسب، والى كل ما يترجم المعنى المصور بوضوح واختصار، وكانوا ينتقدون أسلوب الخيال والاستعارات وما يسمى المجاز في الأدب القديم الذي أنكروا إغراقه في المظاهر البراقة وفي صناعة الأسلوب!

ورأى الناس بالفعل صوراً مشرقة في الأدب الحديث، لا يتكلف فيها الشاعر أو الكاتب زخرف العبارة أو بهرجة الخيال والمحسنات، وإنما يقول ما يريده قولاً صحيحاً يفهمه ويحبه الآخرون، ثم واجهتنا محنة النقص في ثقافة اللغة وروافدها، ومحنة الأدب أو هوايته في نفس الوقت، ومحنة الصحافة التي هي على وجه الخصوص تتطلب المدد من أي وقود!.

واصطلحت المحن كلها على تبديد التراث وتبديد حب القراءة المريحة عند أولئك الذين يلتمسون أن يقرأوا لترتاح أفكارهم، فإذا هم يقرأون ليحسوا ما يشبه المغص بعد جرعات معقدة كالتي يتناولونها - إذا أحبوا - من بعض هواة الكتابة الحديثة أو محترفيها!

وقد لا يخلو الواقع المرير على أي حال - من تفاهات مماثلة - في دنيا القراءة، ومن قراء يطيب له ما يقرأون كما يطيب مضغ اللبان للفارغين أو لطلاب العلك!

أما الذين يحسنون المضغ والهضم وتذوق الأشياء فأولئك هم الذين ينبغي أن يستحيي الكاتب أو الشاعر من مواجهتهم إلا بكلام مقبول، ولو من نوع ما أنكرته ثورة الأدب الحديث على القديم من ذلك الطراز الموشى بالاستعارات.. والمجاز واللفظيات الممقوتة لدى الثوار.

فالمهم أن يكون كلاماً مفهوماً مع المقت!..

لا أن يكون غير مفهوم مع الحب الأعمى، كمحتويات بعض الصحف التي تتراكم عندي أحياناً لعدة أيام فلا أقرأها لما يشغلني، ولأن القراءة بعد الشغل قد تشبه الأكل بعد التخمة.. وواضح أن ما يفوت الإنسان من هذه الصحف وقراءتها قد لا يخسر به شيئاً يذكر، وأن أي وقت يمضي في متابعة قراءات منظمة أو غير منظمة، لكتب ومؤلفات ذات جدوى، قد يكسب به القارىء أكثر مما يكسبه في متابعة قراءات الصحف.. غير أن هذه مليئة بالأخبار والحوادث التي هي على الأكثر من عالم (القيل والقال) الذي يعيش فيه الناس بحيوية بالغة تنقلهم من مجلس إلى آخر، وربما من مدينة لأخرى - ركضاً وراء ذلك العالم!

ماذا هناك؟ قال فلان.. وسافر فلان.. وحصل كذا.. ويقولون كذا.. الى آخر الدش واللحس لأقفية الآخرين - الغائبين بالطبع! - ويعيش عالم القيل والقال في أكثر بيوتنا ومجالسنا.. واجتماعاتنا.. ولا يطيب يوم بعض الناس إلا بعد الاندماج فيه والتزود منه ولو لدقائق إذا تعذر المجلس الطويل!

ومن هذا العالم ظاهرة الصحف.. إلا أنها على مستوى السطح حيث لا تنزل إلى الأعماق إلا نادراً، ولهذا لا تنقطع متابعتها حتى ولو تراكمت.. بفكرة أن يعلم الإنسان ماذا هناك.. خاصة إذا لم يكن في وسعه أن يندمج في ذلك العالم ومجالسه كل يوم..

ثم قد لا يجد بعد وقت طويل يمضيه في متابعة ما تراكم منها - أكثر من أنه تثاءب وأدركه النوم.. أو أحس بالفراغ في رأسه.. وليس في الصحف.

إن فيها ولا شك ما يمكن قراءته، بل لعل كل مادة فيها تفيد حتى ولو كانت كمادة أخبار المسافرين والواصلين، أو كمادة البحث الجاف، أو كأية مادة تثقل أو لا تُفهم - بضم التاء - ويسرح القارىء معها ببلادة في.. فراغ.....

إنها جميعاً قد تنفع ولا تضرّ، والمهم هو أن لا يكون رأس القارىء من الأصل فارغاً كرأسي، حيث أقلب الصحيفة.. ويبدو أنني أتأمل العناوين أو سطوراً تحتها، وأنا في الواقع لا أتأمل شيئاً..

نظراتي - فقط - هي التي تذهب وتجيء.. أما رأسي فإنه عامر بالفراغ!

وفجأة قد يهز تأملي كلام جميل كالذي قرأته الليلة.. وعلى أنني أحب أن أقرأ نثر العقاد أكثر من شعره، فقد قرأت من شعره بيتين أحسبهما أكبر من قصيدة شامخة كالبناء..

كان له هوى عفّ عذري كما يقال، فقال لحبيبته - والقصة مفهومة مما قال -:

تريدين أن أرضى بك اليوم في الهوى

وأرتاد فيه اللهو بعد التعبد

إذا لم يكن بدّ من الكأس والطلى

ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي!

وأخذ الفراغ يمتلئ في نفسي بمثل هذا الشعر.. وبالعقاد.. يرحمه الله..

مهمة الناقد!

أيها ا(العمدة)[1] العزيز كاتب (مع الفجر).

تريدني أن أكتب (ذكرى) في (عكاظ) كما كنت أكتبها سابقاً في (البلاد).

إن هنا عدة نقاط ينبغي مناقشتها في بداية الأمر:

أولها - هل يتسع وقتي لأكتب (ذكرى) كل يوم؟؟

وثانيها - ماذا أكتب؟

يوم كنت أكتب (ذكرى) كان يبدو أنني في صفوف الناقدين..

ويبدو اليوم أنني في الصفوف المقابلة[2].. أو الطرف الآخر بلغة القانونيين فكيف أنقد وماذا أقول، سواء حرَّم ذلك أو لم يُحَرِّمه النظام.. والمفروض أنني أنا وأمثالي موضوع النقد والملاحظات؟

وثالثها - أن هناك أكثر من موضوع هام للنقد.

هناك الناقدون أنفسهم، ولا أعني أولئك الذين ترتفع أصواتهم بالنقد سواء

---

(١) (العمدة) لقب أطلق من وقت بعيد على الصديق عبدالله خياط يوم كان على درجات سلم الأدب.. والحياة.. في مقدمة الجيل الجديد حينذاك!
وقد أخذ منذ حين يكتب يومياً في (الجزيرة) تحت عنوان (مع الفجر) ويظهر أنه سألني فيما كتب أن أعاود كتابة (ذكرى) فهذا جواب السؤال!

(٢) أي من المسؤولين الذين كنت أحدهم عند كتابة هذه الكلمة.

في الصحف أو في المجالس على اختلافها، إنما أعني الناس الذين تبدو حساسيتهم مرهفة بالدولة.. وتصرفات موظفيها.. وما ينتظرون تحقيقه.. إلى آخر ما قد يُشَكِّل لديهم حاسة إضافية مظهرها السخط أو الرضا إلى درجة التَّحرُّس والافتعال أحياناً، كجمهور المتفرجين على مباريات (الكرة) فهم اللاعبون الحقيقيون بأعصابهم وأرواحهم التي تكاد تطلع وراء اللعب في الميدان، وهم الذين قد يصنعون الهزيمة أو النجاح بالسخر، والصفير، والكلام المرير الى غير ذلك.. والى نقائضه من الهتاف الى التصفيق.. الى آخر ما قد تتحرك له أعصاب اللاعبين وينعكس غالباً على تصرفاتهم في الميدان.

إنهم هم الناقدون الحقيقيون قبل وبعد انتهاء المباراة باستمرار التعليق عليها وعلى حركات اللعب واللاعبين والحكم (بفتح الكاف) الى آخر ما يستمر هادفاً أو مغرضاً.. وينتقل بعدئذ الى الصحافة في شكل مقالات يُعِدّها النقاد الرياضيون كالتي يُعِدّها النقاد في مجالات شتى باختصاص أو بدونه في الأغلب الأعم..

وهكذا يبدو النقد تعبيراً عن مشاعر النقاد الحقيقيين وهم الناس الذين قَلَّ أن يسلم من نقدهم أحد.. والدولة من الجملة أو في المقدمة بعامل الحساسية المفرطة فيهم تجاهها منذ كانت ترمز الى السلطة والقدرة، ومنذ كان حقاً عليها أن تفعل كل شيء، وأن تجعل السعادة في متناول الجميع..

هؤلاء الذين ينتقدون كل شيء حيثما اجتمعوا أو تفرقوا، وتفيض خواطرهم بالتعليق والملاحظة والانتقاد على أي حال.. هؤلاء هم الناقدون الحقيقيون الذين تعبر عنهم أقلام الكتاب في الصحف.

وهم موضوع صالح للنقد بالمثل.. وهذا لا يعني مبدأ المقابلة بالمثل حرفياً أو عصبياً، فالنقد حينئذ قد لا يَسْلَم من تهمة الاصطناع والتغرّض لمبدأ المقابلة.. لاغير، وإنما يعني النقد الحق الذي يتحرى الحقيقة ويضع عليها أصابع الناس وإن كانوا هم موضوع النقد..

وما أظن أن في الناس من يجهل قاعدة الخطأ ضمن قواعد أخرى في هذه الحياة..

وهكذا وعلى سبيل المثال يبدو التساؤل طبيعياً عن مدى علاقة الناس بأية أخطاء تؤخذ على الدولة أو على تصرفات موظفيها.. أو أية مآخذ على هذا المنوال.

غير أن مهمة الناقد - إذا كان مسؤلاً على الأخص - تبدو دقيقة لئلا تثار في وجه نقده - كما قلت - تهمة الغرض والاصطناع، أو استغلال السلطة.

ثم إنها قد يضيق بها حقل محدود كحقل (ذكرى)..

ثم هبني حطمت كل العقبات وكتبت ما تيسر من النقد في (ذكرى) واستطعت أن أواصلها يومياً فأين ينبغي على وجه التحديد أن أنشرها للناس؟ وفي أية صحيفة من الصحف؟؟

وأطوي الجواب لرسالة أخرى.. إذا استطعت أن أواصل الكتابة (مع الفجر) ذلك لأنني مع الأسف لا أكتب (مع الفجر) بل أنام..

الوعي المبعثر أو المفقود !!

يرتفع من وقت لآخر في بعض الصحف واللقاءات صوت فيه معنى التساؤل عن أقلام احتجبت، فلم تعد تكتب إلا نادراً.. أو إطلاقاً، ويحمل التساؤل معنى الاحتجاج بأنها على مستوى الريادة، وما ينبغي لأهلها أن يتقاعسوا، وقد يتطاول عليها بعض من لهم لم يُحسنوا فَكَّ حرف الأدب إلا على مستوى الْعَمَى أو (الطُّشاش)!

وقد يتلطف التساؤل أو الاحتجاج أحياناً على نحو ما وضعني به الصديق الأستاذ عبدالله الجفري في إحدى يومياته المعروفة باسم (ظلال) موضعاً كريماً أنا - ولا شك - دونه، فما ظننت قط أنني من أهل الريادة، وإنما أنا عابر سبيل في صحراء الكلمة وعالمها العجيب!

كان هذا من قبل بضعة شهور.. وكنت مطالباً أمام نفسي - وربما أمام الصديق والقراء - بأن أقول شيئاً في مواجهة ما تلطف به - ولكن ما هو؟ وهل أستعرضه بعد وقت طويل كالذي مضى للمناقشة، وهو بأسلوب الظلال يبدو ويختفي كبصيص النجوم بين مرِّ السحاب؟!

إنني على سوء ظني بنفسي لم أحتجب إلا على نحو من يلملم أطراف ثيابه من الماء!

كنت ومازال أنشر المتيسر على تفاهته لإثبات الوجود، أو بعامل حب البقاء، وما كنت لأتحراه لولا مدى الصدق فيما أحسه منه حتى وإن لم يكن هو

بقاء الأصلح، فقد يحاول الكاتب أو الشاعر اثبات وجوده، فإذا به يثبت عكسه.. أي العدم، إن هو تحرى رص الألفاظ أو رصفها كالحجارة.. على طريق النضوب إلا من محاولة اثبات الوجود!

ولقد احتجبت أقلام رائدة أو هي بصرف النظر عن الريادة أقلام لها مزاياها في عالم البيان شعراً أو نثراً، فلماذا هي احتجبت؟

والأدب أو الفن وعلى اختلاف الصور والأزياء، إنما هو انفعال يلتمس التعبير الملائم، ولكن الأديب أو الفنان قد يزيح انفعاله إلى أعماقه لأنه كسلان، والكتابة جهد واجهاد، والتماس التعبير المناسب - على الأخص- مُرْهق فيما أظن.. أو قد يحاول الكتابة ثم يطويها عن النشر، لأنه غير ملائم، أو لأن واقع السوق يتطلب مستوى أدنى - كما يظن! - أو معروضات أكثر رواجاً.. وتفاهة في الأغلب الأعم!

ويوم كنت أكتب (ذكرى) كل يوم كنت أوظف قلمي فيها على نحو ما يمارسه الصديق الجفري في ظلاله منذ حين..

كنت أفتعل.. والافتعال صنعة أو اصطناع، غير أنه قد يرقى الى مستوى الانفعال إذا صحت الموهبة وملكة الحس الفني فيمن يكتب أو ينظم أو يرسم، أو يعبر، على نحو ما.

إن شيئاً كثيراً من الإنتاج في دنيا الشعر والنثر قد توحيه مشاعر الكاتب أو الشاعر في مواجهة مطلع الفجر، أو هدير البحر، أو مطارح الغزل بين الشجر والزهور.. أو عن رأيه وأفكاره في موضوعات تتصل بالحياة على اختلاف مساربها، فما يلوح إنتاج الكاتب أو الشاعر في مواجهات كهذه إلا انفعالاً صحيحاً رائع الأثر والتكوين، يسعد بقراءته من يرتاد سحر الفن وإشراق البيان.. ويصدق هذا على من يوظف قلمه، كما يصدق الدشُّ والهراء على أقلام أخرى تفتعل الموهبة لأداء وظيفتها في ملء فراغ معين من الصحيفة كيفما اتفق!

والحق من بعد ومن قبل أن الكاتب قد يهرش رأسه وصدره وأفكاره طويلاً لاختيار مادة الكتابة وموضوعها كل يوم، ثم قد لا يحس افتعاله على قلمه لأن الموهبة ليست أصيلة فيه.. كالتي تتدحرج على أقلام بعض الهواة ممن قد يجرُّهم - كما أسلفت - عامل اثبات الوجود الى ما يشبه العدم، حتى وإن خَايَلَهُم الزَّمْرُ والتصفيق.. رياءً أو ضعفاً أو مجاملةً أو شيئاً كهذا يساعد عليه غياب النقد الحي وموازينه الصحيحة من الميدان!

ثم ما هي مهمة الكاتب أو الشاعر سواء كان أو لم يكن على مستوى الريادة كما قد يظن هو أو الآخرون؟ أتراها هي الأدب للأدب والفن للفن كما يقال؟

إنه مذهب قد يُشْبِع هواية الأبراج العاجية، ولكنه ليست كل شيء.

هناك حق المجتمع على الأدب والفن، وهو الانفعال به وبمشاكله انفعالاً صادقاً مؤثراً في حاضره ومستقبله، وفي تطويره على نحو أفضل وأرقى.

ولعل مشكلة المشاكل هي الوعي المبعثر أو المفقود!

إذا حصلنا على رصيد ضخم من الثقافة ومن منجزات الحضارة ومن مقومات الحياة على اختلافها - فإن هذا لا يكفي إذا لم نُوظِّف ذلك الرصيد في وعي صحيح يعيشه سلوك الفرد والجماعة عملياً لا مجرد نظريات تعيش في وادٍ، وتطبيقات السلوك في واد آخر، كواقع الحال في مجتمعنا، وفي مجتمعات أخرى تحاول أن تظفر، ووعيها يحاول العكس بمظاهر الضعف والانحلال فيه.. من الكذب والنفاق والرياء الى الشر والغش والخداع.. الى سوء الخلق والتعامل باختصار!

وما أَضْيَعَ الحياة في مظاهر كهذه وإن أشرقت عليها شمس الثقافة والحضارة كل يوم.. وما أَضْيَعَ القلم في معالجة قضايا الشرق الأوسط والأدنى، أو قضايا العالم بأسره، أو في أية معالجة لا تلتمس هَزَّ الناس لإيقاظ الوعي الصحيح فيهم وفي المجتمع!

إن هذا - كما يلوح - صعب ومرير لأنه يتطلب مواجهة النفس والناس بما تكره ويكرهون، وهي مهمة قد تُبَرِّرُ مشقتها احتجابَ أية أقلام أصيلة لعلها فضلت أو تفضل الانزواء على السباحة فيما يشبه مجاري المياه!

ومجال القول مايزال واسعاً، وقد شَدَّني إليه قلم صديقنا الجفري على طول العهد به وبظلاله الندية، مذ كنت وأنا أكتب هذا هائماً في الطرف الآخر من العالم.. غير بعيد عن (شلالات نياجرا) وعلى هامشها لا تطيب الكتابة.. وإنما يطيب التهويم!

عملاق . . في دنيا الفكر

يصدّني عن الكتابة الكسل أو الزهد أو شيء كهذا أو ذاك.. ولقد ترددت طويلاً بعد قراءة مقال تفضل به قلم الصديق الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي في الملحق الأسبوعي الصادر عن جريدة المدينة المنورة بتاريخ ١٠/٨/١٤١٠هـ تعليقاً على «أيام في المستشفى» وهو كتاب أو كتيب يروي قصة مشاعري بإيجاز خلال أيام سابقة ولاحقة أمضيتها في المستشفيات، وقد استهل الأستاذ الصديق مقاله بالإشارة إلى أيام أخرى لها تاريخ يحسب بالسنين في عالم الزمن، ويقاس - إذا صح القياس - بالبحر في عالم المدّ والجزر نفسياً.. على مَرِّ قِصَّةِ الحياة!

لقد عشنا الزمن والبحر معاً هو وأنا في أحضان وادٍ غير ذي زرع.. نعايش العمل، ونصابر الحياة على المرّ والحلو بين جدران (ديوان النيابة) يوم كان هذا الديوان هو المهيمن على دوائر الحجاز باستثناء دائرة المال التي كانت هي الوزارة الوحيدة بعد أو قبل وزارة الخارجية.. وكانت هيمنة «النيابة» أو ديوانها عليها شكلية، كهيمنة رئاستي التي تحدث عنها الصديق، فما أكثر ما كنت أنصاع لرأيه إذا اختلفنا.. وأيّنا الرئيس حينئذ أو المرؤوس باستثناء الشكليات؟

وقد عرفته وعرفت نضوجه فكراً وأدباً من قبل زمالة العمل، حتى لقد ظننت أنه يحمل عصا الأستاذية منذ ولد وترعرع حفظه الله.. ثم مضى كأقوى ما يكون عملاقاً في ديوان الرئاسة بعد انتقاله الى الرياض، وعملاقاً في دنيا الفكر

والإنتاج، فقد احتضن نادياً أدبياً داوي السمعة والرنين، وداراً للنشر فاض انتاجها ويفيض من وقت لآخر، بينما ظَلَلْت حيث أنا أدور حول نفسي غالباً، فأيّنا الأستاذ إذا استثنينا الشكل الذي أضافني به إلى الرعيل الأول، وما أحسبني كذلك إلا إذا تسامحنا في تقدير عبوات الرعال!

وأحسبه من كبار النفوس الذين يضعون أنفسهم في أقل من منزلتها إذ تحدث عن مدى الجهل والغرور فيه خلال مرحلة التجربة أو الاطلاع..

وسيظل شيء كهذا الاعتراف من مزايا الشعور الحيّ في نفوس الكبار الذين لا أجامل الرفاعي أو أنافقه إذا قلت انه في مقدمتهم.. وليس هو من أولئك الذين يعيشون في متاهة الغرور على امتداد خط السير والتحليق، وَتَصَوُّرِ السحاب بساطاً لا يهتز تحتهم.. والله أعلم بحالهم على بساط الأرض!

ولقد استراح هو - كما استرحت أنا - الى دنيا التقاعد التي أحيا فيها لنفسي، على ما أحس من العجز - لأسباب يطول شرحها - عن توجيه هذه الحياة لصالحي كما أريد وأتمنى.. وآسف - ربما الى درجة الرثاء - لأن هناك من يخافون التقاعد ويخشونه كما لو كان «بالوعة» تسوقهم الى مجاري الضياع بين طبقات الأرض!

ولقد استقى الأستاذ رائقاً بعد التقاعد وهو يطالع كتابي، فلم يجد لحسن الحظ إلا ما يشعر بالاعتزاز، إذ يسوقني في الوقت نفسه الى التعليق على لمسات دقيقة.. منها - وأنا لا أتعمد الترتيب - إنني استعمل التعابير العامية التي أجد أنها أدل على ما أريد من معنى.. وهذا تفضل منه بإبانة عذري في استعمالها، كعبارة «استقى رائقاً» التي استهلّت هذه الفقرة على نحو ما يقول القائل لمحدثه: «استقِ رايِقْ» والكلمتان عربيتان تغلب العامية عليهما كجملة فيها معنى الحث على الهدوء والأناة، ولعل الأصل هو الاستقاء من موردة المياه يوم كان السقاة

يتزاحمون عليها لنقل الماء الى البيوت في أوعيته التي كانت سائدة حينذاك، ثم درج استعمال التعبير في مجالات أخرى من المعنى والكلام.. وهكذا أجد وقد يجد غيري سلامة الأداء على نحو ما أشار إليه الأستاذ الصديق في استعمال تعابير «عامية» لعلها تؤدي ما لا يؤديه التعبير الفصيح.. على ما قد يكون في أصلها من الأصالة أو الفصحى إذا كان ولابد من التحقق عن ذلك، وإن كنت لا أراه، لأن استعمال كلمة أو جملة «عامية» لها دلالتها ومعناها الشيق لا يَحْرُمُ ولايمتنع، بل قد يحلو وتفوق حلاوته حلاوة المقابل الفصيح إن تعذر هذا بنفس الاختصار والروعة في أداء بعض المفاهيم..

وأنا أذكر كل هذا مجرد استطراد لا داعي له في الواقع لأن الصديق لم ينتقده أو يعترض عليه..

وكلمة أخرى عن العقاد «يرحمه ويرحمنا الله» لا اختلف مع الأستاذ الرفاعي فيها وفي قبول أسلوبه على علاته وفي الاستمتاع بأفكاره وقدرته على الاستيعاب والاستقطاب والتركيز، وبقراءته والرجوع إليه في قضايا الفكر والنقد والأدب والفلسفة، ولكن كل هذا من مزايا العقاد لا يمنع أن يكون أسلوبه ثقيل الظل خاصة على مزاج مريض يتطلع الى التسلية في المستشفى، إذ لا مراء في امتناع فهمه وتذوق حلاوة أسلوبه إلا بعد المعاناة.

ثم يستطرد الصديق الى الزيارات، ويعتذر عما فاته منها.. مع أنه قد تفضّل بزيارتي في المعاناة التي عدت لها من «سنغافورة» وهو الوحيد الذي كانت هديته طبق رأيي في هدايا الأصحاء للمرض، فقد تفضل وأهداني كتاباً في عالم التصوف للهجويري، شدّني الى القراءة ثم لمناقشة أفكار شتّى موضوعها التصوّف.. ربما استطردت لاملائها يوماً ما..

ثم يمضي الصديق الى نهاية مقاله على نحو ما أسلفت مما يدعو الى

الاعتزار، ولا يدعو لأي تعليق مني بغير الشكر والامتنان، لاسيما وأنه - كما قلت أول الكلام - يصدّني عن الكتابة الكسل أو الزهد أو شيء كهذا وذاك.. الى آخر ما قد لا يطاق الإعراب عنه في دنيا الأدب والصحافة والمستويات، مع إضافة أنني قد تعثرت طويلاً - أنا وربما غيري كما أظن - في قراءة فقرات كثيرة من مقال الرفاعي لكثرة الأخطاء المطبعية التي تصد النفس حقاً عن النشر.. ولا أدري ما سيكون من أمرها في هذا المقال، رغم أنني رجوت وأرجو الأستاذ الصديق رئيس التحرير أن لا يكون منها في هذا المقال شيء مما كان في مقال الصديق الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي.

ومعذرة للقراء عن أية عبارة تبدو غير مفهومة بسبب أية أخطاء تكون رغم الرجاء والشكر على أن لا تكون!

على هامش الأيام

والأيام المعنيَّة هنا هي التي كانت لي فيها ذكريات وانفعالات كتبتها وأخرجتها باسم (أيام في المستشفى).

ولقد تفضل الأستاذ مسلم بن عبدالله المسلم في عدد سابق من صحيفة (الرياض) بتعليق ضاف كريم على الكتيب أو الكتاب المذكور.

واستطرد فيه الى ما ذكرته عن بعض من كانوا يُمْلون أفكارهم إملاء كأبي العلاء وطه حسين والرافعي بقوله «إذا كان المعري وطه حسين غير مبصرين مما يضطرهما للإملاء فإن الرافعي مبصر لا يحتاج إلى الإملاء ولا أظنه يستطيعه لأنه أصم لا يسمع» إلى أن قال «ولعل هذا التصور بالنسبة للرافعي سهو من المؤلف» ومضى في كلامه عن الحواس والجوارح إذا فقد بعضها.. الى آخر الكلام.

ويبدو في ظاهر الأمر أن ما قاله الأستاذ حق صحيح، فما يتعذر على من لا يسمع أن يكتب كما يتعذر ذلك على من لا يبصر..

وكنت قد اعتمدت فيما كتبته عن إملاء الرافعي على ذاكرتي التي اختزنت من قراءات سابقة أن مصطفى صادق الرافعي كان.. يُمْلِي فأين كانت هذه القراءات؟

وتذكرت مقالات نشرها محمد سعيد العريان - وهو صديق الرافعي وأحسبه كان من تلامذته أو من رواده في مجلة «الرسالة» المعروفة التي كانت تصدر

حينذاك - تحدث فيها عن الرافعي بعد وفاته (يرحمهما الله، فلقد توفي العريان بعدها) ومما جاء فيها أن الرافعي كان يُمْلي - وربما على العريان - مقالاته إملاء.. وتذكرت أن العريان جمع ما كتبه في كتاب اسمه (حياة الرافعي) وليس هو من ضمن موجودات مكتبتي المتواضعة..

وأعرف أن صديقي - من عهد مجلة (الرسالة) - الأستاذ/ محمد حسين زيدان يحتفظ بذاكرة فذة يستعان ولا يستهان بها، فهاتفته بما كان حول إملاء الرافعي فلم تسعفه ذاكرته ووعد بالبحث عن كتاب العريان.

ثم في اتصال هاتفي بالصديق الأستاذ/ عبدالعزيز الرفاعي ذكرت له نفس الشيء، فوعد أيضاً بالبحث عن كتاب العريان.

ثم جاءني جواب الصديقين مؤكداً صدق ما في ذاكرتي عن إملاء الرافعي وصواب ما كتبه عنه بالتالي.

وأضاف الزيدان مشكوراً أنه سيكتب في الموضوع.. وقد فعل فأطربَ كعادته واستطرد لذكريات ومعلومات أخرى عن الرافعي ومزاياه، ومقاله في العدد ٨٢٥٥ من جريدة (المدينة المنورة) لمن يشاء.

كما تفضل الرفاعي مشكوراً بإرسال نسخة إليَّ مما قاله العريان عن كتابة الرافعي وإملائه، ولقد راجعت النسخة، فاتضح أن إملاء الرافعي، وعلى العريان بالذات، قد ورد ذكره أكثر من عشر مرات في فصل طويل عنوانه (كيف كان يكتب؟) بالإضافة إلى ما أورده أخي زيدان عن إملاء الرافعي على العريان مقالة «كفر الذبابة» كما أن فصل (كيف كان يكتب؟) قد تضمن الإشارة لأنه كان يقيد خواطره في قصاصات ويملي منها وأنه كان يكتب أحياناً.. وقد يبدو غريباً أن يملي الأصم منذ كان انقطاعه عما حوله كافياً ليصرفه إلى الكتابة في جو ملؤه السكون واحتواء النفس والأفكار بعيداً عن الانزعاج بالمؤثرات.. غير أن الأستاذ/ العريان قال ضمن ما قال : (وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول، حتى ليقف عند

بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ سمعه الباطن، ثم لايجد لها موقعاً من نفسه فيردها وما بها من عيب ليبدل بها جملة تكون أكثر رنيناً وموسيقى، وكان له ذوق خاص في اختيار كلماته يحسه القارىء في جملة ما يقرؤ من منشآته، وكنت أجد الإحساس به في نفسي عند كل كلمة وهو يُمْلي علي):-

أفيكون ما جاء في هذه العبارة من كلام العريان عن موسيقية القول واحتفال الرافعي بها، وعن سمعه الباطن واستبدال جملة بأخرى وذوقه الخاص في اختيار كلماته مبرراً كافياً للإملاء؟ أفيكون لرنين العبارة أو الألفاظ صدى يسمعه الأصم في باطنه.. وإن لم يسمع في الظاهر شيئاً..؟

ربما.. وهذا على أي حال ليس موضوع بحثي الآن، فالمهم - بعد كل ما أسلفت أن ما ذكرته عن إملاء الرافعي لم يكن سهواً، وقد صدقت ذاكرتي فيه.

* * *

ثم قد تفضل الأستاذ/ مسلم بملاحظة أخرى موضوعها استعمال بعض كلمات مستوردة مثل «أسانسير» و«طرابيزة» وأنني لو استخدمت اللفظ العربي للكلمتين لكان بلا شك أسمى وأفضل.

وهي ملاحظة لا أنكر فضلها، وهي تمثل رأياً أحسبه راجحاً في ترجمة الكلمات الأجنبية التي يلزمنا استعمالها الى كلمات عربية، وبهذا درج العمل منذ حين طويل في المجمع اللغوي وربما في غيره باسم الحفاظ على اللغة العربية وسلامة كيانها.. ومع تقدير واحترام هذا الرأي لا أرى، وربما سبقني الى هذا الرأي آخرون لا أذكرهم الآن - لا أرى أية خطورة على اللغة من استعمال الكلمة أو الكلمات الأجنبية في السياق العربي، لأن لغة العرب تشبه أضخم معدة كمعدة الفيل - ولا تشبيه - في طحن وابتلاع عشرات الكلمات الأجنبية، وتحويلها بقدر الهضم وطاقته الفذة الى كلمات عربية بأحرفها ونطقها واستعمالها كما لو كانت

عربية المولد أصلاً.. مثل أحرف كلمة «الأسانسير» التي درجت وتدرج على الألسنة كأحرف كلمة «المصعد» التي قد تحتمل معنى آخر لا تحتمله كلمة «الأسانسير».

وإذا كان نقل معنى «الأسانسير» إلى «المصعد» قد بدا سهلاً، فإن هناك كلمات أجنبية كثيرة - في المجال الطبي مثلاً وفي المجال الفني إجمالاً - يكاد يتعذر نقل معانيها الى اللغة العربية بأداء مفهوم يسهل التخاطب به، مع أنه قد درجت الألسنة والأقلام على استعمال الأصل الأجنبي، ولا يخشى على اللغة من مثل هذا الاستعمال مذ كانت لغتنا تقوى على ابتلاع أية كلمات أجنبية نضطر لاستعمالها وعلى تمثيلها عربية النطق والحرف، وكأنها عربية الولادة والأصل والاشتقاق.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كلمات إذا صحَّ أنها أجنبية الأصل، فقد ذابت أجنبيتها وأصبحت عربية باستعمالها فيه، على أن بعض الأساليب التي اختلطت العجمة بالفصحى وانهار الأداء السليم فيها، وتبدو كالرَّطانة أو الكلام العامي المبتذل - فيها وفي نظائرها ما قد يدعو الى المخافة على اللغة أكثر من استعمال كلمات أجنبية في سياق عربي صحيح، غير أنه لا مخافة في أي حال على لغة القرآن.. والبحث في هذا يطول، ولست بصدده إلا لماماً على نحو ما أسلفت، هذا مع تقدير واحترام الرأي القائل بترجمة الكلمات الأجنبية ما أمكنت الترجمة.

وبعد فلقد شدني عنوان هذا الكلام الى الماضي يوم كان هو عنواناً - رئيسياً كان اقتراحه مني، وكانت تتبادر الى الكتابة تحته أقلام أجنبية بالتناوب في كل يوم سبت من كل أسبوع.

كان هذا في جريدة «البلاد» منذ نحو ثلاثين عاماً.. وهي الفترة التي حرك شجونا في نفسي كلام ناعم كالحرير تفضل به الصديق الحبيب الأستاذ عبدالله

الجفري الذي كان يحبو أيامها في ميدان الأدب، وهو اليوم يتسنَّم ذروة يكفيه الله شرّ التعثر منها أو الانزلاق، وأحسبه الوحيد الذي يملأ فراغات كالتي يملؤها يومية وأسبوعية في عدة صحف.. وكنت أنا منذ حين طريح «ظلال» له ندية رقيقة في «عكاظ» سلمت براجمه من الأوخاز على حد تعبير أستاذ ظاهري كبير.

* * *

وبعد - مرة أخرى - فشكراً للأستاذ/ مسلم بن عبدالله المسلم - سواء كان هذا اسماً حقيقياً أو مستعاراً - كما قيل لي - على مشاعره الطيبة في تعليقه، ثم على أنه أتاح لي فرصة لكلام أرجو أن لا يكون تافهاً.. وأتاح لي أيضاً فرصة أخرى وهي أن أعلن شكري لكل من تفضل فكتب في الصحف أو كتب إليّ أو خاطبني بما يدغدغ العواطف تعليقاً على كتاب أو كتيب (أيام في المستشفى).